رائحة البيوت

رواية

أشرف حسن عبد الرحمن

أدب الجماهير

الإبداع طريق التقدم

كتاب أدبي يشرف عليه:
فؤاد حجازي

المراسلات :
المنصورة – ش المندراوي
– عمارة الفردوس
جوار مدرسة الشيخ حسنين
الرمز البريدي 35111
ت : 050 / 2247168

رائحة البيوت

رواية

أشرف حسن عبد الرحمن

- الكتاب : رائحة البيوت
- الكاتب : أشرف حسن عبد الرحمن
- الطباعة : دار الإسلام للطباعة والنشر

  ت : 050/ 2250453

  0122614363
- رقم الإيداع : 2005/14053
- ترقيم دولى : 977- 374- 100- 1

كل هذه البيوت

د. عبد المنعم الباز

من قديم علمنا شيخنا الهندى " بيدبا الفيلسوف " أن نحكى كى نختبئ خلف الرمز من غضب السلطان . ثم علمتنا ملكة الحكايات " شهرزاد " أن نحكى كى نراوغ ملل شهريار وسيف الجلاد — بكل التشويق الغرائبى الممكن — ليلة بعد ليلة بعد ليلة ، لكننا فى أحد أمسيات " الأغانى " لأبى الفرج الأصفهانى سنجد الأمير مصعب بن الزبير يدعو "الشعبى" الراوى لمنزله ويدخله قدس أقداسه - وهو الأمير المسلم- سامحا له بنظرة واحدة إلى زوجته " عائشة بنت طلحة " جميلة جميلات عصرها قبل أن يصرفه. وفى اليوم التالى يسأله : " أفلا تدرى لم أدخلناك ؟...لتحدث بما رأيت " .

ونكتشف الوظيفة الجديدة/ القديمة جدا للحكى :

البوح ولملمة ما يستحق البقاء من جمال إنساني يذبل مع الزمن والتشبث بما يجب ألا تنساه القلوب . وهل الحكاية — فى الحياة الحقيقية وعلى ألسنة الناس العاديين — غير ذلك ؟

يعود بنا أشرف حسن فى هذه الرواية " وفى معظم قصصه تقريبا " إلى منطق الحكى البسيط القديم : لا تبحث هنا عن أيديولوجية متخفية . رغم هذا سيأخذك سحر الحكى وتعجز عن مقاومة السطور متذكرا بيوتك أنت التى سرقتها الأيام . وبمهارة عم مصطفى وهو يصنع تلك الطائرة الورقية الكبيرة ، سيجدل أشرف كل تلك الذكريات ممسكا بخيط المكان فى مواجهة رياح الزمان . (هل أعترف

أننى أحد الأولاد الذين ينظرون الآن بحسد إلى طائرته الروائية ؟) .

سيضحكك ويشجيك ويقلد بالربابة صوت فتح الباب ، كالريس "اسماعين" أستاذه الروائى الأول . سينتحل لغة الأطفال وشتائم الشوارع وأناشيد الصوفيين وتحنحات المقرئين وتمتمات القساوسة . كل هذا كى يربت بيده الصغيرة ، هو " الولد السخيف المهذب " على أحزان كبيرة غائرة فى تلك العيون التى أحبها وهو يقولها بوضوح "وكنت أتمنى أن أعيدها ، أنا الذى احفظ تاريخها ، مثل مكعباتى ، بيدى الصغيرة إلى مكانها ."

عبر الرواية ستتكرر كثيرا جدا كلمة "البيوت " ، ودائما مسبوقة بأداة التعريف ، مؤكدا على مبرر كتابته الأساسي :

إنه المتحدث باسم هذه " البيوت " . ذلك الولد المحروم من اللعب والذى اضطر إلى لعق العالم بعينيه حتى اكتظت ذاكرته ، سيسرد شهادته ويكتب هذه "البيوت " . لاحظوا أننا لا نتكلم عن "منازل " أو حتى " بيوت " ولكن عن "البيوت" ، تلك التى تستطيع أن تغمض عينيك فترى شروخها وأحزانها حتى لو كانت قد أزيلت منذ سنوات بفعل حريق أو زلزال أو الطلوع فى التنظيم .

وبنفس المعنى يتحول الأشخاص الذين نعرفهم تماما إلى " بيوت " أحيانا نستند عليها أو نلتجئ إليها أو نفزع لسقوطها المفاجئ .

يفتح أشرف حسن بيوته كلها لنا ، بمقابل واحد : أن نشاركه مسئولية ترميمها (ألن تصبح بيوتنا أيضا؟). ساعتها — حين نسترد ذلك "سلم السماء الخشبى" — لن يكون بعيدا تحقق حلم النفري وأمل ناظم حكمت.

احترسوا إذن فالمسئولية صعبة والرائحة مغرية .. استنشقوا بحرص ..إذا استطعتم !

قد جاء وقتى وآن لى أن أكشف عن
وجهى وأظهر سبحاتى ويتصل نورى
بالأفنية وما وراءها وتطلّع على العيون
والقلوب وترى عدوى يجبنى وترى أوليائى
يحكمون فأرفع لهم العروش ويرسلون النار
فلا ترجع وأعمر بيوتى الخراب وتتزين
بالزينة الحق وترى عدلى كيف ينفى ما سواه
وأجمع الناس على اليسر فلا يفترقون ولا
يذلون فاستخرج كنزى ... وتحقق ما
أحققتك به من خبرى وعدتى وقرب طلوعى
فإنى سوف أطلع ويجتمع حولى النجوم وأجمع
بين الشمس والقمر وأدخل فى كل بيت
ويسلموا على وأسلم عليهم .

محمد بن عبد الجبار النفرى



فجر الثلاثين

كما ينسل الخيط من الإبرة جاءت ولادتى ميسرة. كان ذلك قبل أيام من النكسة وكان أول وجه تقع عليه عيناى هو حسن. بالتأكيد كنت مشغولا بأشياء أخرى فلم أهتم بمعرفة من هو صاحب الابتسامة ذات الخمسة والعشرين عاما. وعلى ما يبدو كان حسن ولدا شاطرا، جريئا و جدع. فبعد خروجه من مدرسة التجارة تتبع فتاة ذات وجه صبوح حتى باب بيتها، وحين خرجت له أمها لتجعل نهاره أسود من قرن الخروب، أنقذته لافتة "للإيجار" فقال إنه يريد أن يرى الشقة. يبدو أن حسن هذا كان أوسع حيلة مما نظن فلقد استغل رحيل أخيه الأكبر، الذى كان كابسا على نفسه كغطاء البراد، للعمل فى القاهرة، وكذلك مقدم اثنين من أخوته من البلد للدراسة فأقنع أخاه حسين بضرورة تغيير الشقة. وفى توقيت رائع حمل الأثاث القليل بمساعدة القادمين من الأخوة وترك منزل أم جورج. ثم عاد بحسين ليلا مستغلا أن رأسه يطن كوابور الطحين بعد هزيته "نوك آوت" فى مباراة ملاكمة فى النادى الملكى، حريصا طوال الطريق على تغطية وجه أخيه بفوطة بحجة كتم ومداراة آثار الدماء.

فى الصباح أبدى حسين رغم صداع رأسه وعينيه المتورمتين رفضه للسكن فى قلب كفر الغجر لكن حسن صارح أخاه بالموضوع على بلاطة، مقسما أنه لن يخرج من هذه الشقة ولو على أسنة الحراب.

لم يكن رضوخ حسين هو السبب المباشر فى نزولى للحياة، فلأن إرادة الرب تأخذ صورا غريبة، لم يترك حسن طريقة للتأثير على جارته البندرية. بدءا من رسمها صورا ملونة بالزيت، ومرورا بعودته من النادى إلى البيت بالشورت عارضا

عليها ساقيه الطويلتين، أو معلقا على كتفه بندقية الفتوة، ونهاية بفوران الدم فى رأسه الريفى وخناقته الشهيرة من أجل عيونها مع فتوة الكفر أبو السباع الخارج لتوه من السجن.

رغم أنه لم يقرأ لسارتر أو لكامى فلقد بدا حسن حتى ذلك الوقت وجوديا متمردا، وترك غرف الدراسة للرسم أو لممارسة كافة أنواع الرياضة من رماية وباسكت وملاكمة بل وحتى نطة الإنجليز، كذلك مطاردة الفتيات ذوات السيقان المخروطة البيضاء. لكن هداه الله أخيرا فحصل على الدبلوم، ولم يعن له شيئا أن البنت سافرت إلى الإسكندرية لتلتحق بالجامعة بل انتظر رجوعها كذئب صبور. أما عن سبب اعتزاله أدب الرسائل الغرامية والبرم فهو أن "مزة" صرخت أمامه "يا هوى الأبلة شافتنى." واكتشف حسن أن ذات الوجه الصبوح قد صارت بين يوم وليلة مدرسة بالمكافأة بالقسم الحربى فى مدرسته . ومهما كان رأينا فى عبد الناصر فلقد كانت الأحلام أيامه ممكنة التحقق. خطب حسن الأبلة التى هى الآن فى حكم مدرسته، وتزوجها بعد إنهاء الخدمة العسكرية فى اليمن مباشرة. وبينما جلس والده الحاج عبد الرحمن موظف الأوقاف ومزارع القطن ليتبادل حديثا وديا عن الوفد وبورصة القطن والعهد الجميل مع والدها، كان وجه حسن مزرقا كبذلته الكحلية فى الكوشة حين أطالت بعض الطالبات، صاحبات الرسائل القديمة، السلام والغمز لعريس الأبلة.

اعتنق حسن مذهبا برجماتيا، حيث راح يعمل لاهثا لاستكمال تأثيث الشقة فى رسم أطباق الفاكهة وبنات تطل صدورهن من ملاءات لف وصورا عارية كانت وقتها ملح غرف النوم. لم يكن قد مسح يديه من الألوان حين صرخت زوجته " نادى لى أمى." نظرت جدتى فى وجهها وانصرفت دون كلمة، ثم عادت ومعها أم سمير الداية. رغم الحر أغلقت زينب الباب والشباك خجلا. وعملا بنصيحة أمها وانتظارا لما هو أسوأ، أجلت صرخاتها بينما نامت أم سمير وجدتى بل وسُمع صوت شخيرهما فى الصالة.

ظنا منها أنه مجرد إنذار آخر كاذب فلقد طلبت زينب من زوجها الشاطر ألا يوقظهما. وفى تمام السابعة إلا الربع صرخت فيه أن يدركها لأن شيئا يكاد أن يقع منها. أمسك الشاطر حسن برأسى الصغيرة وجذب جذبة مباركة استيقظت على أثرها، أو بالأحرى على صراخى، جدتى وأم سمير الداية التى لامت أمى لعدم صراخها وكأننى ابن حرام وإن كانت قد تمسكت بحقها كاملا فى الجنيهين، أما حسن ....

لكن مالى أنا وحكايات العائلة. إن ما أريد أن أقوله هو شئ آخر وأعتذر للقارئ على وجع دماغه بهذه التفاصيل التى لم أكن شاهدا عليها . الحقيقة أننى هذه الليلة بالذات لا أستطيع النوم. غدا سوف أتم الثلاثين، وكانت العرب تسمى الشاب إن بلغها كهلا. وفى انتظار فجر الثلاثين الذى طالما بدا لى أبعد من سدرة المنتهى أهرب من قلق ما بالكتابة بعد سنوات توقف. أفتش فى أيامى فلا أجد حلما قديما واحدا قد تحقق. لم أخطف قلب ابنة السلطان بل خطفت هى قلبى ورست به فى مارسيليا. واليوم كنت مندوب العائلة الذى اصطحب السمسار لشراء بيت جدتى لأن نصيب أمى — على قلته — سيشترى لى عقد عمل فى الكويت المحررة.

لكن هذا كله، وكذلك لحظة الثلاثين التى ستهاجمنى أثناء كتابة هذه السطور بأسرع من رفة رمش ليست سببا مقنعا لكتابة سيرتى الذاتية. أهم ما فى الكتابة، على ما أذكر، هو اختيار لحظة الحكى. ويبدو أن الصدأ قد نال من قلمى فنسيت أبسط الحيل الفنية التى لا تفرقنى عن أى غلباوى لا تنتهى حكاياته التى لا تجلب غير الصداع.

ليست هذه إذن بداية مناسبة، فلنبدأ من جديد ببداية أخرى.

يدها ستظل على رأسك

حدث هذا فى زمن جميل عندما كان بإمكانك أن ترى النجوم أكبر وأروع وأكثر لألأة فى السماء، بل وتعتقد أن نجمة بعينها تتبعك فى كل خطواتك، وأن قمرا خصوصيا يسطع لك وينام على شباكك .

حدث هذا عندما كانت جدتى تحكى بفم تفوح منه رائحة القهوة، بصوت يقطر دفئا عن الشاطر حسن ، ويقطر عسلا عن ست الحسن، وينفتح من البيت المواجه الشباك فتقول جدتى "يسعد مساك يا صفاء." لحظتها تدور عيونك الصغيرة نحو وجه حليبى ... رائق ومبتسم، بينما تضغط عظام صدر جدتك الحانية على ظهرك، ويدها تحيط بصدرك فتحس أنك آمن تحت خيمة الليل.

* * *

هذا البيت لن يخبو دفئه أو يضيع فى صقيع الذاكرة. يستلبك وجيج الوابور ونار الكوشة الحمراء. لون أحمر ليس له سكون الألوان. احمرار حى متجدد. يحيطه الضباب الشفاف لدائرة الدفء من حوله. وعلى الجانب الآخر تطل صورتها متراقصة مثل زورق صغير على مياه هادئة.

مستمتعا ستقول مثلها "طوبة السنة دى تلج" تستحلب الآن فى الذاكرة رائحة قشر اليوسفى المحترق، وملمس فراء خروف العيد. ستنام على فخذها القوى، وستحكى لك عن أجمل الأخوال وأحبهم إلى قلبك ، مع أنك ولدت بعد وفاته. هل يمكن ألا تحب صورتين أبيض وأسود متواجهتين على الحائط ، فى بيت يخلو من أية صور أخرى؟ فى الصالون برواز لشهادته بذلك الخط الجميل. إنه فى عهد فاروق

.. تخرج من مدرسة التجارة العليا محمد بن جاب الله.

لم تخبرني أبدا كيف مات. كانت تحدثني عنه بين الحواديت وكأنها تخفيه في حصن قصر سكنه شاطر حسن، أو احتضنته فيه أجمل ست حسن. في سنوات أقل عددنا ستعلم من أمك أنه مات بـ "الله أكبر . كان طبيعيا ألا يوجد. ألا تحب كل أبطال الحواديت ولا تراهم حولك؟ ستحبه أكثر حتى من خالك محمود الذي يشتري لك الشيكولاتة والذي يطيل سجوده لتلهو كما تشاء على ظهره .

كانت مع أقل حركة... صوت قدم ... أو حتى صوت الريح تخاف على ابنها وشاطرها فتسكت عن الكلام المباح، لكن يدها ستظل على رأسك وهي تغني لك " ياعم ياجمال فين راحت جمالك؟ " حتى تروح في النوم .

* * *

حضنها ورائحتها هم كينونة طفولتك. معها ستتحقق كل رغباتك، وكأنها تملك خاتم سليمان وتفهم لغة الريح والطير والنمل. لجدتك القدرة على أن تحكي عن كل شئ في الدنيا . ستسمع صلصلة السيوف وتشم غبار المعارك. ستختفي مع موجة عالية في حضنها . ستتعب قدماك من لف بلاد وبلاد .... ستجوع وتعرى وتشكو إلى الله. لكن كل هذا لذيذ، فأنت تؤمن بالمعجزة وبأن الحوريات والساحرات الطيبات وبنات الجن وعرائس البحور بل وحتى سيدنا سليمان سيهبون جميعا لنجدتك، وستفوز في النهاية بقصر ست الحسن وحضن ست الحسن. اسألها وستجيب؛ عن الله والجنة والنار . سوف يصير الله صاحبك. نعم ، ستقول له ويقول لك. أما الملائكة فسيمسكون بيدك مثلها حتى لا تخاف وتجيب على الأسئلة يوم الحساب. سوف يشرحون أخطاءك وسيدافعون عنك. والله لن يفكر كثيرا، سيمنحك الرحمة لأنك لا تكذب، ولأن هذه الجدة بالذات جدتك.

في المساء، قبل النوم، سوف تغلق الشباك جيدا ، لن تدعك تنام ناحيته، بل على طرف السرير بعد أن وضعت المخدة الأخرى بالطول ، تخاف أن تستيقظ بالليل،

وتظن أن شباك الغرفة هو الباب فتفتحه وتسقط. سوف تسمع صلواتها على سيدنا محمد مثل الشيخ برهام وقد حفظت "اللهم صلى على سيدنا محمد، اللهم بارك على سيدنا محمد، اللهم وترحم على سيدنا محمد، اللهم وتحنن على سيدنا محمد، اللهم صلى على سيدنا محمد عدد قطر الأمطار وعدد أوراق الشجار وعدد الرمال وعدد النساء والرجال... آمين." ونقرأ لجدى وخالى محمد الفاتحة. تتلذذ بها دائما، فعلى آياتها جميعا قبلات جدتك ومع آمينها ذلك الحضن الدافئ. وكأنه أمر أن تترك نفسك وتغوص فى ثانية واحدة فى عالم تستجمع فيه كل الحواديت، وفرحك بالإجابات، وعفو الله، وحب سيدنا محمد ... وتنام.

* * *

ما السر فى أنك تستيقظ معها مبكرا على صوت القرآن من الراديو الكبير الذى لمحطاته ألف لون، لكنه لا ينطق إلا بالقرآن. تستيقظ - بعكس بيتكم - شابعا من نومك. لن تقضى ذلك الوقت الذى تحاول فيه استرداد روحك كل صباح. ستشرب دون عناد كوب اللبن وستأكل البيض المسلوق. لن تهددك مثل أمك. سوف تأخذك فى حديثها السحرى عن كل شئ فى الدنيا. دنيا تتابعها من شباكها، ولن تتركك تميل كثيرا وأنت تطل منه لأن رأسك أثقل من جسمك. حين تسألها، وأنت ترى العصافير متراصة فوق سلك الكهرباء، لماذا لا تموت العصافير ؟ فتخبرك بأن العصافير ليس فى جسمها دم وأنت لست عصفورا. كل سؤال وله جواب عندها. لن تضحك مثل أبيك وأمك وتقول إنها لا تعرف.

متى كانت تأكل ؟ كان فمها يفيض بالمدن المسحورة وهى تلقمك وقت الإفطار هذه اللقم الصغيرة، بل إنك لا تذكر إحساسك ولو لمرة واحدة بالجوع فى بيتها. ستسألك قبل الذهاب المدرسة هل أنهيت واجب مس إستر فتتأكد مرة أخرى. وإن نسيت ستكتبه معها، فهناك دائما وقت.

ستنهاك أن تكتب الكلمات الإنجليزية حرفا حرفا بل كلمة كلمة "كده أسهل

يا نينة." تخبرك بحكاية عم جمال البنا الذى راح يبنى قصر السلطان طوبة واحدة فوق طوبة واحدة، فسقط القصر وأمر السلطان بجلده؛ لأن القصر يبنى صفا صفا من الطوب المرصوص. تكتب الآن book كاملة ولن تعود إلى لعبتك السهلة: أن تكتب حرفا واحدا b حتى نهاية الصفحة وتعود لتبدأ من o.

• • •

"أنت أول فرحة تدخل قلبى بعد خالك محمد" ستخبرك كم تتمنى لك أن تكبر، ستكون ضابطا ومهندسا وطبيبا وسلطانا. ستحملك إلى مولد مار جرجس، وعلى كتفها فى القداس المزدحم ستطلب من أبينا بطرس أن يباركك، وأن يدعو فى صلاته لأمك. بعدها ستوقد شمعة طويلة لستنا مريم. ستعود وتخبر أمك أن الحمل لن يتعبها هذه المرة وأن أم النور لن تتخلى عنها فهكذا وعدنا أبونا بطرس. اليوم أخبرتها أننى بادلت البراية الجديدة من جورج بصورة السيدة العذراء وهى تحمل يسوع. ستعطينى من وراء أبى ثمن براية جديدة، وستحتفظ لى بصورة العذراء ويسوع والروح القدس المرفرفة كحمامة فى الدولاب، مع أوراق خالك محمد.

• • •

نشأت على الاعتقاد أن جدى كان من كبار تجار القطن، وكان يحلو لى تخيله واقفا بعصاه وطربوشه فى البورصة. كان يعمل مع خواجة طليانى لم أحفظ اسمه أبدا، وكانت جدتى تخبرنى عن أيام العز القديم، كيف كانت تسهر معه حتى الفجر فى عد الأوراق " أم ميه " وزيادة فى الاحتياط كان يسافر فى القرى لشراء القطن وقد أخفى النقود فى بطانة بالطو كاكى قديم، ويقرأ على دقات حصان الحنطور "قل أعوذ برب الناس و وسيكفيكهم الله وهو السميع العليم" لتجنب أولاد الليل الذين يشمون دائما رائحة نقود القطن وأنفاس الكونياك . مازالت جدتى تحتفظ ببذله وعصيه، كذلك بالطربوش القديم المخروم برصاصتهم. تقول أمى إنها فى الزمن البعيد كانت تجلس بجوار الراديو الباى الألمانى لتسمع نشرة البورصة فى الثانية

والنصف وتسهر تنتظره لتحصل على قرش إن ارتفع سعر القطن. لكنه فى الحقيقة كان مجرد شريك للخواجة.

جدتى لسبب ما هى ملكة هذا الشارع .

كان يمكنها أن تغادر ذلك الحى وأن تسكن فى بيت أكبر فى توريل، لكنها تمسكت بحتتها وأهلها وناسها . "خالتى أم محمد" ينطقون بهذه الكلمة أمامها وكأنهم فى خشوع الصلاة. يكفى أن ينطق عم فتحى بكلمة بذيئة لزوجته حتى تفتح جدتى الشباك، وقبل أن تنظر إليه، إلا وتسمعه يقول معتذرا" لا مؤاخذة يا ست أم محمد ... عاجبك كده يا بنت الكلب دايما توقعينى فى الغلط." لو تخانقت جارة مع زوجها وأقسم أن يطلقها "الفاجرة بنت الـ....." تلتجئ إلى بيتنا ،ولن تخذها أم محمد، ستنال لها العفو هذه المرة فقط "عشان خاطرك بس ياخالتى أم محمد."

لن تختتن بنت إلا فى حضورها . هى التى تخرم أذنها . هى التى تمسك الهون فى السبوع وتقول "اسمع كلام أبوك وماتسمعش كلام أمك." وفى أوان الكحك سيمتلئ البيت بالجارات ليساعدنها . ظلت وفية للمرحوم محمد لا تصنع الكحك ولكن بعد مولدى، لأننى الطفل الأول فى العائلة، صنعت ولأول مرة منذ وفاته كحكا . لكنها تجامل الجارات بأن تذهب لدقائق لتختبر العجين ، وعلى سبيل التبرك ستطلب منها جارة أن تنقش أول كحكة. فى أيام أخرى ستكشف على السردين لتتأكد هل سينجح تفسيخه أم لا ، وستنظر فى الزبيب نظرة خبيرة وتخبر الجارة هل تتركه فى الشمس يوما آخر أم لا . حين تقصدها جارة فى سلفة ستخرج المنديل من صدرها وتعطيها النقود فى صمت دون أن تسألها متى ستردها .

بيتها هو آخر زيارة تقوم بها الحاجة أمينة قبل السفر إلى الحجاز ، وحتى بعد انصرافها ستظل جدتى تزغرد وتقول "مكتوبة لك يا أمينة." تندفع الدموع من عينيها وهى تتابعها من الشباك تسلم على البيوت والمداحون يغنون لها بالدفوف والمزامير ، ثم تغنى معى "رايحة فين ياحاجة ، يا أم شال قطيفة؟ رايحة أزور النبى

النبى والكعبة الشريفة..."

وحين تعود الحاجة أمينة ، ستدخل بيت أم محمد قبل بيتها. ستأخذها جدتك في حضنها. تقبل ملابسها التى زارت قبر سيدنا النبى وتتشممها، وحين ترى الحاجة أمينة كل هذا الشوق تقول "خديها يا زكية" فتسألها جدتك "انت كنت لابساها بجد فى الكعبة يا أمينة؟" وترد أمينة "وحياة بنتى يا زكية." سترتديها جدتك بعد ذلك فرحة، غير عابئة بكلام أمك ، كلما قامت للصلاة. وبعد أن تنصرف الحاجة أمينة، تفترش جدتك دموعها وسجادتها لتسمع صلوات السادة البرهامية "في كل يوم ألف مرة..اللهم صلي علي سيدنا محمد ملء سبع بحارك وزنة سبع بحارك وعدد أمواج بحارك من يوم خلقت الدنيا إلى يوم القيامة ألف مرة"

ومن الشباك سنرى أن عم محمد النقاش قد انتهى من رسم الجمل والطائرة وكتب باللون الأخضر على جدار البيت المدهون لتوه بالجير الأبيض "حج مبرور وذنب مغفور" وتزغرد جدتك حين تسمع الشيخ تحسين يقرأ من أوراده: "اللهم صلي علي سيدنا محمد صاحب الحسن والجمال والبهجة والكمال والبهاء والنور والولدان والحور والغرف والقصور واللسان الشكور والقلب المشهور والجيش المنصور."

* * *

الآن تستطيع الحاجة أمينة البقاء عندها براحتها فلقد مضى أسبوع على وصولها من الحجاز، شبعت فيه من المهنئين وشبعوا منها.

"عقبي لك يا أم محمد." واجب الضيافة هى سبرتة القهوة. ستجلس معها الحاجة أمينة على فراء الخروف، وبعيدا عن سبرتة القهوة. البيت يفوح برائحة البن، والعالم كان هادئا حتى فى ضوضائه ... براحا. الحاجة قهوتها سادة مثل جدتك. هذا اللهب الطفولى تتابع على ناره الشقية الزرقاء بشغف أول دائرة صغيرة للقهوة، وهى ترتفع بقوة الطرد إلى أعلى ، فى دائرة منتفخة تحب استدارتها. تعلن بفخر لجدتك "الوش لم يا نينة." هى مشغولة عنك، فعينها وأذنها وروحها مع الحاجة،

لكنها تعرف دون أن تلتفت متى ترفع الكنكة، وأن تلفها بحرص وهى تصبها لتصبح ذات وجه سميك دسم فى فنجان جاء به المرحوم محمد عليه ألف رحمة ونور من شارع عمر المختار من غزة. ستستمتع رغم أنك تكره مرارة القهوة بصوت أول رشفة، وترى وجهك فى عيون زرقاء مثل هب القهوة، يتملى فى امرأة ذات شعر أبيض يطل من تربيعة سمراء، تحتسى فنجان قهوة وهذه المرأة هى جدتك.

* * *

"أمك مابتغلبش طلبات." ثم تدّعى الغضب -أنت تعرف ذلك فهى لا تحب فى الدنيا أحدا مثل أمك. راضخة تذهب إلى السوق. تتمنى أن تكون لك قوتها لتحمل عنها السبت الثقيل الممتلئ وتفاصل البائعين . سوف تشترى الرجوعة للفراخ، تكتال بكر وتملأ يديها حول صفيحة السمن الفارغة. سيصير السبت أثقل وستحمل أيضا على رأسها كرنبة كبيرة. فى زحام السوق ستذكرك بين لحظة وأخرى أن تتشبث جيدا بملابسها . وأنت تسير معها بفخر حين ترى البائعين يزعقون فى امرأة تفاصلهم، لكنهم مع جدتك التى يعرفون اسمها يستسلمون " دايما تغلبينى يا ست أم محمد."

سامحينى ..أنا الذى طالما أوقفتك وطلبت منك جيلاتى، فكنت تنزلين السبت وتمدين يدك فى منديلك، بهذه الحركة الغريبة التى لا تخرج سوى ما تريدين فقط ، كل نقودك ملفوفة على بعضها بمهارة وحرص ألا تعرف عين كم فى منديلك. كنت تنتظرين صابرة حتى أشترى الجيلاتى ألعقه طوال الطريق، وتمشين أنت متئدة، مثقلة بحملك، وبيدى التى تتشبث بجلبابك الأسود.

* * *

لكننى لن أسامحك على يوم طهورى. عندما جاء الأسطى "وتة" إلى بيتنا. وكيف أنك أنت ... أنت التى عندما جربت لأول مرة التزحلق على درابزين السلم اختل توازنى قبل نهايته، وتعلقت به يداى بينما صار جسمى فجأة خارج السلم،

فصرخت. أنت التى سمعت صرختى فهرولت من أعلى مذعورة. احتضنتنى ولم تقولى لماذا لم تترك يدك وتقع تلك الوقعة الصغيرة يا جبان، بل أقسمت أنك ستلسعينى بالنار لو فعلتها مرة أخرى وبكيت مثلى.

أنت. أنت التى ألبستني الجلباب الأبيض واندفعت فى الزغاريد وكأنى رايح الحجاز. أنت التى رفعت عن ساقى الجلباب الأبيض وعرضت حمامتى، بلا حياء،على الأسطى "وتة". آه من كسفتى حين نظر قليل الأدب طويلا إلى حمامتى. ولما أمسك بها صحت بك "عيب يا نينة" لكنه فعصها فى يده. والله العظيم ياناس عصرها مثل الليمونة. أما يدك التى أمسكت بيدى ففرشحت ساقى ولم ترتخ للحظة. ازرقت ليمونتى وصغرت حتى صارت مثل زيتونة خرجت نواتها، فمد يده بالموس ليقتشرها .آه من أسياخ جهنم . ياربى جهنم أهون من هذا العذاب. من بين دموعى وصراخى كنت أرى يده تقتطع حمامتى. وأتساءل محموما هل عملتها على نفسى بالأمس وحملت المرتبة إلى السطح فعاقبتنى. والله العظيم امبارح دخلت الحمام قبل أن أنام وطرطرت ميه كتير .فى الصباح، أنا متأكد، كان الفراش جافا. ومن خلال دموعى التى جفت أرى الجلباب المبقع بالدم أتعجب لماذا تنتقم هذه العجوز منى؟ ليست جدتى من تأخذ بفرح نصف حمامتى مفلوفا فى رباط شاش، عقدته تنز دما وتضعها فى صدرها. ستبكى كثيرا وتقول لها "ابعدى عنى." تحاول عبثا أن توفر دموعك وحضنك لحبيبتك ماما التى دخلت باكية وقالت "حرام عليكى ... والله لو كنت أعرف ماكنت أروح الشغل، حقك علي يا شروفة." أخرجت لها نصف حمامتى فبكيت من جديد وأنا أنظر جيدا محاولا التذكر هل هذا هو النصف وتركوا لى النصف الآخر أم اقتلعوها كلها؟ فقالت "ماعدش شروفة. بقيت راجل مش بنوتة يا شرف".

يحدث يوم السبت

اليوم يوم السبت، موعد جلسة العلاج الطبيعى، وأمي في عملها. ستتركني جدتى عند أبلة جميلة، رغم أننى أحب الرحلة بالحنطور، وهى رحلة طويلة يأخذ فيها عم مينا عشرة قروش مقفولة. الجميل أننى سألح على جدتى لأركب جنب عم مينا و قد ينحنى للحظة كرباجه، ربما حتى قال لى أحد المارة "كرباج ورا يا أسطى"لأن ولدا تعلق بمؤخرة العربة . لكن حرام كما قال عم مينا أن أضرب الحصان أو الأولاد، سأفرقع مثله بالكرباج في الهواء. ستتشبث بى كالعادة يد جدتى من الخلف، لكنه شعور رائع أن تكون على هذا الارتفاع طائرا، ولو لمسافة قليلة وقصيرة فوق الأرض. الكورنيش قبل سحقه كان كله درجات من البلاط الأبيض، تحفه الأشجار الضخمة .يصبح الطريق مفروشا بوردها الأحمر وتحيطك مظاهرة من شقشقة العصافير .

سوف يفعلها عصفور قليل الأدب ويسقط الزرق، فتفاجأ ببقعة بيضاء ذات حواف زرقاء فوق ملابسك. ستمسحها عنك جدتك وتقول لك "تستاهل" فأنت لم تجلس معها داخل الحنطور، ذى الكراسى الجلدية المنجدة والمغطاة بالمشمع الشفاف، تحتها صور العذراء وسعاد حسنى ويسوع وعبد الحليم.

فى المستشفى، تتركك وتدخل حجرة بيضاء. أنت لم تبك لكنها حين خرجت ألقيت بنفسك، مثل طلقة خرطوش، فى حضنها وبكيت. تسألك "مالك؟" فتقول مكسوفا "بطنى بتوجعنى". مرة أخرى دخلت معها، رأيتها تعرى ساقها تحت قبة من الأضواء البنفسجية. دهنت لها الدكتورة المرهم، وبجهاز صغير أبيض ظل يئز فوق ساقها عملت لها التدليك الكهربائى. بدت جدتى متضايقة وتتعجل انتهاء

الجلسة .هل كانت تكره أن تريك ضعفها؟ لكنها استسلمت وخافت عليك من الوحدة بين أغراب.

أبلة جميلة جاءت من النجمة ، وهى تقول : " سلامتك يا خالتى أم محمد. ماتخافيش أشرف فى عينيا." أبلة جميلة تاجرة شاطرة، فزوجها عم مصطفى يسافر إلى لبنان ويعود ببضائع غريبة على شارعنا. أيام منع الاستيراد كانت تحضر لنا تفاحة أو اثنتين، مرة أحضرت قرطاسا أبيض من الفستق الحلبى لم تذقه جدتى، بل راحت تقشره لى وتضعه فى فمى "كل أنت ياشرف ... يوه دا إحنا ياما كلنا، جدك الله يرحمه كان بيشتريه بالسحارة." نظرت أبلة جميلة فى عينى وكأننا نقتسم سرا. كنت أعرف بيتها فلقد ذهبنا إليه مرة أنا وأمى وجدتى. بعد شراء أقمشة الديولين والتويد، دخلت وعادت ببذلة أطفال، فانلة وشورت من الهلانكا المقلم بالألوان، وقالت راجية جدتى "يا خالتى أم محمد دى لأشرف، والنبى ماانت كاسفانى." ستراوغ جدتك قليلا، وستعتذر أمك كالعادة وتستأذن فى الانصراف. لكن نظرة من جدتك فى وجه أبلة جميلة المكسور الخاطر ستجعلها ترضخ وتقبلها "النبى قبل الهدية يا جميلة." وفى بيتنا ستعاتبها أمك فترد فى هدوء ، وهى تفك الغلاف البلاستيك وتضع رأسك داخل الفانلة "انت يابت قلبك جامد ... ربنا مايحرم حد من الخلفة" ترد أمك "ابنى عنده هدومه ومادام شبطان خدى ادفعى لها تمنها." تقول جدتى وهى تنظر لى فقط وأنا أتعثر فى وضع قدمى فى الشورت "عريس ياشرف!؟" وتضمنى فى حضنها لترفع الشورت إلى أعلى وسطى وهى تلف أصابعها على الأستك فى حركة دائرية. سوت لى شعرى وقالت "قول لأمك بالراحة علينا شوية يا شرف" وحين حاولت أمك الاستزادة نظرت جدتك فى وجهها نظرة نارية جعلت لها أمى مثل قطة "مالكيش دعوة بابنى يازينب ... جميلة بنت حلال وبتجاملنى أنا مش بسلامتك يا موظفة." وكنت أعشق هذه اللحظة التى تبدو فيها قوة أم محمد بلا حدود.

* * *

تأخذ يدى فى يدها ، ونمشى فى هدوء حتى نصل إلى البيت، وبنفس الهدوء

نصعد السلم وتغلق الباب. ما إن تغلق الباب حتى تصبح أبلة جميلة واحدة ثانية. ترفعنى فجأة فى الهواء رغم أن جدتى كثيرا ما نهرتها. أستعذب هذا التحليق الجميل وأكركر ضاحكا فى سعادة ممتزجة بالخوف. تمسك بى وتقبلنى، قبلات كثيرة متتابعة. تحتضننى وتدور حول نفسها حتى ندوخ معا، وتجلس أخيرا على الكنبة مبهورة الأنفاس. بعدها تفترش الأرض تفك لى إبزيم الصندل، وتلعب أصابعها فى باطن قدمى. أو تقبل أصابع قدمى الصغيرة وهى تقول "ياللا ناكل الفستق" وتعضها بشفتيها. ستدس باطن قدمى العارى فى صدرها ثم تمسك قدمى بكفها الكبير. فى رحلة قصيرة تتحسسنى يدها من ركبتى حتى قدمى، وتظل محتفظة بصندلى فى يدها. ستنظر فى ركبتى وإن وجدت بها سلخا صغيرا ستصرخ "كده عورت نفسك؟" ثم تقبل ركبتى "تيجى ندوخ تانى؟" ستهز ها كتفك وتمشى معها حافيا على البلاط حتى ندخل غرفة النوم. ستخرج من الدولاب كيسا من الفستق الحقيقى وستقشره لى وتضعه فى فمى واحدة واحدة. تكتشف أن المرتبة أسفنجية وأن سريرها له سوستة. تقفز عليه بينما هى على حافته تمسك بيدك، خائفة أن تقع. أنا أحب أبلة جميلة فهى طيبة. هذه اللعبة لو جربتها على كراسى الصالون ستنهرك أمك وتتوعدك بعلقة ساخنة. لكن أبلة جميلة تتركك تتنطط حتى تشبع.

* * *

فى الصالة، تفتح باب الشقة فيدخل النور. كل هذا النور يأتى من الباب. ستارة الشباك لا تمنع شمسا لذيذة أن تحتوينا. ستنتقى الأرز فى القصعة وأنت بجوارها تتأمل الرسوم اليابانية الجميلة على روبها الحريرى الأحمر. أحيانا تتوقف عن تنقية الأرز، تسند مرفقها على المسند وتضع يدها على خدها. تنظر إليك ولا تتكل. ستترك الأرز وتأخذك فى حضنها، وتأخذ نفسا طويلا تجمع فيه كل هواء البيت و الدنيا والشمس حتى يمتلئ صدرها ويكبر. كأن هذه الوهدة بئر بلا قرار. تسقط فيه وتفزعك دقات قلبها العنيفة وتسمع صوتها متبتلا بشىء لا تفهمه. حضن بلا سبب، يثير دائما خوفك. يرتج صدرها بشدة. تندفع السخونة فى

وجهك وتغطى يدها كل رأسك. حين تبعد وجهك عن حضنها، ستزجوك أن تبقى لحظة أخرى "خليك فى حضنى يا شرف ..حبة كمان". تميز فى صوتها بكاء "انت بتعيطى ياأبلة جميلة؟" ترد فى حسم " لأ " .

• • •

هذا اليوم طويل جدا. فهى لا تعرف حواديت ولا تتكلم كثيرا، لكنها تحتضنك بين لحظة وأخرى. نفس الحضن الطويل الحار "هيه نينة مارجعتش؟" ترجوها أن تتركك تنزل الشارع لتلعب قليلا مع الأولاد من وراء جدتك فتصرخ "يا هوى.. دى خالتى أم محمد كانت تقطعنى." تبدو أحرص عليك من جدتك، ترجوها فتحملك إلى البلكونة ،وتجلسك على ساقيها لتتابعا الأولاد وهم يلعبون الكرة. أنت عصفور حبيس يا أشرف فى هذا الحضن وهذا الصمت. لكن عيونها جميلة وطيبة ، ودائما تضم حاجبيها فى حنان وهى تحدثك، لا تمل متابعتك والنظر إليك، حتى فى اللحظات القليلة التى تذهب فيها إلى المطبخ ستستعمل يدا واحدة ويدها الأخرى ستكون فى يدك تجذبك إلى حضن ساقيها.

قالت إنها تريد لتر جاز من عند عم غنيم. ستقول لها "ماما تزعق لى" فأمك لم تسمح لك أبدا، أبدا أن تشترى شيئا لأحد . "عشان خاطرى ... حأقف لك فى البلكونة لحد ما ترجع." ستعدك بكيس من الفستق، ستسألك هل تحبها أم لا ، وهل لها خاطر عندك أم لا "عشان خاطرى!" غريب، يمكنها أن تنادى واحدا من الأولاد وسيهرعون إليها ، بل يمكن أن تشير إلى عم غنيم فيرسله لها، أو يأتى بنفسه ويضعه فى السبت. "عشان خاطرى اشترى لما... لتر جاز ... مش أنت اللى تقضى لى طلباتى أقول لمين يعنى؟" سوف تمسح على رأسك، وتضع وجهك بين يديها. سترخى عيونك إلى الأرض مستسلما "طيب ولو ماما عرفت؟" تبتسم "هو أنا هبلة أقول لها؟" ستحملك إلى الكنبة وتضع ساقك على فخذها وهى تضع الصندل فى قدمك. سوف تضحك وتقول "فيه راجل بيغير؟" تدغدغنى فى كل جسمى، فأظل أضحك وتضحك معى حتى ندمع.توصلنى إلى الباب وأنا أحمل صفيحة الجاز الصغيرة

ونص فرنك. أعود ماشيا فى تؤدة لأن الصفيحة بلا غطاء. لكن الأولاد شاطوا الكرة فأصابتنى وأسقطت الجاز. قبل أن أقوم من خضتى مبتلا بالجاز الذى أغرق ملابسى. ستكون يدها أول يد تمتد إلى وتحملنى هارعة إلى فوق، تتبعها البنت عزيزة بصفيحة الجاز الفارغة. ستصرخ فى وجهك أن تخلع هدومك بسرعة وإلا "جسمك هيبربق." تكاد تبكى لأنها تصيح فى وجهك لكنك تستدرك خائفا "يعنى إيه يبربق!؟" ترد "يعنى حيحمر ويوجعك ومش حتعرف تنام" تتكلم بسرعة وهى تخلع عنك ملابسك فى الطريق إلى الحمام.

فى الحمام رفضت أن أخلع القطعة الأخيرة. ستملأ الطست ماء دافئا وترجونى أن أخلع قطعتى الوحيدة الباقية. أدمع وأقول يائسا "عيب"... "عايز ماما تعرف إنك وقعت الجاز على هدومك. ياللا ياعينيا أحميك وأغسل لك هدومك تلحق تنشف قبل ماترجع خالتى أم محمد" ضحكت على. بكل كسوفى استسلم ليدها. أدير لها ظهرى مداريا حمامتى فتضحك "انت مكسوف منى؟" أقول ووجهى ملتصق بالقيشانى البارد "نينة قالت لى عيب حد يشوف الحمامة" تضحك أكثر وتصب الماء على رأسى، تدعكه بالصابونة، وتعيد على أن أغلق عينى جيدا. عندما يصطدم الماء برأسى أجفل، وأرسل شهقة -وغصب عنى والله- أنسى وأمسح الماء والصابون من على رأسى، تاركا يدى بعيدا عن الحمامة.

* * *

منكمشا ومتدثرا بالفوطة الكبيرة. أتابعها وهى تشطف ملابسى بسرعة فى الرابسو. تتوقف فجأة وترفع قطعة مبللة أمام عينيها كأنها تبحث فيها عن بقعة. تعصرها فى طولة بال. تفرد فانلتك على يدها، وتسقط دموعها "ما تخافيش يا أبلة، مش حأقول لنينة." مرتجفا تنتظرها فى الحمام حتى تنشرها وتعود إليك بجرجرة ساقيها، تحملك إلى السرير وتسألك "طيب حتلبس إيه؟" تخلع عنك الفوطة.تتردد لحظة قبل أن تفك حزام الروب الأحمر. تفرده على مداه، تدثرك، تحكم اسداله على عريك وارتجافك. هكذا تدخلك فى عبها ،وتلتصق بعجينة صدرها

اللين. تجفل وتهم بالهروب. لكنها تتشبث بك وتقول "حتبرد" تستسلم راضخا. كأنك في خيمة، خيمة من دفء وحرير. ولأول مرة تحكى لك حدوتة. تروح فى النوم ، وحين تستيقظ ستجد نفسك مازلت فى حضنها . تظنها نائمة لكنها تفتح عيونا دائخة "مالك يا أبلة؟" ترخى يديها ، فتنتزع نفسك من خيمتها ، تغطيك بالملاءة حتى تأتى بملابسك التى جففتها الشمس وأصبح قماشها مشدودا . تضعك فيها بتمهل، تدير ظهرك مداريا حمامتك فلا تضحك هذه المرة بل تقول بصوت عجوز خفيض "شيل ايدك يا أشرف عشان أعرف ألبسك" لكنك تحتفظ بيدك وتؤخرها حتى اللحظة المناسبة، وبسرعة تجذب الكيلوت وتستسلم لبقية الملابس. يصبح لوجهها ذلك التعبير المشلول والراكد جدا حين تنظر إليك . تضع لك كولونيا فتصرخ لدغدغتها الحارقة.في يدها مشط عم مصطفى ،تسرح لك شعرك ، تدمع عيناك والمشط يجز فروة رأسك. أخيرا تيأس وتقول "مش عارفة شعرك سايح ومش نافع يرجع لورا."

* * *

تسأها جدتى بعد وصولها " مالك يا جميلة ؟ كنتى زى الفل الصبح."... "ماأعرفش ياخالتى أم محمد ساعات كده يجي لى صداع يقطعنى." تأخذ جدتى بيدى وتدير ظهرها منصرفة. أبلة جميلة لا تطاوعها أقدامها "لا مؤاخذة ياخالتى أم محمد"..."خليكى مرتاحة." وحين نغلق الباب ستقف جدتى لحظة وتدعو لها فى همس "ربنا يعوض عليكى ياجميلة " ثم تعود معى فى وجوم .

قالت جدتى إننى لن أذهب إلى بيت أبلة جميلة مرة أخرى، هل تعرف بما حدث؟ الجاز وموضوع الحمامة. سكت وخفت أن تقول لى إنها عارفة. لكن رغم كلامها ظلت أبلة جميلة تواظب على الحضور كل سبت، من النجمة، ولا تتعب من رجاء أم محمد حتى تستسلم أخيرا وتترك لها يدى.

* * *

عم مصطفى زوج أبلة جميلة لا يحبنى. هذا شئ مؤكد. ينظر لى دائما من فوق إلى تحت ويقول فى سخرية "أهلا يا أبو قصة ... وكمان لابس شورت يا خرع. انت راجل أنت؟" أقول له إننى رجل "بس يا دلوعة" " طيب والله لأقول لنينة"..." ست أم محمد عارفة انك دلوعة."

تحس أن شيئا قد تغير فى أبلة جميلة عند عودته. تدخل على الفور إلى المطبخ وأنت فى ذيلها، تفرح بهذا السمك الذى مازال بعضه صاحيا يلعب. ستراقب أبلة جميلة وهى تنظفه بالمقص ثم تقليه فى الزيت. بالطبع ستحمل إلى جدتك طبقا صينيا من أكبر الأسماك مغطى بطبق آخرأو بفوطة بيضاء، وحين ترسلك جدتك بالطبق لن يكون أبدا خاليا فهذا عيب. ستضع فيه فاكهة أو لقمة القاضى فحتى عند رد المنخل تضع فيه جدتى بعض الملح .

غية عم مصطفى صيد السمك وتربية الحمام. عند المغربية أراه واقفا فوق البرج ممسكا رايته الحمراء ويصفر لحمامه ذلك الصفير الجميل. سوف يهدى الست أم محمد دائما بعض الزغاليل . وسترسلك جدتك كل كام يوم بطبق بيض، أو تمنح أبلة جميلة قبل نزوها فرختين شمورت أو أرنبا. منذ أيام أهدته جدتى أرنبى الأبيض. أقسمت لها إنه أرنبى، فقالت كاذبة "ده واحد تانى." كان قلبى ممزقا وأنا أذهب معها بأرنبى الأبيض إلى عم مصطفى. بالتأكيد سيذبحه. عم مصطفى لو جاء حمام غريب إلى برجه، يذبحه على السطح أمام عيون أصحابه. آخر مرة أقسم له ماهر أنه سيذبح هو الآخر أى فرد حمام يلوف على فرد من عنده. لكنه تراجع وهو يرى السكين "طيب يا عم مصطفى نتفاهم لو جالك فرد من عندى لك شلن وتسيبه." كان رد عم مصطفى أن ذبح فرد الحمام . ظل يقطر دما فى يده قبل أن يلقيه إلى ماهر، الذى شتمه بأقذع الشتائم. ونزل عم مصطفى بالسكين فشرّح بها ماهر. كانت جدتى تراه من الشباك فتمتمت " قلة الخلفة قست قلبك كده يا مصطفى !؟ " وقالت لأم صفاء أن أم مصطفى - رحمها الله - كانت تشكو لها أنه لا يأكل الفراخ أبدا إن ذبحت أمامه.

جـرت أبلـة جميلـة فـى البلكونـة فأدركهـا. أمسـكها مـن شـعرها فصـرخت "الحقينى يا خالتى أم محمد." ارتدت جدتى ملابسها وأخذتنى معها. حين دخلنا، خفت من الكتاكيت التى تجرى فى الصالة، وقالت جدتى مستغربة "الكتاكيت شكلها وحش كدا ليه يا جميلة؟" رد عم مصطفى "دا سمان يا خالتى أم محمد جاى لى زيارة من دمياط والمفترية نتفت ريشه كله." قالت وشعرها محلول باكية "أعمل إيه يا خالتى أم محمد لما بادبحه ويبرد مابعرفش أنضفه" صرخ فيها "طيب أنا حاشد شعرك شعراية شعراية وأشوف حيوجعك ولا لأ؟" ضحكت جدتى وقالت "مادام يادرش قلبك حنين كده دبحت فرد الحمام ليه لماهر؟" قال غاضبا "لأ ... دى حاجة ودى حاجة." لما صعد على السطح بكت أبلة جميلة فى حرقة. وقالت جدتى "ادبحى جوز جوز ونضفيه قوام قبل مايبرد." ردت " دى مش حكاية سمان ياخالتى." وهنا قالت أم محمد "اطلع لعم مصطفى يفرجك على الحمام."

• • •

كان لا يحس بوجودى. مبهورا كنت أتابع حمامه وهو يقوم بدورات جميلة فى الفضاء، وأستمتع بصفيره المميز. لما دخل البرج ، دخلت ورائه. كانت أول مرة أرى فيها بيض الحمام والزغاليل الصغيرة، فكنت أمد يدى ألمسها فى خوف، كانت بحجم يدى. وسألنى "مبسوط يابتاع ستو؟" قلت نزقا "عايز انزل" رد بعناد وهو ينظر لحمامة جميلة لم تطر مع صاحباتها "أنا مش نازل دلوقت ..لو تعرف تنزل لوحدك انزل."

كان البرج عاليا مرتفعا عن السطح، حملنى فوق كتفه عند صعودنا سلمه الخشبى، فلم أجرؤ على النظر على أسفل. تجمعت عاصفة بكاء فى وجهى فصاح "لو عيطت حأرميك من هناهو ..." مرعوبا كتمت دموعى وقلت "نزلنى لنينة عشان خاطرى ياعم مصطفى" بينما كانت الحمامة إياها تنظر لنا بعيون سوداء صغيرة لامعة وتهز لى رأسها المائل. قال وهو يبادلها النظرات وهز الرأس "أنا عايزك تبقى راجل ... أنت اسمك أشرف، ماحدش يقول لك شرف ولا شروفة ومش كل واحدة

معدية في الشارع تملس على شعرك." ورأيته يمسك السكين فلم استطع منع دموعي. وأدركت أنه سيذبحني مثل حمامة ماهر. حين تشجعت قليلا ونظرت إلى أسفل كان الشارع بعيدا، دخت والتصقت به ممسكا فخذه "حاضر يا عم مصطفى." كان دموعي ولعابي يثيران بقعة لزجة دافئة على بنطلونه. مد يده على رأسي بتردد. ارتعبت. فالسكين لا يزال في يده، وفكرت هل سينتف شعري قبل ذبحي مثلما توعد أبلة جميلة "خلاص ما تعيطش ..قلت لك خليك راجل. أنا لو عندي ابن لازم يطلع راجل." وأمسك بفرد الحمام الذى قفز قفزة صغيرة وأطبق عليه يده "هتدبحها ليه يا عم مصطفى؟"... "عشان عيانة"... "بكرة تخف ياعمو"... "لأ دى خلاص جاتها الهزة ومابتطيرش" ثم ذبحها أمامي.

جلس يتابعها وهي تفرفر وتنز دما ثقيلا، جناحاها مفرودان على آخرهما تضرب الأرض في يأس. رفست سيقانها البنفسجية المتقلصة، وفي تشنج راحت ذؤابات أجنحتها البرتقالية المعكرة بالدم تحرث قبرا ضئيلا. حاولت أن تتكئ على جناحيها لتقوم مرة أخيرة ..لكن غادرتها الروح فجأة ،وراح جسمها المتقلص يتراخى ويهمد ويغوص في الأرض رويدا رويدا ..وتوقفت أخيرا عيونها عن التحديق في وجهي بينما كانت الريح تجفف دمها.

اختبأت بكل خوفي في حضنه ورحت أبكي. رق صوته ورفع خصلة الشعر عن جبهتي وقال "خلاص يا أبو قصة." أخرج المشط من جيبه وراح يسرح شعري إلى الخلف، عانده شعري والهواء ودموعي. وسألته "فيه حمامة مابتطيرش؟" قال " أيوه لو عيانة " وكنت لا أزال حزينا آسفا على مصير الحمامة "خلاص شوف كده شكلك أحسن" وأمسكت به خائفا من الارتفاع لكنني فجأة رأيت الطيارات الورقية الملونة.

نسيت دموعي، واندهش من فرحتي وأنا أقول "بص ياعم مصطفى دى طيارة سعيد ودى طيارة شوقي."

أنا الولد الخائب، آه لو تكون لي طائرة. من الشباك كنت أتابع الأولاد وهم

يصنعونها يوما بطوله وحين ينتهى صاحبها من عملها كان يحملها ويجوب الشارع فى فخر وفى يده الأخرى ربطة كبيرة من الخيط البازار، بقية الصغار الذين لم أكن أبدا منهم يحملون الذيل وكأنه فستان قطر الندى .

قال بفخر "عمك مصطفى أشطر واحد يعمل طيارة" وأشعل سيجارة بصعوبة بسبب هواء العصارى . بربشت جفونى المبتلة "بجد ياعم مصطفى؟"... "طبعا !" ألقى عود الثقاب المطفأ وسكت. قال مستغربا "إيه مانفسكش فى طيارة وتطيرها زى الولاد يا بنوتة ؟ "كنت فاغرا فمى على آخره وهو يتابع "وكل العيال تتفرج عليك ويقولوا شوفوا طيارة أشرف؟" بالتأكيد كانت لعبة مسلية أن يرى روحك قد راحت من الفرحة وأنت تتخيل طائرتك . سوف تمسك الخيط بنفسك، والأولاد يتزاصون على السطح والسلم يرجون جدتك أن يشاهدوا الطيارة . طيارتك الملونة ذات الذيل الطويييييـــــــل "بس مين يطيرها؟" قال "عمك مصطفى بس تمسكها جامد زى الرجالة."

* * *

فى اليوم التالى ، مر علينا فى الصباح، أخذنى إلى عم سالم واشترى لى أفرخ الجلاد الملون. فى البيت، راح يقص الورق بحساب، وبالسكين قطع غابة صيده الرومية وشقها وهو يقول "مش خسارة فيك ياعم." أعطى لأبلة جميلة بكرة الخيط التى فشلت فى تسليكها ولفها مرة أخرى على عصاة. ونادت على جدتى فلم أتحرك من جنبه. رجتها أبلة جميلة أن أبقى .كنت مبهورا أتابع عم مصطفى المستغرق فى العمل، وهو يشعل سيجارة وراء أخرى. رفض الغداء فأكلنا سندوتشات، ظل منحنيا فى صبر وحرص حتى أتمها . كانت أكبر منى وأكبر من كل طائرات الأولاد ... "فاضل الديل يابطل."

جاءت جدتك ، أيقنت حين نظرت فى وجهك أنك ستموت محسورا لو أخذتك. باستسلام، جلست معى أنا وأبلة جميلة نقص الشرائط الملونة لعمل الذيل.

رحت أعلمها كما علمنى عم مصطفى أن تربط كل ثلاث شرائط معا ، نناولها لعم مصطفى الذى يضيفها إلى الذيل . ومثل أمى حين تصنع التريكو ، مدت أبلة جميلة يديها المكتوفتين كأسيرة وظلت ساعة أو أكثر رافعة يديها فى الهواء وتميلهما بإيقاع منتظم، مرة لليمين ومرة للشمال، وجدتك تمد يدها لتسلك منها الخيط وتلفه فى بكرة مضحكة. أعاد عم مصطفى لفها على عصاة صغيرة بنفس مهارة الأولاد. كانت يده تتحرك فى الهواء كالمقص فى حركة دائرية سريعة. وفى النهاية قاس الخيط من الطرف اليمين والشمال، ثم رفع يده إلى أعلى وقال لى أنا شارحا "ده عشان الميزان."

أخيرا صار لديك طائرة .

وحش أسطورى أليف تمتلكه أنت وحدك. كانت أكبر منى بمرتين وكانت يدى لا تستطيع الإمساك بربطة الخيط. صعدنا إلى السطح والذيل الملون يتبعنا على السلم فى حفيف أجمل من كمان عم أحمد السعدونى. كان الله كريما معك فأرسل الرياح شديدة بما يكفى لأن ترتفع طائرتك. وكنت أسمع بفخر صوت الأولاد من الشارع "أشرف ابن خالتى أم محمد بيطير طيارة" حتى ماهر تجرأ وصعد إلى السطح . كل هؤلاء الأولاد الكبار والصغار حولى وأنا أمسك الخيط وحدى، وعم مصطفى بجانبى. كانت طائرتى كبيرة بما يكفى لأن أطير معها . كان يحتضننى جيدا ولما تعاندنى وتكاد تفر من يدى كلما هبت الريح، فيرخى لى الخيط بسرعة، أو يمد يده القوية ليقاومها . وإن هدأت الريح أسلمني مقودها .

حين قبلته قبل انصرافك، وجدتك تحمل لك طائرتك، كنت لا تحب فى الدنيا مثل عم مصطفى.

القطط التى لا توجد فى كتاب المدرسة

حتى الحكايات المرعبة لها دائما بدايات جميلة. وبدأت الأحداث التى عرفها شارعنا مع أول يوم ذهابى إلى المدرسة .

أيقظتنى جدتى فى الصباح، مبكرا جدا. وفى نصف غيبوبة صباحية استسلمت لها حتى ألبستنى المريلة. كان شكلى مضحكا فى المرآة لكن جدتى قالت "عريس ياولاد؟" وحملت حقيبتى التى ملأتها بالسندوتشات. ذهبنا إلى بيت أمى وكانت أبلة فاتن كعادتها تنشر غسيلها فى الشرفة. كنت أرفع رأسى نحوها وهى تقول والمشبك فى فمها "صباح الخير ياخالتى أم محمد." أبلة فاتن، غسيلها أبيض بلون الفل. تنحنى فتبدو تفاصيل عودها الطويل القوى، ويتأرجح شعرها الذى جمعته ذيل حصان، على الفتحة صدرها الطويلة. كان لرقبتها ذلك الطول والاستقامة والامتلاء التى تغرى حتى يدى الصغيرة الباردة بلمسها. تلوح لى بيدها البيضاء المشربة بحمرة وتبادلها أمى نظرة ود عميقة لأنها صديقتها ومن سنها ثم تقول بصوت لا يسمعه غيرى "ربنا يعدلها لك يا فاتن ... بارت من كتر خطابها."

فى البيت قبلتنى أمى، وأعطانى أبى قرشين أبيضين مرة واحدة. قالت أمى إننى كبرت ولن أبكى مثل الأولاد الصغار. أكد أبى على كلامها، وكأن موضوع بكائى غير وارد. أما جدتى فكان ينتظرها ما هو أهم. أخذتنى من يدى وحملت فى اليد الأخرى حقيبتى حتى وصلنا إلى أول الشارع. كان عم سالم يغالب تثاؤبه ويفتح مكتبته "مكتبة التوحيد "وسأل جدتى هل معى كراسة وقلم أم لا. دخلنا المكتبة واشترت لى أستيكة وقلم وبراية وكراستان تسعة أسطر. حين جاء الأتوبيس نزلت منه بنت ذات ملامح طيبة وضعت على صدرى زرا أحمر. قال عم سالم "صباح الخير

يـا قمـر ... لينـا نصـيب يبقـى لـك زبـاين عنـدنا " لم تتحـدث جـدتى كـثيرا . أخرجـت منديلها ومنحت دادة قمر - كان هـذا اسمهـا فعـلا ولم يعاكسـها عـم سـالم- نصـف جنيه "شرف فى عينيكى." وأنا أصعد درجـات الأتـوبيس ظـل عـم سـالم يحـدثها عـن الأهمية القصوى للست أم محمد وأصولى الممتدة فقالت لجدتى إننى سأكون دائما فـى نن عينها . وانغلق باب الأتوبيس فاستغربت عدم صعود جـدتى. مـن الزجـاج رأيـت ملامحها تتبدل، ثم تجهش بالبكاء بينمـا عـم سـالم يربـت علـى كتفهـا . مـا إن انطلـق الأتوبيس حتى سمعت صيحتها التى ظلوا يحكون عنها لسنوات طويلة "خـدوك منـى يـا شـرف." رغـم سـنواتها الكـثيرة أفلتـت مـن يـد عـم سـالم وجـرت وراء الأتـوبيس فارتعبـت أنـا ، وجلسـت محبوسـا علـى حجـر دادة قمـر . أحـس حتـى الآن بكلماتهـا تسـيل فـى أذنـى تـدثرنى مـن الخـوف وبـرودة الصـباح. بـل راحـت تـدعك لى يـدىَّ المثلجتين، خلفنا كان بكاء الأطفال، لكننى كنت أجبن من أن أنظر ناحيتهم. قال عم محمود السائق "مش خمسين قرش ؟ لازم الحب يقطع بعضه" صرخت فيـه "والنبـى أنـا أول ما شفته قلبى انفتح له خليك فى سكتك" ونظرت لى وقالـت "ده عريسـى." فـى طفولتى كنت عريسا لعشرات الجميلات. يومها لم أكن أعرف معنـى الكلمـة بالضـبط لكنها كانت تبدو كشىء جميل ومهم . أخرجت من جيبـى بـاكو الشـيكولاتة النـدلر ، منحتها نصفها وقدمت نصف النصف لعم محمـود . رفضـها وأخـذنى فـى حضـنه بيـد واحدة وسألنى "اسمك إيه؟ شرف؟" فتذكرت كـلام أبـى وقلـت " لأ أشـرف. نينـة بـس تقول لى يا شرف."

• • •

فى المدرسة، تدخل الفصل فتموت فى جلدك. كل هؤلاء الأطفال يبكـون. أنـا الأمير الصغير لم يكن مسـموحا لى بالبكـاء . احتضـنت حقيبتـى وجلسـت بجـوار ولـد وبنت ظلا يصرخان فى رأسى بلا انقطـاع. رحـت أتـابع جهـود الأبلـة فـى إسـكاتهم. على البـاب وقـف بعض الآبـاء والأمهـات دون انصـراف "خـلاص ياحمـادة ... اسـكت ياعمر ... لو مابطلتش عياط حأقطعك" ورغم أن الرجـل كـان يخاطـب الولـد الجـالس

أمامى، فلقد فزعت ومددت يدى أربت عليه مرتعشا . ومن خوفى انصعت أنا للأمر ولم أبك. بعد قليل اكتشفتنى أبلة عفاف وقالت إنها مبسوطة منى خالص لأننى لا أبكى، وبحماس كتبت من أول حصة ألفا على السبورة. أخرجت كراستى ونقلتها على الفور، فالأمير الصغير علمته أمه قبل عام من دخول الحضانة أن يكتب اسمه . هنأتنى طبعا أبلة عفاف وقبلتنى . منحتنى أول قبلة دراسية ، من بين قبلات الطفولة جميعا ، أدركت أن هذه بالذات قبلة النجاة . واعتقدت أن سنوات قد مرت على قبل أن ينتهى ذلك اليوم ، أحسست أننى لن أعود إلى بيتنا أبدا . وفى وحشتى تسللت الدموع التى أحاول أن أكتمها . كان ضعفى يزداد لكن خوفى كان أكبر، وكان حضن جدتى يبدو بعيدا وبلا عودة ، بل إننى كنت منهمكا فى تذكر ملامحها هى وأبى وأمى، وكأننى مسافر لن يعود قبل سنين وسنين. أبلة عفاف لم تكن طيبة دائما . أحيانا تصرخ صرخة رهيبة ومستغيثة "بس بقى ! كفاية عياط " فكنا نصمت رغم دموعنا ، ثم مرة واحدة نرتج معا بالبكاء. جاءت أبلة أكبر منها راحت تتنقل بيننا وقالت أخيرا إنها ستحكى لنا حدوتة. أنا راوى الحواديت قلت"أنا عارف حدوتة" احك يا أشرف.

كنت أحكى مستحضرا جدتى. هل كان خوفى هو الذى جعلنى أحكى بكل هذا التدفق؟ كنت أؤكد لنفسى أننى الأمير الذى يعرف كل الحواديت، وكان صوت جدتى فى أذنى يمليني حروفى. حروف دافئة مازالت بقبلاتها . كنت أنفصل تماما عن الفصل وأدخل مدنى وبيوتى التى أحببتها وأسلم على أهلها . هل سكت الفصل لحظتها ؟ لا أذكر لكن الجميل أن بعد توتة توتة تركونا نعود للمنزل.

على باب المدرسة، راحت الدادات يلتقطننا كالكتاكيت، وكل واحدة تقول "دول ولادى" . اكتشفت فائدة الزر الأحمر على المريلة فهو علامة الأتوبيس. كنت بالطبع أول من التقطته دادة قمر . تكدس بنا الأتوبيس، فالكثير لم يعرف حكاية الزر الأحمر أو فاته الأتوبيس فى الصباح. تعطل بنا فى طلخا ، فنزلنا أحد الغيطان مع دادة قمر . اشترت لنا قصبا . لم تكن أسنانى تعرف كيف تقشره، لكنها كانت تقطعه

لى قطعا صغيرة وتضعه فى فمى . قطع صغيرة دافئة بلعابها ، وعلى مريلتها الشبيهة بمريلتى تناثر قشر القصب، وعلمتنى ألا أبتلعه وأن أمضغه فقط . استغرقتنى اللعبة والشمس وهواء الغيط.

حين نزلت من الأتوبيس كان أبى وأمى وجدتى وحتى عم سالم خارج المكتبة بانتظارى. صرخت جدتى وهى تحملنى أن لونى مخطوف. رغم أن حرارة الأتوبيس كانت تسرى فى وجهى، أحسست أننى المسئول عن لونى المخطوف، ونسيت أن أبكى أمامها وأخاصمها كما عاهدت نفسى فى المدرسة .عدت على صدر جدتى بإحساس أننى عامل عملة. رفعت يدى ملوحا لدادة قمر وعم محمود اللذين بدأت والدتى على الفور التحقيق معهما .

• • •

استيقظت وجدتى بجوارى على السرير، وقالت إننى لو لم آكل السندوتش فسأدخل النار . جهنم مرة واحدة .جاءت لى بالغداء على السرير وظلت تضع الطعام فى فمى لقمة لقمة. احتضنتنى أخيرا وحلفتنى برحمة خالى محمد أن آكل السندوتش فى المدرسة. أما أمى فجاءت وجلست على طرف السرير واستمعت بالتفصيل لكل ماحدث ونهرتنى بالطبع على مص القصب وسألتنى لماذا لم أكتب اسمى فى أول صفحة، وحين أخبرتها بفخر أنى حكيت حدوتة لم تهتم وقالت "بكرة تقول لأبلة أنا بعرف أكتب اسمى وتكتبه قدامها" أما حين وجدت السندوتش وعليه آثار برى القلم فلقد جنت، جنت تماما . اختفيت فى حضن جدتى عندما صرخت على أبى "يا حسن ابنك ما كلش السندوتش" وتشبثت أكثر بحضن جدتى صارخا فى ملابسها "والله العظيم حآكل السندوتش."

كان على أن أستجمع هذا الكابوس وأحاول الفهم. ووصلت إلى أن مايحدث مع دادة قمر سر يجب ألا أخبر به أحدا، ثانيا أن العودة بالسندوتش معناها زعل جدتى وجنون أمى وربما علقة ساخنة من أبى، وبالتأكيد سينشغل الله والملائكة

بإعداد النار لى. ويبدو أنها نار لا ترحم تلك التى سببت كل هذا الرعب للعائلة. فى اليوم التالى بحرص وأدب رائع قبلت السندوتش ووضعته بجوار الحائط.

ذات المساء، أقاموا الزينات وعلقوا الأنوار على بيت أبلة فاتن. لم تنقطع الزغاريد، وكان الميكروفون لا يسكت إلا وقت الآذان بصراخ الشيخ عبد العزيز "انتو يا عالم يا كفرة يا بتوع الطشت قال لى، بطلوا غسيل ولا حموم لحد ما ندن" ذهبت مع جدتى إلى فرح أبلة فاتن. كانت موضة المينى جيب مازالت فى بدايتها فراحت جدتى تتعجب أمام أم صفاء من فقر زوجها عم ناجى شطيفة ومن الترزى الحرامى الذى سرق من هالة نصف القماش. وكعادة جدتى يكون حضورها قصيرا فى مناسبات الفرح احتراما لذكرى المرحوم محمد فانصرفنا بعد قليل. عند عودتنا قلت لجدتى إن العريس "شكله وحش" فضحكت ولم تنهرنى. وكنت مرتبكا بعد مشاهدتى لأول عريس. كيف يدعوننى عريسا أنا الجميل المؤدب الذى يسمع الكلام؟ لكن جدتى قالت "لأ شرف عريس زى القمر."

* * *

فى الصباح التالى، استيقظت على صراخ عنيف ولم أجد جدتى بجوارى. كانت أمى هى من حملت حقيبتى، وفى الشارع كنا نمر بناس كثيرة تحت بيت أبلة فاتن، وقد انطفأت الأنوار وبدأ العمال فى جمع الزينات بفتور. نظرت دادة قمر إلى أمى بمزيج من الرعب والاحترام، بل احتضنتنى وكأنها تختبئ فى صدرى، خلف أمى وقف عم سالم - الذى ظل حتى مجيء الأتوبيس واقفا، يلح عليها بلا تعب أن تجلس على الكرسى وكأنه يعرض عليها عرش مصر وهى ترفض - أما عم محمود فيبدو أنه رأى من حسن الأدب النزول ليكون فى استقبالى. حفظتها أمى رقم التليفون وأخبرتها أن الأتوبيس لو تأخر فيجب أن تتصل بها فورا وإن كانت فى آخر الدنيا. وحذرتها أن ترى لونى مخطوفا مرة أخرى. رغم أنها لم تمنحها نقودا فلقد ظلت دادة قمر تؤكد لى أنها تحبنى "وخلى الست ماما ما تزعلش" وظل عم محمود يشخط فيها طوال الطريق، وينظر ناحيتى بتوجس. وحين عرضت عليهما الشيكولاتة رفضا بشدة،

ونسيتها فساحت فى جيب المريلة.

عند العودة كانت جدتى فى انتظارى وأخبرتنى فى الطريق أنها كانت فى بيت أم فاتن وأن أبلة فاتن ضاعت.

* * *

قالت هالة وهى تتكوم فوق السرير إنها ستحكى لى السر، سحبت الغطاء لتغطينا معا، وقالت لى إن العفاريت خطفت أبلة فاتن تحت الأرض. احتضنت هالة بشدة وأخفيت وجهى فى بطنها "أنت خواف كده ليه؟" قامت وأنا مازلت أحتضن وسطها لتتأكد من إغلاق الباب. أخبرتنى أن العريس لما دخل حجرة النوم وجد قطا على السرير ينظر لأبلة فاتن بشدة، وأن العريس حاول أن يفزع القط فلم يتحرك. مد يده ليجذبه فعانده وتشبث بمخالبه فى مفرش السرير الساتان وقال العريس " إيه! عاجباك قوى؟ ..خدها." اللهم احفظنا... اسودت الدنيا وقفز القط على صدر أبلة فاتن وأخذها فى سابع أرض. نظرنا سويا إلى أرضية الغرفة وبكت هالة، وكأننى أنا الذى حكيت لها الحكاية، وقالت "عاجبك كده؟" وبالطبع أقسمت لها فى النهاية ألا أخبر أحدا، خاصة أنها هددتنى أنها لن تلعب معى ولن تخبرنى بشىء بعد ذلك أبدا.

* * *

جاءتنا أبلة سعاد فى زيارة غير متوقعة لأنها نادرا ما تغادر بيتها، وقالت لجدتى وهى تشاركها القهوة إنها تفكر فى ترك الشارع بعد ماحدث. استمعت جدتى صامتة، ونصحتها أن تقرأ كثيرا آية الكرسى، وألا تدخل غرفة فى البيت قبل أن تسمى وتقرأ السلام، وأن تحرق البخور كل جمعة، أما الشرفة المجاورة لشرفة العروس الضائعة فيجب أن تغلقها وألا تدخلها أبدا. تدخلت أمى وسألت هل أبلغوا البوليس أم لا، فأخبرتنا أبلة سعاد أن "أبو فاتن" حلف على أم فاتن بالطلاق ألا تفعل لأن العريس ابن أخيه. وضعت أبلة سعاد فنجان القهوة وقالت إن شقة

العروسة فى الدور الثالث وأم نبيلة فى الدور الأرضى "والنبى ما فى حد دخل ولاخرج من بيتهم" وقالت جدتى إنها دخلت فوجدت العريس "مسورق" رأسه على الأرض وقدماه فوق السرير وحالته حالة ... استأذنت أبلة سعاد فى الانصراف وقالت أمى لجدتى "تبقى طفشت ..دى زى القمر واتقدم لها أحسن منه ألف مرة لكن أبوها الله يسامحه غصب عليها." نهرتها جدتى بشدة وقالت إن فاتن بنت أصول والله لا يفضح الناس الطيبين فى بناتهم. وكنت أتابع جدتى وأعرف فى خبث أن هذه القوة الخارقة تحمينى من أمى ، تلك التى تخافها دادة قمر وعم محمود، ومن أبى الذى لو هددنى بعلقة يتراجع مذعورا أمام نظرتها. لكن صوتا ارتفع فى تلك اللحظة، قمت مع جدتى إلى النافذة كان عم عبده واقفا فى البلكونة يشخط فى الهواء بعيون زائغة "قلت لك سيبها ..سيبها يابن الجنية، حأجيبك من سابع أرض" وكانت فى اللحظة نفسها توسلات أهل الطريقة من سادتنا البرهامية ترتفع إلى شرفات البيوت

ياسقفاطيس صاحب الحمد والثنا   عظيــم سقاطيم وكافى البريـة

آحون وقاف مع أدم أدم لنـــــا   رضاك وهبنا منك فيك الدراية

* * *

صرنا نستيقظ أحيانا على صوت أم فاتن صارخا وهى تشق هدومها فى البلكونة وتقول إنها فى نار "نار ياخالتى أم محمد ... رجعها لى يا رب." نادت جدتى على أمى من الشباك فجاءت مع أبى خائفة. خرجت جدتى فى سواد الليل رغم معارضة أمى، وكانت أول واحدة تدخل بيت عم سعيد الدخاخنى بعد المصيبة. فلقد أبدت السيدات فى شارعنا رعبا حقيقيا من البيت ولم يدخله أحد بعد اليوم المشهود، وسألت أمى "هى صحيح العفاريت خطفت أبلة فاتن؟" فقالت إن هذا كلام فارغ وعيب أن أتحدث فى هذه الأمور. وبعد عودة جدتى سمعتها تقول لأمى "قلت لها ماتسيبش حتتها ..المقدر حصل والبنت مسيرها ترجع لفرشتها" وعلمت أنها نصحتها بالاستعانة بالمشايخ. وارتفع صوت عم تحسين فى ظلام الليل"يا أهل

الدخاخنى دعوا النار لأهل النار."

"العفريت حيخطفنى" أضاء أبى النور وأخذنى فى حضنه بعد أن استيقظ على صراخى، وقال " العفاريت بتخطف البنات الحلوين بس؟" وحين وقفت أمى على باب الحجرة، شحب لونه وقال: " نام بقى ماتخافش" قالت أمى وهى تنظر فى عينيه "وهى فاتن من الحلوين مش كده؟" وجاءت إلىّ تحتضننى وقالت "اقرا الفاتحة قبل ما تنام ما فيش عفريت يقرب لك" وراح أبى يحدثنى عن حكاية عفريت خائب أمسك به فى بئر السلم وكانت عيونه تتضوأ نارا. لكن لما عادت الكهرباء اتضح أن العفريت هو عمى شعبان الذى يلبس نظارة لأول مرة، فكان انعكاسها فى بئر السلم مع ضوء اللمبة نمرة خمسة تهيئ له أنه عفريت، وحين سألته "طيب وفين أبلة فاتن؟" لم يجب.

• • •

سيطرت حكاية العفاريت على شارعنا وأصبح مألوفا مجيء المشايخ بل حتى القسس مثل أبينا بطرس إلى بيت عم سعيد الدخاخنى، بعد أن قال عم برهام "ما عفريت إلا بنى آدم" واعتذر عن التصدى للموضوع لأن أهل الطريقة قلوبهم موصولة بالله والمصطفى والأقطاب ولايشغلونها بسواهم . وقال وهو ينصرف "طلبك منه انهام له." صار الشيخ عبد العزيز يقرأ هم راتبا يوميا فى الدور الأرضى ولم يجرؤ على الصعود إلى شقة أبلة فاتن. وكنت من البلكونة أشاهد هرولة السيدات الآن إلى بيت عم سعيد الدخاخنى؛ فالحاجة أم نوال الخياطة عندها بنات لم يأت هن العدل فكان المشايخ والقسس يكتبون ها الأحجبة، وأبلة نعيمة أخذت عملا لزوجها الذى يلوف على غيرها، وشبشبت يسرية لزوجها عم بهلول. أما المسكين أبو الريش فلقد بطحه الشيخ مسعود وأركبوه حمارا بالمقلوب، بعد أن ملأ رأسه بالريش فصارمثل الديك الشركسى، وظلوا يصرخون "يا أبو الريش إن شاالله تعيش" وعلق الشيخ مسعود فى رقبته حجابا حتى يعيش لأمه ،وجاءت أبلة ليلى وأخبرت جدتى أنها حصلت على حجاب من المقدس فرج لترزق بولد بعد بناتها السبعة، حتى أم

صفاء عملت حجابا هالة كنت أراه دائما تحت مخدتها .

كل صباح ويدى الباردة فى حضن يد جدتى كنت أرى أم فاتن تكنس الشارع كله وترشه ثم تقف على الباب لاهثة بعيون محمرة زائغة. كل يوم حتى فى عز البرد، تتعلق عيونها بجدتى بحثا عن كلمة أو أمل، فتقول جدتى "صبحك بالخير يا أم فاتن ..إن شا الله ربنا يطمن قلبك" كانت تظل على وقفتها بالجردل الخالى وهى تشيعنا بنظراتها وتقول بصوت منكمش "يسمع منك ربنا ياخالتى أم محمد ويبرد قلبك بزيارة حبيبك النبى."

* * *

لم تعد القطط مرحبا بها فى شارعنا، بل أصبح ماهر وبقية الأولاد لا هم هم سوى صيد تلك المخلوقات المسكينة، وكانت مهارتهم محل احترام السيدات، رغم اعتراض عم تحسين وعم سعد الرفاعى الذى يخرج الثعابين من البيوت ولا يقتلها . لم تعد القطط التى كنا قديما نلقى لها ببقايا الطعام، والتى نامت فى حجر سيدنا النبى، تثير سوى الخوف فى قلوب الشارع. واعترض الشيخ عبد العزيز لأن ماهر قد جرى القرش فى يده وصار أكبر الموردين لكبابجى ومسمط الأمانة لصاحبها عم أمين الذى سيقبض عليه بعد ذلك بسنوات لأنه كان يستخدم لحم القطط والكلاب كوجبة أساسية.

ولم تعد القطط تلقى فى شارعنا سوى الرفس والنهر. وكان حادثا صغيرا؛ كمرور قطة فى خطو متوجس، يقابل بالبسملة وتشنجات أم فاتن وعم عبده. وأخبرتنى هالة أنه فصل من العمل لأن قطة دخلت المكتب فجن جنونه وضرب المدير، بل إن مجرد ذكر سيرتهم أمامه كان يدفعه للعدو بعيدا . وهكذا صار عم عبده فأرا أمام الصغار مثل عزيزة ذات الشعر المنكوش وشفيق الأعور الذين كانوا يندفعون فى النونوة كلما مر أمامهم، وصار اسمه "عبده أبو قطة" لكن أمى قالت إنه ليس قطة بل فأر سمين يجرى عليه المشايخ آخر ما وصل إليه علم الجان وعفاريت

الجن الأحمر والعلوم السفلية. صار صراخ عم عبده أبو قطة متكررا ومألوفا، وكان أهل الشارع يبدون الشفقة ويزجرون الأولاد، لكن عندما طال الموضوع أصبح المسكين مثارا للسخرية .

أما المشايخ الذين جاءوا بكل وقار واحترام وكأنهم القطب سيدى برهام الدسوقى، فلقد خرج معظمهم مشيعين بالنعال . حتى الشيخ الدرديرى الذى كتب أكبر عدد من الأحجبة وجاء من طناح بعد وساطات ورجاءات، وكان ينقصه أن نبنى له مقاما فى شارعنا لكثرة أعماله الطيبة؛ فعم السيد هداه ربنا على يديه ولم يعد يدخن الحشيش، ويصلى الآن وراء الشيخ عبد العزيز فرضا فرضا. وفى المساء، يتمايل مع أهل الحضرة. وشفيت أبلة نجوى من عفريتها الذى كان يقفز فوقها كلما ذهبت إلى السرير مع زوجها ويمنع عم سلطان من حلاله. كذلك أقنع أبلة ليلى أن الحمل القادم سيكون ولدا بإذن الرحمن، وحين جلست تبلغ جدتى بالخبر، وضعت يدها على بطنها الممتلئ فى فخر وقالت أم وحيد - هكذا صاروا ينادونها - " آه ياخالتى أم محمد! لما قالوا لى دا ولد انشد ضهرى وانفرد ..لما قالوا لى دا غلام انشد ضهرى واستقام." أما أبلة جميلة فبعد خمسة عشر عاما من الدوخة مع الأطباء والسحرة، والتى طالما صعدت السلم بالمقلوب بلا جدوى، فلقد حملت بعد زيارة للشيخ الدرديرى. لكن هذا الحمل جاء على دماغها، فما إن أبلغت عم مصطفى بالبشارة، حتى ألقى عليها اليمين. ولم تصدق جدتى أن مصطفى ضعيف الإيمان إلى هذا الحد ولايؤمن بالمعجزات. وبعد أيام غادرت أبلة جميلة الشارع وسط بكاء سيدات البيوت وأوهم جدتى. وقالت أم صفاء لجدتى إن عم مصطفى ذهب إلى الأطباء وجرب المشايخ وزار قبر النبى، لكنه تأكد أنه ليس له فى الخلفة وترك زوجته تتسلى بلعبة المشايخ. أما مالم أفهمه فهو أن عم مصطفى طلقها بعد أن عرف أن الشيخ الدرديرى أعطاها صوفة لزجة مبللة، كان قد عزم عليها باسم الله، مؤكدا أنها إن نامت مع زوجها بعد قراءة الفاتحة عشرين مرة، وسقايته كوب شاى منقوع فيه الورقة التى كتبها بوحى من شمهورش، فهى بالتأكيد ستحبل. وقبل أن تدلى برأيها،

رشفت جدتى القهوة ونظرت طويلا إلى السماء القريبة من السطح، وقالت لأم فاتن: "اطرديه."

ساعة العصارى دافعت أم صفاء عن الشيخ لأنه رجل كبير وأعمى، وأنها كانت مع أبلة جميلة فلم يلمسها لأن عينيه ملآنة. فردت جدتى بحسم "تستاهل قطع رقبتها ..ازاى تدخل حاجة فى جتتها؟" وصرخت أم صفاء "اللهم احفظنا ياخالتى أم محمد" ونادت مفزوعة على صفاء وهالة، ومن الشباك رأيت صفاء وهالة يناولانها الأحجبة .

بات من المعروف أن الشيخ الدرديرى لم يأت إلا بالخراب، وكأن غربان السوء تحلق فوق شارعنا فبعد أن توعد عم صالح زوجته أبلة ليلى الحامل، أخذتها من قصيرها حين وضعت سارة وغادرت الشارع. واتضح أن عفريت نجوى لم يكن سوى عزت الذى ضبطه زوجها عم سلطان فى حجرة النوم وألقى عليها اليمين وكانت فضيحة. وفقد أهل البيوت إيمانهم وراحوا ينظرون بعين الشك إلى كل من جاء إلى بيت عم سعيد الدخاخنى: بدءا من المقدس فرج وحتى الشيخ الدرديرى الذى كان قد أعلن أن فاتن ستعود إلى فرشتها بعد عام بالتمام والكمال، وأكد وقتها ذلك رؤيا عم تحسين، لأن سيدى الدسوقى- وهو الذى أعاد الغلام التائه إلى حضن أمه من بطن التمساح - قد زاره فى المنام وأكد له أنها عائدة لامحالة.

• • •

قالت لى هالة فى مكر إنها مازالت تحتفظ بحجاب الشيخ الدرديرى، وأنها أعطت أمها حجابا آخر وقالت لى إنها تصدقه لأنه متزوج من ابنة ملك الجن، التى اختارته دون كل أمراء الجن وكافة البشر "ليه؟" قالت إن أميرة الجن كانت تنتظر دائما اكتمال البدر، وفى الساعة الموعودة تخرج من القمر "بص للبدر ..بص كويس ..شايف البنت اللى شعرها طويل دى ... اللى السحاب بيسرح لها شعرها" كان النور قد انقطع وقامت لتوقد شمعة راح لهبها يتراقص كعين واحدة نارية ويثير

خوفى، ففتحت الشباك من أجلى وهى تقول إن القمر الليلة بدر.

رحت أنظر إلى القمر متمعنا لكنى لم أر تلك البنت. "الشيخ كان ليه صاحب ولى ... زى سيدى الدسوقى ، والشيطان سابه لما زهق منه ... كان يمشى وفوقه هو وصاحبه سحابة ... وعرفت بنت الجان إن ربنا اصطفاه بنور فساب كل ستات الأرض. كانت تسمع عنه وتستغرب، القصد ظهرت له كأحلى بنات الأرض، خلت النجوم تقع على شباكه، قربت له القمر، همست للريح تطوقه، لكن مافيش فايدة .

كانت تسهر على القمر وتستناه ينام عشان تتسحب فى الحلم لقلبه. لكن عيون الشيخ فضلت مقفولة عن النجوم والقمر والريح." مدت يدها وكان شعاع القمر ذهبيا وكنت أرى فعلا فى قرص القمر تلك البنت الجميلة، اقتربت منها أكثر وقلت "وبعدين؟"

"الدرديرى كان يغمض عينيه بالليل ويفضل يسبح بقولة الله ..اتجننت أميرة الجن، وسكنت البحر. غضبت غضب شديد ولعت البحر نار مرة وجمدته تلج مرة. خدت العهد من السمك والرمل والصدف. الشيخ الدرديرى ايده بلسم.عارف يعنى إيه بلسم ؟ دايما كان ساكن التزب ورزقه يجيبه من ربه. فى الليل كانت عيونه المقفولة تساع السما، ولما تطلع الشمس كان ساعتها الشيخ ينام ...

وكان الولى صاحبه يزوره فيقابله بلهفة ويقول اتأخرت عليا ياسيدنا، والولى يرد عليه ماسيدى وسيدك إلا رب كريم ... أخيرا جت ها الفرصة وحصل كسوف للشمس ..لحظة واحدة بس غرقت الأرض فى الضلمة، ساعتها نسى الدرديرى كلام الولى. الولى وعده بالنور قال له اصبر يادرديرى وحيحميك النور ..فى خطوتك نور ..وفى نومتك نور"

وأشارت إلى القمر وهى تحتضننى بكل جسمها. كنت أحس طراوة حضنها وصدرها الذى يضغط على ظهرى وقلت متلهفا "هيه ... وبعدين؟" قالت " بص كويس للقمر بنت الجن أهيه ... بتقوم من نومها فى فستانها الأبيض. شعرها بطول

سواد الليل بتنزل له من السما، كل خطوة تنبت الورد الأحمر، الشيخ الدرديرى كان معذور ... الدنيا بتمطر عليه مطر معطر، يقع على الأرض تبقى كل نقطة لؤلؤ وفاروز، والبحر لملم موجه وبقى لسان ميه كبير طالع للسما ..انحنى لها الشجر، والعصافير صحيت وملت الدنيا زقزقة، والأرض اتفرشت فاكهة ورمان .

ملكة الجن ركعت تحت رجليه وميّلت على رجله تبوسها وقالت: بحبك يامولاى. الدرديرى نسى كلام الولى وقلبه اتملى غرور. ساعتها رجع له شيطانه وقال له دى آية رضى الله عنك ودى رزق ربك ساقه لك."

ومدت شفتيها تقبلنى قبلة طويلة وظل صوتها مبللا على خدى "وباسها بوسة خمرة وعسل" أبعدت وجهى وقلت "أنا مش بحب العسل ونينة قالت لى إن الخمرة زى صودا الغسيل بتدبح الزور وتحرق المصارين."

"ياعبيط إبليس قبل ماينطرد من الجنة سرق لها شوية خمرة وعسل من بتوع الجنة وفضل راقد له سنين فى الضلمة."

سكتت واستعادت أنفاسها المبهورة تركتنى وقامت فلقد عاد النور. سقطت متهاوية على السرير، نائمة على ظهرها، كان النور يعشى بصرى فأراها بصعوبة وهى تغلق عيونها. وقالت لى وشعرها مفرود على ملاءة السرير، وأنا بجانبها أقلدها وأنام مثلها على ظهرى. "الشمس طلعت ولقى الشيخ نفسه عريان فنادى عليها بعلو حسه. خدته فى حضنها وناموا عروسة وعريس. "

" وبعدين؟"... " ولاقبلين!"..." يعنى توتة توتة؟" قامت ونظرت فى وجهى غاضبة وهى تقول "يابنى دا بحق وحقيق ..هو ايه اللى توتة توتة؟ ... قالت له مأأقدرش أفضل فى الشمس، الشيخ كان بيحضنها بعد ماعرف إن الدنيا ماعادتش دنيته. دنيا تانية. الشمس، البحر، الناس، السما... كل شىء اتغير. وهنا ظهر الولى وقال يادرديرى لساك فى الخطية؟ إلحق قبل مايغيب نور الشمس. سيبها يادرديرى ... سيبها قبل مايفوت الأوان، لكن الشيخ كان على شفايفه كلمة واحدة:

باحبها..باحبها يامولاى، ويرد الولى: قلنا مولاى ومولاك رب كريم. اتبعنى يادرديرى. وخبط الولى عصايته على الأرض وكل مايبعد خطوة عن الشيخ الدم يفور فى عروقه زى اللبن والشمس تستخبى تحت جلده ونافوخه يغلى زى طاسة الزيت.

كانت أميرة الجن تصرخ عليه بوسنى يادرديرى ..ساعتها اللبن يجمد تلج، والشمس تنطفى تحت جلده، وصوت الولى يبعد ...يبعد ، وشاور له فى آخر الوادى وقال : آن أوان الفراق يادرديرى. فص ملح وداب."

"والشيخ عمل إيه؟"

"أخدها فى حضنه وقعد يبكى ويترجاها ما تسيبوش قالت له: ما أقدرشى يا درديرى أستنى فى نور الشمس أكثر من كده." ورأيت دموع هالة لحظتها وهى تقول "وحرقت الشمس عين الشيخ لكن سمع صوتها فى الضلمة بتقول له ما تخافش حآجى لك آخر الليل مع نور القمر. ومد ايده مامسكش غير الهوا مد مناخيره يشمها في الريح، لكن رحلت و سابت له حضن فاضى و غويط زى الحفرة. ومن يومها وهو أعمى." اندفعت أنا في البكاء، وسألتها وأنا أنظر إلى السماء "طيب و ربنا عماه ليه؟". "الله؟ ... ربنا بقى وهو حر ... بس لما القمر يكون بدر بتزوره وتنام في حضنه عروسة وعريس." وفكرت أن الشيخ عبيط و أن موضوع الحب موضوع صعب فعلا " لكن ربنا لو بيحبه ليه مارجعلوش عينيه؟" سكتت هالة قليلا ثم قالت وهى تمسح دموعى "ربنا سامحه ..لازم يسامحه. ربنا رب قلوب. دا كمان علمه طب الجان." وقامت لتسرح شعرها فسألتها "والولى راح فين؟" قالت وهى تفرق شعرها من المنتصف تماما "ساعات بيزوره ويسأله عامل إيه يادرديرى؟ الكريم سامحك لكن انت اللى اخترت."

وقبل أن أعود إلى جدتى سألتها "هالة هو الشيخ الدرديرى دلوقتى مبسوط؟" فقالت وهى تقبلنى "طبعا يوم فى حضن بنت ملك الجان بألف سنة ياعبيط ."

أسرارنا بكر لا يفتضها واهم

كان عم منير فانوس المسيحى، وكذلك عم مينا مازالا يروجان للمقدس فرج. وحدث وقتها أن سرت حكاية أن السيدة العذراء قد أجرت جراحة خطرة فى القلب ، وأن الأطباء جاءوا إلى الحسينية وعاينوا بأنفسهم آثار الجرح والخياطة. وهكذا شفى أنطون ذلك المسيحي السعيد الطيب الذى لم يملك أبدا مصاريف العملية. وشهد مولد الشهيد العظيم مار جرجس إقبالا غير عادي من نساء الحى ، وكانت جدتى تحملنى في زحام القداس ليباركنى أبونا بطرس ببركة الروح القدس والسيدة العذراء .

ثانى أيام المعجزة، تأخر عم منير فى فتح دكانه، وكان ببنطلونه القصير يحمل زجاجات الأسباتس و يبدى ترفعا عجيبا . ولأول مرة نهر عزيزة و الأولاد الذين يضايقون حمارته، ورفض دعوات السيدات للصعود إليهن. بل رفض حتى مشاركة البلكونات فى حديث المعجزة. لكنه كان يتحدث همسا للسيدات اللاتى نزلن يدفعهن الفضول لمعرفة تفاصيل المعجزة ودور المقدس فرج تحديدا فيها . لكن سرعان ماتقلصت هالة المقدس فرج. ولم يعد كلام الخواجة منير يجد أذنا صاغية حين ظهر عم محمد أبو كلبة.

* * *

كنت أراه فى خرابة عم سعد، يرتدى هلاهيل لاتكاد تستره ويزاحم الكلاب على أكوام الزبالة. قال الأسطى عبد الله لوالدى أثناء حلاقة شعره أن الرجل وضع فمه فى الحنفية وظل يشرب لنصف الساعة، كان خلاها عم عبد الله يتأكد مرة بعد أخرى أنها مفتوحة بل كان يبعد بوزه عنها ليرى الجميع اندفاع الماء. ظل الرقم فى

صعود مع رأس كل زبون حتى وصل إلى ثلاث ساعات. لكن مارأيته أنا ورأته جميع البيوت أنه كان يمشى تتبعه كلاب الشارع حتى ليمو كلبنا ، ويظل يرش الماء من فمه بلا توقف. وكانت المياه كافية لأن تغطى الشارع فى نفس المدة التى اعتاد أن يستغرقها الأسطى عبد الله فى الرش أمام دكانه فقط .

وغطى على اعتراضات الخواجة منير وصول أغراب ريفيين يبحثون عن أبو كلبة. كان صراخ نسائهم يجبر البيوت على تأجيل حكاية أنطون والمقدس فرج. وسأل القادمون عن الشيخ محمد وهم يحملون رجلا ميتا. فى الخرابة كتب الشيخ محمد على ورقة التقطها من الأرض عدة أدوية بالإنجليزية، وعرفنا من الأغراب أنهم يبحثون عنه منذ شهر فى المنصورة بعد أن ترك بنى سويف. افترشوا حصيرة فى الخرابة وأرسلوا فى شراء سبرتة قهوة، وكنا نرى حتى فى أواخر الليل هذه الأشباح الصامتة وهى تتابع بسكون وترقب عمل الشيخ محمد، الذى راح يملأ يده بكبشة أقراص ويضعها فى فم الميت، ثم يسقيه، بشهادة عم منير نفسه، أربعين كوبا من الشاى . فى الصباح ، استيقظنا على تكبير الأغراب وزغاريد نسائهم . كانوا يسندون ميتهم الذى دبت فيه الروح، فوقف على قدميه فى ضعف، ولكن بوجه طيب مطمئن. ولم الأغراب حصائرهم، وانصرفوا وهم يدعون للشيخ محمد .

ذات المساء ذهب إليه عم سعد وشكره شكرا عميقا. ضحكت جدتى حين زغردت زوجته. تبعتها زغرودة أم صفاء التى لم تعرف جدتى متى ذهبت هى الأخرى إليه، وهى تمسك بالحصوة اللعينة التى طالما نخرت كليتها. أما ذهاب عم سعيد الدخاخنى وعم إبراهيم أبو نازل لدعوته لدخول الغرفة الموصدة فكان أشبه، كما قال الشيخ حامد، بعودة عرش الخلافة المستحق إلى بنى العباس. وظل عم منير يرزع زجاجات الاسباتس صارخا فى وجه عم مينا القريب منه جدا أن العذراء زارته فى المنام وأخبرته أن فاتن راجعة ولكن على يد المقدس فرج.

أسبوع كامل لم نر فيه عم محمد أبو كلبة، أسبوع ظل فيه فى حجرة أبلة فاتن، وفى اليوم الموعود طلب من عم عبده أبو قطة أن يدخل عليه. كانت النشرة

اليومية لوقائع المعجزة المنتظرة تذيعها أم صفاء التى قالت إن الرجل لايخرج حتى إلى الحمام، وإنما يطرقون الباب للاستئذان وتقديم الطعام وماء الوضوء والشاى الناشف لأن سبرتة الشاى لاتفارقه. جاء صوت هالة من ورائها " ياماما ده شكله عفاريتى وعمره ماركعها ." لم تهتم أم صفاء ومال بدنها السمين بشدة خارج النافذة، وهمست لجدتى أنه طلب من عم سعيد وزوجته أن يتركا البيت هذه الليلة، وأنه الآن يسقى عم عبده الشاى بلا انقطاع. وهنا أطلت هالة وقالت "ياخالتى أم محمد ... حد والنبى يسيب الكلب مع القطة؟" ونهرتها أم صفاء بعنف، فلقد قال عم تحسين فى الرجل القول الفصل؛ فلقد جلس مع الشيخ محمد حتى طلوع الفجر، صامتين، ينظر كلاهما فى وجه الآخر، ومن فوقهما النجوم. وفى الصباح، قال عم تحسين إن أبا كلبة هو أعرف أهل الأرض، بعد سيدى برهام طبعا، أما عن هيئته فقال "كن مع الله وكن كيف شئت." وأغلقت النافذة، وسمعت صوت هالة وهى تأخذ علقة ساخنة.

فى الصباح، جاءت قوة من البوليس للقبض على النصاب.هكذا أخبرنا الضابط الوسيم الصغير، لكنهم حين فتحوا الغرفة كانت فاتن فى انتظارهم. وبحث البوليس عن الشيخ محمد الذى ذاب كفص الملح. اختفى فلم يترك أثرا . وحين ظهرت فاتن فى الشرفة بقميص النوم تحمل الشاى لزوجها الذى ظلت عيونه زائغة كما هى، ارتفعت الزغاريد ولم تنقطع.ووقف عم منير يثلث بعلامة الصليب .

كانت قد أكملت عاما بالتمام والكمال كما قال الشيخ الدرديرى - هكذا ذكرتنى هالة - وعادت فى نفس اليوم أبلة جميلة إلى بيتها تحمل ولدا هو الخالق الناطق عم مصطفى، واتضح لعم سلطان أن طلاقه لأبلة نجوى كان وسوسة شيطان وأن عزت كان فى غرفة النوم - بلبوصا - يصطاد ها فأرا؛ فالمسكينة تخاف من الفيران. ووقفت أم وحيد التى استعادت اسمها القديم أم وفاء، لتقسم أن الموكوس زوجها كان يسهيها ولا يشرب الشاى المنقوع فيه أوراق الدرديرى.

وحكى عم خليل المخبر أن مخبرا قديما فى المديرية راهنه بخمسة جنيهات على رأس البوكس أنهم سيعودون بدون أبو كلبة. مقسما بقبر المصطفى الذى زاره

أنه رآه يشرب أمام وكيل النيابة فى أسيوط كوب شاى وكوب ماء، ثم يعيدهما من فمه مرة أخرى. الماء فى كوبه والشاى ساخنا كما كان فى الكوب الآخر، بل إنهم حين قبضوا عليه لم يتحرك البوكس، فمشوا معه وخلفهم البوكس حتى مديرية أمن أسيوط .

"إذا قال لك أحد أنا صعدت إلى السماء فصدقه."هكذا تحدث سيدى الرفاعى وعم سعد. عادت جدتى وأخبرت أمى منتصرة أن البنت كانت محبوسة مع الجن السفلى تحت الأرض، وأن عم عبده غطس فى سابع أرض. وانعقدت محكمة الجان، واحتج الجنى بأن الرجل سامح فى زوجته، لكن عم عبده أقسم لقضاة الجن الأحمر أن هذا كان كلام هزار .كانت فاتن حاضرة، ترى كل مايحدث من وراء غلالة، وراحت تنادى على عم عبده فلم يسمعها ، وسألها قاضى الجن هل تبقى معهم عزيزة فى قصرها التحت أرضى، أم تعود إلى البيوت فاختارت أهلها. فى المساء، زغردت أم فاتن فى ساعة متأخرة، وأخرجت منديلا عليه بقعا حمراء، امتعضت لمرآها جدتى بشدة، وقالت إن هذه قلة أدب وتصرفات فلاحين لا تليق.

لكنها جاءت معتذرة "من فرحتى ياخالتى أم محمد" وقالت أم فاتن إنهم دخلوا البيت ورائحة الياسمين تملأ الشقة، ومشوا فى الصالة المفروشة كلها بأوراق الياسمين، وكنت أحس بالملمس الطرى القطيفى لعشرات أوراق الياسمين تنثنى بوداعة تحت باطن قدمي، وأدخل مع أم فاتن حتى الفراش... ولما دخلت عليها أمها رأت فاتن فى أجمل زينة وقد زادت امتلاء فزادها ذلك ملاحة، على خدودها حمرة ربانية، بينما هالة من الفراشات - فوق رأسها بشبر واحد - تدور بلا توقف. "جيت أشهق ياخالتى أم محمد صوتى ضاع." واقتربت تقبلها على خدها ..لكن الشباك انفتح فخافت الفراشات وطارت، وكنست الريح أوراق الياسمين. لم تدر إلا بدموعها تسح على وجه فاتن النائمة نومة هادئة تفيض بالطمأنينة والسلام. هل هى دموعها أم قبلتها التى أيقظتها ؟

فى أحلامى صَارهناك دائما ردهة تملؤها أوراق الياسمين، وكان انتحار

الياسمينات تحت أقدامى يغرينى بهذه الغرفة، حيث تحيط الفراشات أبلة فاتن بهالة أجمل من هالة العذراء.

• • •

لكن رؤيتها فى الشرفة صارت حدثا مرعبا، وبمجرد المرور أمام المنزل كان يتبعه البسملة والاستعاذة بآيات الصرف والرجم، وصارت صباح الخير لا تقال لشرفتها وإن قيلت فهى من باب الذعر واتقاء الأذى، وأغلقت كل البيوت فى وجه أم فاتن.

بينما ظلت فاتن فى الشرفة جميلة ومتحدية، تعصر غسيلها قبل أن تنشره فى الصباح، بذلك الجلد الأبيض. المشدود والمشرب بحمرة خفيفة، الأملس مثل جلد الحية، الذى تنزلق عليه قطرات الماء. وكنت أرى عيونا مجنونة تحاول احتوائها فلا تفعل سوى أن تسقط الإيشارب من على شعرها النائم. كانت عيون البيوت تنظر إليها ولا تشربها بل تعود مبعثرة .

وفى صباح شتوى شديد البرد، كانت سيدة القطط تجر زوجها، يوم العزال، مثلما تجر فأرا زائغ العينين. كانت صلبة العود، بشرتها لامعة كعهدها، وعيونها تلحس البيوت كما تلحس قطة آخر قطرات حليبها.

رأس أبي

لستم حزاني مثلي . اليوم رحل أبي.

في براءة قلت له وهو يجلب لنا تموين الشهر إنه مطلوب للتجنيد . كان هذا بعد ساعتين فقط من إعلان الحرب وقفز أبي فرحا بالعبور . لكنه بعدها تدارك وأبدي خوفه علي أخويه أحمد وشعبان.

أخبر أمي الباكية أن الموضوع مجرد غلطة، فهو في الثالثة والثلاثين وسبق له أن حارب في اليمن، وسيعود لنا بالتأكيد غدا .

في المساء ، اتصل بنا وأخبرنا أنه بخير ، وكانت المرة الأولي التي أنام في غرفته مع أمي. في الحادي عشر من رمضان تعلق قلب أمي بالتليفون الذي لم يرن، ورغم مسكنها القريب جدا ، جاءت جدتي لتقيم معنا .

قبل أن أنام سمعتها تدعو أن يعود ، مدت يدها تحت المخدة وأخرجت مصحفه الصغير وبكت ، وقالت بنفس نبرة جدتي حين تدعوني إلى قراءة الفاتحة لجدي وخالي الميتين "أقرأ لبابا الفاتحة."

قبل الإفطار ، كان أبي يقرأ القرآن. كانت قراءة القرآن شيئا لا يحدث كثيرا بين معارفنا . افتقدت تلاوته التي تختلف عن مشايخ الراديو والمأتم .أنظر إلى الفانوس الذي اشتراه لي ولا أجرؤ علي طلب النزول للشارع.

من النافذة، وحيدا ، تابعت بناء حائط قصير من الطوب الأحمر أمام بيتنا ، وكان عم إبراهيم أبو نازل يطلي زجاج شرفته باللون الأزرق، ويضع شرائط البلاستر

رأسية وأفقية مثل رقعة السلم و الثعبان، لكني دخلت بسرعة حين سمعت صوت غارة.

• • •

في اليوم الرابع اندفعت أمي إلى الشرفة وصرخت "خدوك مني يا حسن." كنت أذوب خجلا وأنا أمنعها بيدي الصغيرة أن تسقط من الشرفة إلى أن أدركتنا جدتي. قلت لنفسي إنها بالتأكيد ممثلة. فأبي كان من القناصة في اليمن وكان بطل الجمهورية في الرماية لسنوات و بالتأكيد لا يُخشى عليه في الحرب. بعد لحظة تكدست الشرفات بالعيون التي تمسحنا، وقالت إنها تتمنى عودته بدون ساق أو ذراع، المهم أن يرجع. في المساء ..في حضنها لم أغفر لها ذلك . فجأة ...تصبح مثل أى واحدة في الشارع، يعلو صوتها في الشرفة رغم أن هذا عيب!

ظل التليفون علي الكومودينو صامتا وكان صدرها يتهدج. أنا ذلك الولد السخيف المؤدب الذي لا يجرؤ علي قول الكثير، قلت بثقة "بابا حيرجع بعد ما يموت كل اليهود." وكنت أرى أبى لحظتها يقتل و يقتل. كان القتل سهلا ... وبلا دماء، مجرد طلقة مسدس، بعدها يسقط اليهودي مغمضا عينيه .لا خوف على أبى. أليس هو الشاطر حسن؟ لم أسمع من جدتي أية حدوتة باسم الشاطر حسن إلا وامتلأت يقينا أنها تحكي سيرة أبي. ساعتها اندفع صوت أهل الطريقة في توسلهم المسائى المعتاد:

"يا من بيده ملكوت كل شيء ..تحصنت بالحصن الذي أسسه الله نوره لا إله إلا الله، بابه محمد رسول الله، مفتاحه لا حول ولا قوة إلا بالله. من أراد لى سوءا خذله الله. همسا همسا، لمسا لمسا، لموسا لموسا، مأمونا مأمونا."

مازالت الصورة التى رسمها بيده لعبد الناصر معلقة فى غرفة نومه، وتحت زجاج ترابيزة السفرة صور جنازته بالأبيض والأسود التى اقتطعها من العدد التذكارى للمصور. قبلتنى أمى وأغمضت عينى مطمئنا على صوت أتباع الشيخ

برهام "أنا الأسد، سهمى نفد منه المدد، لا أبالى من أحد بفضل بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد." سيقرأون سورة الإخلاص ثلاثا ثم يقرأون من شعر الطريقة "من له فى الرجال شيخ كشيخى."

ومن له فى الرجال أب كأبى؟ هل فى كل أصحابكم من يلعب أبوه الباسكت مثل أبى؟ من مثله يطير فى الهواء،عاليا ...عاليا كأن له أجنحة ويسجل باسكت ؟ من كأبى يدير ظهره للباسكت، ويلقى الكرة فتسقط فى السلة وأصفق له أنا مع كل زملائه.

هل لكم مثل أبى ؟حين يمسك فرشاته ويرسم بألوانه كل هذه الصور الجميلة .صورته ، صورة عبد الناصر، صورة مادلين نصف العارية وهى تقرأ فى كتاب صلواتها ، وحدها فى الكهف والكتاب فوق جمجمة . ممددة فى غلالة رقيقة شفافة يطل منها صدرها العارى . وفى آخر الصورة مزيج من الألوان الحمراء والبنية، "عُرف الديك؟" ... ضحك وأفهمنى أن هذا هو مدخل الكهف، وأن تلك الألوان هى ضوء آخر النهار. لقد أعادت لنا أبلة سامية الصورة وقالت إنها تشكره على هديته، لكن الصورة العارية فى غرفة النوم هى السبب فى عدم خلفتها . طلب منه زوجها أن يدارى صدر مادلين فرفض .بقيت الصورة فى حجرة نومه تداريها ملائكة الستارة البيضاء.

حين شرع فى رسم صورة أخرى ليصالح صديقه، دعوت معظم زملاء الفصل. كانوا حوله فى الغرفة والصالة وعلى السلم ، يتابعون بانبهار أبى وهو يرسم طريقا طويلا، على أوله شخص ضئيل جدا، مازال أمامه أعمارا ليصل إلى أعلى الجبل، حيث القلعة التى تنام فى السحاب. جرى ولد فأسقط الألوان. تركت أثرا على السجادة مازال حتى الآن، يومها نهرتنى أمى على جلب أصحابى إلى بيتنا دون إذنها.

باكية ... فشلت للمرة الثانية فى إزالة آثار البقعة. ظلت على الأرض حتى

حملتها جدتى إلى غرفة النوم. عصبت لها رأسها فبان شكلها مضحكا. تلك الأميرة التى كنت أهرب بسرعة عند رؤيتها على أول الشارع وهى عائدة من عملها، فأغسل وجهى وقدمى وألتقط أنفاسى، أتحسس وجهى الأحمر داعيا الله أن يبرد فلا تعلم أننى خالفتها ونزلت الشارع للحظات. هذه البشرة المورقة والوجه الأبيض البشوش، أين ذهب؟ ولماذا حبست خصلات شعرها الطائرة؟

لم تذاكر معى حرفا. حتى يدها البيضاء، ذات العرق النحيل الأزرق التى أحبها، لم تبر أقلامى، ولم تكتب فى كراستى. نامت من جديد وقالت جدتى إنها "مسورقة."

لم تخلع بعدها الإيشارب. أكتوبر ٧٣ كان الإيشارب للعجائز فقط. بدا وجهها أحمر ومحتقنا.

هذا المساء تنازلت عن ساقه وذراعه معا فى سبيل عودته سالما ... سالما !؟؟؟

أعرف أن الله بالتأكيد - مثل كل الناس - يحب أمى فهل يسمع لها؟

نامت وتركت النور مضاء. كنت أرى من وراء الستارة ومختفيا تحت البلتكانة الوردية نصف وجه مادلين التائبة. طمأنت نفسى بأن الله يحب أبى أكثر، وأن يهوديا قصيرا نحيلا، ممن نراهم فى التليفزيون بشعر مشوش، لن يقدر بالتأكيد على قتل أبى. ابتسمت، وفى اللحظة نفسها سمعت أهل الطريقة يرددون أنا الأسد سهمى.

تأخرت فى طابور العيش "والنبى يا عم خمس أرغفة ... يا عم أنا واقف من زمان!" كانت يد سعفان تتجاهل يدى الممدودة، وتزيحها لتتلقى نقود الكبار. لكنه جاء وتشاجر معه، وحين قلّ أدبه، سحب أبى رأسه من قضبان نافذة البيع الضيقة، ولم يتركها من يده، حتى حين لف له اثنان، كانت يده الأخرى تهشم وجوههم. فى النهاية صالحوه ومنحونى خبزى. قلت لنفسى إن أمى عبيطة وطيبة وأن الله لن

يستجيب لها ... ثم إنها لا تصلى مثل أبى، وتفطر نصف رمضان،حين تهاجمها الدوخة، على نصف كوب شاى وحبة أسبرين.

فى الصباح حذرتنى جدتى أن ألتقط أى شئ من الأرض: لعبة ..مسدس ..قلم ..أستيكة ... أى شئ، لأن طائرات اليهود تلقيها والويل لمن يلتقطها. ساعتها تنفجر فى وجهه . يا ساتر ... سيتبقى منى نصفى الأسفل فقط. مرعوبا، أكدت لها أننى كبير وأفهم كل حركات اليهود . لكن الجميل فى هذه الحرب أننى لا أذهب إلى المدرسة .

فى هذه الغارة ..صرخت للمرة الثانية "خدوك منى ياحسن" بعدها بدقائق كان معظم نساء الشارع فى حجرة الصالون، وهى تقول "طيب مش عايزة غير راسه. راسه بس..تبقى جنبى ومع ولاده." ومدت يدها تحتضننى، لكننى غاضبا جريت إلى الشارع. أنا الذى أطيع أمى دائما تجاهلت صوتها . جريت على السلم وفى أذنى صوت جدتى يلاحقنى "أشرف ..ياشرف؟"

كان على أن أبكى فى مدخل بيت أبلة سعاد . ابك يا أشرف بكل حرقة الدنيا ..على تلك الأميرة التى رحلت، وحلت محلها أخرى ترتدى فستانا طويلا أسود وتلف رأسها بإيشارب. كأنها زينب بائعة اللبن تولول على زوجها ... هل تعلم بخيانتها يا شاطر حسن؟ فاجأنى عم مينا العريجى وظن أننى أبكى خوفا على أبى فقال " عيب يا أشرف.أنت راجل وأبوك راجع بالسلامة ، والمسيح الحى أنا شفته راجع هو وملاك ابنى من الحرب ..حد كان يصدق إنى أرجع من فلسطين؟" أخفيت وجهى كى لا يرى دموعى، وكنت فخورا أن أبى ليس عجوزا بل فى شباب وقوة ملاك وحمدى حبيب هالة .

* * *

"يادى المصيبة!" قبل النوم، رأيتها تصلى. فكت الإيشارب ودارت وجهها كله. كانت على السجادة ترتج بالبكاء وتدعو . كما أنها لا تأكل بالنهار. هى إذن

صائمة. يا ربنا ... هل تسمع ها ؟ أغمضت عينى وقلت فى سرى إنها تدعو أن تعود لنا رأسه فقط . كل أبى لا يصير سوى رأس لا تكاد تصل إلى ركبتى ؟... هذه الرأس ضاحكة عابسة، قارئة لآياتها . هل سأضطر أنا لحملها من غرفة إلى أخرى؟ لن تحملنى يده فوق كتفه. ساقه القوية - ذات الشعر الكثيف الذى أتحسسه ولا أصدق أننى سينبت لى يوما شعر مثله - لن تلعب الباسكت . قدمه الكبيرة التى تشوط الكرة ستختفى، ستذهب رائحة أقدامه التى تفتقدها خياشيمك حين يخلع جوربه. سيتركنى سعفان إلى آخر الصف. لن يسمع صوتى "خمس أرغفة عشان خاطر النبى ياسعفان أنا واقف من ساعتين" ومس إستر ستتركنى فى آخر الفصل بعيدا عن ممدوح ..لقد بدت بكل جبروتها ضئيلة جدا أمامه، بل إن الملعونة قبلتنى وقالت إنها تحبنى !وبعد انصرافه طلبت منى أنا ، دونا عن الفصل وعن البنت إيفا ، أن أحمل لها كراسات الواجب إلى غرفة المدرسات، حين سقط منك مصروفك ورحت تبحث عنه سمعت صوت مس جانيت "الواد ده أبوه ولا رشدى أباظة... شفتى طوله يابت؟ ولا شنبه؟" فردت مس إستر "سيبينى فى حالى يا جانيت. لما وقف جنبى والإنجيل دخت." وحين أخبرته بذلك على الغداء ضحكت جدتى وزغرت له أمى.

آه ..ستعود إلى آخر الفصل، لأنك لاتعرف الحروف المشبكة . وقت سخيف للذهاب للحرب. أنا لم يمض لى فى المدرسة الجديدة سوى عشرة أيام وتتركنى للحرب؟ فى المدرسة الإسلامية القديمة كنا نكتب الحروف الإنجليزية مفردة. كان على أن أظل لساعات مع أمى لأتعلم حرف الـ b الذى أخلط الآن بينه وبين الـ l و u إذا اجتمعا . لن تسامحك مس إستر ... ستضربك ولو جاء أبوك لينهرها ربما ركلت هذه الرأس / الكرة .ولن تخاف منه بعد ذلك.

فرغت من صلاتها ونامت بجوارى. بعد قراءة الفاتحة، وعدت ربنا أن أصلى من الغد حتى يعود سالما، ونمت على أشعار السادة البرهامية .

*****

أكيد ربنا سمع دعائها فهى تصلى قبلى بأيام وترفض هى وجدتى أن أكمل الصيام إلى المغرب. رغم بكائى ، تجعلنى أفطر... لن يسمع الله منى . لكن يارب أنا الصغير ... أدعوك أنا الذى أصلى منذ ثلاثة أيام ..أنا ذو الأعوام السبعة ..أنا الذى لم يفطر إلا رغما عنه ..إن كنت تحب الصغار حقا ...؟ فلا تعيده إلىَّ.

لا أريد هذا الرأس. يارب أنت أكبر من كل الكبار وطبعا تفهم ... ماذا أفعل برأسه؟ أقرأ مع ماما الفاتحة، ثم أدعو فى سرى "يارب خد بابا عندك فى الجنة" أعد له ساقيه وذراعيه وصدره ... لكن لا تعيده إلىَّ.

أمى تعرف كذبى دائما ، فهل تعرف أنى أكذب عليها ؟

• • •

هل قطعت رأسه حقا ؟ أخبرتنى جدتى أنه مات عطشانا قبل أن يقطعوا رأسه. هكذا ظل يطلب منى فى حلم الأمس شربة ماء.

لكنه كان الحسين.

الحسن أم الحسين!؟. ياربنا من الذى قطعوا له رأسه؟ لم أعد أذكر الحسن أم الحسين!؟ "مين يانينة اللى قطعوا راسه فى الحرب؟ الحسن ولا.." شهقت وهى تخبط صدرها "حد يقول الكلام ده؟ اسكت ياشرف الله يهديك." يارب !الحسن أم الحسين؟

• • •

يبدو أنه لن يعود قريبا...

اليوم تصالحت والولد ميخائيل. لم أضربه فى الفسحة رغم أن عليه واحدة ... إنه مثلى، تحمل جدته - تماما مثل جدتى- حقيبته. إنه مثلى يعرف ذل أن تذهب إلى الحلاق مع واحدة ست. الأسطى عبد الله رفض أن يأخذ منها نقودا. تركتها له على المقعد وبلا كلمة انصرفت. المصيبة الأكبر كانت عند الترزى، حين تذكروا فقط ليلة

العيد أن قماش الديولين لم يذهب إلى الترزى. أخذتنى جدتى إلى عم هاشم وسهرت معه حتى الفجر بين الملابس الحريى ليفصل لى بنطلون الشارلستون.

فى الصباح، جاء خالى الخائب وصحبنى إلى صلاة العيد . كنت أتشبث دائما بأبى وأصلى بجواره فى الصف مثل الكبار . لكن خالك خاف منهم، وترك يدى هم ليجذبوننى حتى الصف الأخير، مع الأطفال. كان نصفهم يضحك ولا يعرف الصلاة. وبجوارى ولد لم ينقطع عن البكاء، بكيت مثله. وعلى باب الجامع جريت إلى حضن جدتى. حملتنى على صدرها ... أنا الكبير ذا الأعوام السبعة، تحملنى تلك الخطوات القليلة إلى المنزل؟

لكنها لم تخبرنى"الحسن أم الحسين!؟" .

صرخت من جديد أن زوجها لم يمت، وأن وقف إطلاق النار قد تم، وحسن لم يكن فى الثغرة. بقدمها ركلت نعمة ربنا ، وأغلقت الباب فى وجه السائق الذى هرول وعاد ومعه حسنى بيه المدير العام. أقسم لها أن هذه ليست مساعدة وأن القرار موجود على مكتبه بتوزيع هذه الحصص فى العيد على كل عائلات المحاربين. كذلك صرف رواتبهم كاملة. قالت جدتى إن البيت مازال مفتوحا بنفس أبى وإن ابنتها ليست محتاجة فهى موظفة وصاحبة ملك .

علبة السمن، زجاجة الزيت، الدقيق، التمر ، والصابون اللوكس المختفى من السوق ...ظلت أمام الشقة حتى المساء . وبعد أن تأكدت من الموضوع من رئيس مجلس الإدارة شخصيا سمحت لنا أنا وجدتى أن ندخلها إلى الشقة .

بكت وراحت فى غيبوبتها ...

يا إلهى أنا الذى دعوت ألا يعود ... سامحنى.

سأحفظ غدا سورة الزلزلة ، لكن لك الحمد. صحيح أنه أوحشنى، لكن عربة العساكر لم تأت ولم يلقوا على باب الشقة، وفوق صفيحة السمن، برأس أبى .

أبى بكامله

اليوم قالوا إن أحد اليهود قد جاء إلى شارعنا , كنت عائدا لتوك من بيت عدلي أفندي ورأيت الأولاد يجرون فجريت معه. لكن ذلك اليهودي لم يكن سوي حسن .

كانت المرة الأولي التي تري فيها شعره ولحيته بهذا الطول. وبدا في الملابس الميري والأفرول أضخم مما تتخيل. تلقفك وأنت تجري فلم تصرخ. كانت له من أول لحظة تلك الرائحة التي تميزها خياشيمك. أما محمد أخوك الصغير فلم يعرفه واندفع في البكاء حين احتضنه. جدتك كانت ساكنة وعاجزة عن أن تقول كلمة ، والبلكونات ممتلئة بالعيون المتأثرة.

قالت لك جدتك إنه مر أولا على والدتك فى عملها وأنها احتضنته أمام زملائها ، وأردفت وهى تغالب ابتسامتها "أصلها باكسة!" كنا فى انتظار خروجه من الحمام ،وخرج بعد وقت طويل قضاه فى التخلص من التراب والحشرات الغريبة التى جلبها معه . خرج بملابسه مغسولة . غسلها بنفسه إشفاقا وربما حياء من أمك التى كما تقول جدتك تغسل يدها بالصابونة لتزيل أثر الصابونة الأولى. نزل إلى الأسطى عبده الحلاق وعاد لنا أبى الذى نعرفه. كنت تحتضنه وجسده يفوح باللافندر واللوكس . من الغريب أن وزنه قد زاد رغم أنه ذهب إلى الحرب دون أدوية المعدة . كنت تجلس أنت وأخوك وأمك تستشعرون دفء الأب. ستسأله كم قتل من اليهود ، لكنه لن يحكى سوى حكايات سخيفة عن المطر والبرد الشديد والهروب من القصف وتدخين السجائر فى الخنادق. لن يفعل شيئا فى الأيام التالية سوى أن يخبرك أمام التليفزيون أن هذا هو الأرجيه وذلك هو الرشاش بورسعيد أو البندقية الآلى، سوف

يفرّق لك بين السوخوى والميج والفانتوم وتذهب إلى النوم بخجلك. لقد صنعت له آلاف البطولات لكن القناص القديم لا يعترف بها .

كانت أول مكالمة قبل ذلك بأسبوع . سيدة تخبرنا أنها بسبب مشاكل التليفونات ، تلقت مكالمة جندى على سبيل الخطأ، ورجاها أن تتصل بنا ، لأنه لن تسنح له فرصة قريبة ، أنه بخير ويمكننا فى اليوم التالى أن نتصل برقم ... . بكت أمك واختنقت. ارتبكت السيدة التى لم تتوقع للمكالمة أن تكون بهذا الطول ولا لأسئلة أمك ألا تنتهى. فى الميعاد تحدثنا معه بصعوبة وبصوت غير واضح لدقيقة أو أكثر قليلا . لكنها كانت بعد شهرين دون حس أو خبر أول إشارة أنه حى .

نعم حى ..وعاد إلينا شأن الآخرين ممن عادوا مثل عم ملاك، لكن بلا سلاح!؟ قال إنه سلم سلاحه قبل نزوله خوفا علينا ، وفى محاولة لكسب احترامك وهو يرى الخيبة فى عينيك كلما سألته ماذا فعل فى الحرب، سيجلب لك فى الإجازات القادمة بعض الدانات النحاسية الفارغة التى ستستعملونها بفخر ولسنوات - شأن عائلات المحاربين وقتها - فازات فى الصالون، وقد نقش عليها زميل بعض آيات القرآن والله أكبر وتحيا مصر .

مغتاظا من ذلك الجندى الذى تخلى عن سلاحه، ولم يمنحك فرصة أن تحمل الآلى الثقيل مثل مراد ابن عم فاضل، طلبت منه أن يرسم لك صورة الأرنب الغضبان. قبل أن يرفض جئت له بفرخ الورق وعلبة الألوان الفلوماستر. بعد قليل كان يسترد إعجابك، تستعذب تلك اللحظة المفتقدة وكأن دهرا كان يفصلك عنها ، ويرسم أخيرا الدرس التى نقل كلماته الأستاذ ناصف ، بينما ظل مكان الصورة شاغرا فى انتظار عودته. "قال الأرنب الغضبان :كل يوم خس وجزر ؟!" وفى اليوم التالى سيصطحبك إلى مس إستر وستخير لك مكانك فتترك أخيرا البنت إيفا وتجلس بجوار ممدوح. سترتبك مس جانيت كعادتها عند رؤيته، وبعد انصرافه ستقول للفصل "بابا أشرف بطل وبيحارب اليهود فى سينا." كان عليك أن تنتفش وتؤلف آلاف الأكاذيب عن بطولات والدك ، مقتنعا أن هذا ما حدث ، لكنه لم يتكلم حتى لا

تخاف أمك، وسيجلس ممدوح واجما ليخبرك بمرارة إن والده مجرد محاسب فى بنك . أنت لن تذكر لحظات اليتم الطويلة بل ستقول "يعنى ماحاربش !؟" يهز رأسه خجلا . وستخبره بفخر أنك أيضا بطل. علمك أبوك العوم وأعطاك ساعته الأورينت لأنك ظللت دقيقة كاملة فى البحر عائما ، دون أن تغرق ودون أن يساعدك.

• • •

صادقا تخبره هذه المرة بما حدث. كنت فى عوامتك الصغيرة فى رأس البر. وحين جرفك التيار لأعمق مما تطوله قدماك. خانتك العوامة وكدت أن تغرق . لكنه على الشاطئ، كأنما قرأ ما فى عيونك البعيدة التى تقاوم الغرق ، ألقى بنفسه فى الماء ببذلته الصيفى. سبح بقوة حتى وصل إليك ، ورفعك ليعيدك إلى الهواء والحياة. بجوارك بأمتار قليلة ، كان رجل غبي يتابعك باندهاش. صفعه حسن صفعة أسقطته فى الماء وحين قال فى قلة حيلة "مابعرفش أعوم" صرخ فيه "كنت مد له ايدك" لحظتها ..بطعم الماء المالح فى فمك، ببطنك المنفوخ، وفرحا بالنجاة، أغلقت عينيك على أبيك، وهو يحملك خارجا من موت الماء وقد تجمع الناس حولكما.

فى اليوم التالى، ومن الصباح، رغم أنه لم يحب كثيرا نزول البحر قال: "النهارده يا بطل حتتعلم العوم . "لن تخبر ممدوح أن الأمر كان صعبا ، لأنك عند أقل بادرة خوف كنت تصرخ "بابا !" فيحملك على ذراعيه. فى غباء .كنت تنفخ فمك وتغلق عينيك، تكتم أنفاسك وتضرب بيديك الماء فى هستيريا . كان دون يأس يعلمك، وهو فارد لك يديه لتعوم على ذراعيه، أن تضرب الماء يمينا وشمالا فى إيقاع وبغير سرعة، أن تفرد ظهرك وتحرك ساقيك دون ثنيهما ، أن تفتح عينيك وتترك الهواء يدخل إلى رئتيك. هل تخبر ممدوح أنه بعد أن هد حيلك قال "لو قدرت تعوم من غيرى لحد ستين حأديلك الساعة بتاعتي" كانت الأورينت تلمع بالماء والشمس . فرحا وطمعا تقبل التحدى.

فى نصف شجاعة تضرب البحر ولا تصدق أنك تجرع كل هذا الماء، ولا تمتد

يده إليك إلا متأخرة جدا. وحين يأس منك ومن دموعك قال: "خلاص أنت طلعت عيل." وحين يأخذ يدك مستعدا للخروج، تجفف دموعك وتعرف أنك عيل وخواف "طيب المرة دى كمان" فيقول متمنعا " لأ . أنت جبان"... "طيب المرة دى وبس"... "حتفتح عينيك ومش حتكتم نفسك؟"... "أيوه"... "ورجلك حتفردها على الآخر؟"... "حاضر."

سيمد ذراعيه فى الماء للحظة ثم يتركك، ويبدأ فى العد ١،٢،٣ الشمس والماء المالح فى عيونك المحترقة٤، ٥ ، ٦ الماء على شفتيك ولسانك ٧،٨،٩ سوف تستسلم عيناك لدوائر الشمس وتسمع صوت الموج عميقا !١٠، ١١،١٢، يطمس كل وجهك. تبتلع شربة الملح وتمتلئ أذناك ماء ٢١،٢٢، ووشيشا عميقا للبحر والأرقام بعيدة ٢٣،٢٤، صوته مازال يساندك موجة عالية تغطيك تماما. أنت لا تراه بل لا ترى شيئا وتصرخ "الحقنى يا بابا" يضيع صوتك حين يغزوه الماء "عشان خاطرى يا بابا "يطمسك الموج وتنساك كل الأرقام . مشغولا بإنقاذ نفسك من موت الماء، تحملك اليد القديمة لصاحب الأرقام فجأة إلى أعلى "شاطر يا بطل" تنام على صدره بدموعك ومخاطك ولعابك ورغوة البحر، لكنه خرج بك من الماء وأنت تسير على قدميك ويده فى يدك. على الرمل انحنى بقامته الطويلة، ووضع فى يدك المبلولة الباردة المرتجفة ساعته الأورينت الثقيلة، التى أوصى عليها زميله العائد من السعودية، ومن يومها عاد ليرتدى الجوفيال القديمة.

فى صباح آخر ستجرب اللعبة وحدك، فى منطقة غير عميقة حتى يمكنك وقت الجد أن تلمس الأرض. وعدت بعد ذلك الصيف تعرف العوم وتضع فى يدك ساعة أورينت.

* * *

ممدوح هذا لقطة فهو لا يعرف يعنى إيه بحر؟ وكاذبا ستخبره أنك تغطس فى الماء أنت وأبيك بأجهزة الغطس وتحملان معكما عند العودة أسماكا كبيرة ملونة،

من كل نوع حتى سمك القرش. أليس مجرد قرش؟ تقول ذلك هازئا ومؤكدا أنك تضعها في البانيو . وبالتأكيد يحكى كل شئ لأبيه، لأنه سيقول لك في اليوم التالى إن القرش سمكة كبيرة جدا أكبر من البانيو . فهي تأكل الصيادين ولا يستطيعون صيدها إلا بحربة "يا دى الورطة !"

تخبره أنك لم تكذب وأنه لم يسألك فأبوك قبل الحرب كان صيادا أبا عن جد ، لا ينزل البحر إلا ومعه حربة في طول حربة عنترة بن شداد ، كما أن البانيو الذى تمتلكونه في رأس البر في حجم حمام السباحة، لأن صاحب العشة هو أيضا من هواة الصيد . ستفاجئه دوما بكذبة جديدة.

في الفسحة اقتسمنا سويا السندوتشات . اكتشفت أن العجوة بالسمن البلدى التى تعدها جدته رائعة، وهو لم يشكو من طعم البيض المسلوق الذى لا تحبه كثيرا ولم يكتشف أن حبات الفلفل في الجبنة الرومى تحرق الزور . حتى لو كان مع كل منكم سندوتشا من نفس النوع . جبن أبيض ... لانشون ... جبنة نستو . هو عبيط لا يعرف أن الخبز الصغير المدور الذى تصنعه جدته ألذ ألف مرة من عيش عم غنيم الفينو . ستبدأون في تكوين شلة ينضم إليها محمود عبداللطيف وسامح هنرى. ستلعبون سويا عسكر وحرامية. وحين يمسكك محمود ، سيراوغ ممدوح من أجلك. يختبئ من سامح، ويغافل محمود الذى أسرك، أخيرا يلمس يدك ويحررك من الأسر .

* * *

كنت بعد مليون رجاء، تصعب على جدتك فتسمح لك بالنزول إلى الشارع . ها أنت تلعب قليلا مع الأولاد ،وما إن تجرى جريتين حتى تناديك "اطلع بقى ياشرف، وشك أحمر" وأرجوها "عشان خاطرى يا نينة جون كمان."

ألا يكفى أنها لا تختار أبدا توقيتا مناسبا ؟وتجعل الولد سعيد يقول ها وأنا أنتظر مهزوما أن تنتهى الفورة لأعاود اللعب "يا خالتى أم محمد سيبيه حيختار واحد من المغلوب." إنها لا تقدر مدى الإحراج الذى تسببه لك حين تناديك فتصعد

ومعك الكرة، توقف لعبهم ويقولون عنك "بتاع ستو " ولن تفهم حسرتك وأنت تتابع بقية المباراة من الشباك . بل لن تلعب معهم بالمشمش الذى جمعته من بيتكم ،وغسلته لك جدتك بالصابون. ستجمع لك الأولاد لتلعب أمام عينها على البسطة. تفاجأ أنهم يملكون فى صفائح السمن الصغيرة تلالا من نوى المشمش، سوداء. لماذا لم يصبح كومى أبدا مثلهم؟ وكيف يأكلون كل هذا المشمش؟

حين تكسب، ستعيده هم جدتك لأنه قذر جمعوه من الشارع. وبالتأكيد ستحكى لك حدوتة عن أمير أمسك بنواة مشمشة سوداء فضاعت مملكته، وأصيب طول عمره بداء عضال، لا يوجد له دواء ولا فوق جبل الزفزاف. تجتهد فى تجفيف النوى ليصبح لديك كيس كبير. لكن مازالت أكياسهم أكبر، ففى الصيف يذهبون إلى السوق ويجمعون ألف نواة فى اليوم الواحد. أنت لا تصبر وتبادل من وراء جدتك ثمرة المشمش بنواتين. طبعا صفقة رابحة. أنت لا تحب المشمش . ففى المشمش إن شاء الله ستذهب معهم لصيد السمك وتعود بحكايات أروع من حكايات جدتك. والولد سعيد يأتى إلى البسطة ومعه سنارة وسمكتان ، مازالت إحداهما صغيرة وصاحية، فتجرى لتأتى لها ببعض الماء. إنها معجزة أن ترى سمكة حقيقة تسبح فى الماء، متى تستطيع الصيد يا أشرف ؟

طبعا فى المشمش .

وتضع على رفوف الذاكرة حلما آخر ليأكله التراب .

* * *

هاهم يتركونك لأنك غبى لا تشاهد الحاوى والأراجوز مثلهم فى لمة، بل يقفان تحت شباكك بفضل قروش أم محمد البيضاء. لا تعرف معظم ما يتكلمون عنه، وتصرخ مع كل لفظة لا تليق " كده عيب ! " وتدعو الله فى سرك ألا تسمعهم جدتك. كان شكلك مضحكا وأنت تحمل ألبوم طوابع تحت إبطك،وتعرض مبادلة الطوابع بسمكة صاحية. ربما خافوا منك أكثر مما خفت منهم فأنت تسقط من أول

الخناقـة. تكـتم دموعـك إن ضـربك أحـدهم. سـتأتى أمـه معتـذرة لسـت أم محمـد وستضرب ابنها، أمامك. سيسدد لـك الولـد هـذه النظـرة المغتاظـة. سـاعتها تزعـل وتدخل إلى حجرتك وتبكى . خسرت ولـدا جديـدا كنـت تتمنـى أن يكـون صـاحبك، وستعاقبك أمك إن عرفت وتصرخ فيك "عـايز تبقـى شـوارعى زيهـم ؟" يـارب لمـاذا تعاقبنى؟ ليتنى كنت زيهم .

• • •

تستغل فرصة أن جدتك لم تمر اليوم عليـك فتعـود مـن المدرسـة مـع ممـدوح لتعرف بيته ، وفى اليوم التالى ، يوم الأحد، تذهب دون أن تخبر أحدا لزيارة صاحبك. مع بنك السعادة يأخذكم اللعب وشـراء مـدن ورقيـة بجنيهـات صـغيرة ملونـة. نقـيم أسواقا ونتقاضى رسما للمرور. وحين نصفى أملاكنـا ونحسـب حسـاباتنا، تـدخل أمـه بالغداء لأن الساعة قد دقت الرابعة "يادى المصيبة! أربعة !؟"

وفعلا كانت مصيبة تنتظرك. لقد تغيبت عن جدتك فأرسلت نصف الشـارع للبحث عنك. جلست أمـام البيـت باكيـة علـى عريسـها الـذى ضـاع، بينمـا الجـارات يحاولن بكلمات طيبات أن يبردن نارها.

أمـك حـين عرفـت تركـت عملـها .كانـت أكثـر عمليـة فاتصـلت بمـس إلـين الناظرة، وسألت عن أسماء وعناوين كل صبيان الفصل. أخذتك جـدتك فـى حضـنها ملهوفة وجرت بك إلى أعلى تتبعها الجارات وكأنها تسـرع بـك إلى غرفـة الإنعـاش. لا تدرى لماذا قامت بتحميمك أولا ثم إطعامك ثانيـا وكأنـك عـائد مـن الحـرب أو بـلاد واق الواق. أطعمتك قسـرا رغـم أنـك غـير جـائع. ظلـت باكيـة تصـغر لـك اللقيمـات كعادتها وتضعها فى فمك. مثل كتكوت مبلـول أسـلمتك، وأنـت تظـن أن الموضـوع قد انتهى، إلى أمك وهى تعرف إنها ستضربك. جلسـت فـى حجرتهـا تبكـى وتسـمع بالتأكيد بكائك واستغاثتك "الحقينى يانينـة" ولاتنقـذك. وتقـول أمـك وهـى تضـربك "عارف لو رحت حتة من غير ماتقول حأموتك."

أخيرا تسمع صوتها وهى تقول "كفاية يا زينب ماعدش حيعمل كده تانى."

كيف تصدق أنها تخلت عنك ؟ مرة ..سقط منك عشرة صاغ. بحثت عنها وبكيت . بحث معك أكثر من مار بلا جدوى.عدت خائفا فاحتضنتك وقالت " فداك ... لو ضاعت منك فلوس تيجى لنينة فى ساعتها " تستحضر شكل الأطفال ممن يفقدون قروشهم وهم يبكون خوفا . تسألها "مش حتضربينى ؟!" فتقول ببساطة ودهشة "أضربك !؟...معقولة !؟" تخبرك أنها لو فعلت لخفت العودة إلى البيت. "احنا ياسى شرف مانضربش ولادنا."

الآن تأتى إليك. تربت عليك وتحاول احتضانك فتنكر حضنها." ياسلام ياست نينة ؟ ماانت كنت عارفة إنها حتضربنى"... "حقك عليا" ستأخذك من يدك لتشترى لك المسطرة الملونة، التى طالما تمنيتها والتى تعكس حلول جدول الضرب ،وكذلك علبة ألوان فلوماستر من عم سالم ؟ ستقول راجية عفوك " سامحتنى ياشرف ؟ "

* * *

فى الحصة الأولى فوجئت أن مس ايفيلين تعرف كل ما حدث. فاجأتك رغم البرد بدش بارد . وعاقبتك بعدها بأن أعادتك إلى درجك القديم، بعيدا عن ممدوح، جنب البنت إيفا . ماذا ستفعل بعلبة الألوان والمسطرة؟ هددتك أن تقول لماما لو تكلمت معه فى الحصة . تكتب له ورقة صغيرة بعد أن ضقت بحكايات "عمر وأمل" وتمنيت أن يموتا بالسكتة فى كتاب القراءة فلا يجرى عمر وراء أمل . "اشتريت علبة ألوان فلوماستر." ويأتيك الرد "كام لون؟" حين تهم بكتابة العدد ستمسك لحظتها مس ايفيلين بالورقة ، وهى فوق رأسك كالصقر الأحول أو كعزرائيل، وتضربك. كمان بالمسطرة الجديدة ؟ تقف فى آخر الفصل، رافعا يدك على الحائط البارد وحين يسرى بها الخدر ستقول لك وهى ترفع حاجب عينها السليمة "ارفعها" تستسلم راضخا فالصداقة لها ثمن. وستنتظر عودة أبيك فى إجازة جديدة من الجيش ليعيدك

إلى درج ممدوح، وتتبادل معه الحكايات وألوان الفلوماستر.

"لا يا عم إنتو عندكو كلب"

وكأنك نسيت أن ليمو كلب. أنت أيضا تخاف الكلاب بل إن ليمو نفسه يخافها. مرتبكا تعترف لممدوح، الذى يرفض المجئ إلى بيتك، أنه صحيح كلب. لكن كلب لولو. وتحكى له عن ليمو.

ليمو شئ آخر. أول ما خطت قدماى خارج الشقة، وجدته يقعى هادئا بفرائه الأبيض ونباحه الخفيض على سلم بيتنا. وعندما استطاعت خطواتى أن تنزل السلم. كنت مثل أطفال البيت لا أبخل عليه بلقمة أو عظمة ورك فرختى. كنا نتسابق فى ذلك أنا ودعاء ووفاء بنات أبلة سناء. بل إن دعاء كانت تقتسم معه سندوتشاتها وقطعة الجيلاتى. لحسة له ولحسة لها. رغم إنها لم تفكر مرة أن تشاركنى الجيلاتى. حين نعود إلى البيت ينبح لنا فرحا. ليمو كلبنا وحارسنا، رغم أننا نسخر منه عندما يغادر البيت إلى الشارع لخطوات قليلة يعود بعدها مطاردا من كلب ضخم، ساعتها تضع دعاء يدها فى وسطها وتقول صارخة "أنت عبيط !؟ مش عارف إن الكلاب حتجرى وراك وتعضك."

ويبدو على ليمو أنه وعى الدرس، فيهز ذيله فرحا بالنجاة ويغلق عينيه. لم يكن خوف ليمو من الكلاب فقط بل أيضا من القطط. خوفا يفوق خوف روج أبلة فاتن. فالمسكين بعد ولادته بأيام قليلة تشاجر مع قطة كبيرة سوداء دخلت بيتنا، وأعملت مخالبها فى عينه التى سال دمها وماؤها. هذا السبب بالذات لم يطرد مثل إخوته من البيت. تقول أمى إنها كانت تسمع صوته وهو يبكى مثل طفل صغير، وأن أحدا من البيت لم ينم ليلتها. عذبهم بكاؤه وعينه المفقودة التى وعيت عليها حمراء، ضائعة، فى أجفان ذابلة متناثرة.

"ليمو مايخوفش حد." هز ممدوح رأسه رافضا مرة أخرى. حاولت طوال الطريق أن أفهمه أن ليمو يخاف الأغراب، وعلى أى شخص يصعد سلمنا ألا يخاف

منه ، فهو يحرص على كتم أنفاسه. أحيانا كنا نضئ النور لنطمئن بنتا أو ضيفا من عينة ممدوح، فنجد ليمو قد أغمض عينه الوحيدة وغض بصره فى أدب. لكن سيد يدافع عنه فى حماسة ، سيد أكبر منا وطبعا يعرف أكثر منا "مرة كنت راجع بالليل رحت مدارى وشى، قام نابح ونط عليا .كان حيقطعنى بس أول ماشاف وشى ..."
وقتها كانت دعاء تصفق لليمو وتحتضنه فيهز ذيله ويحنى رأسه فى حجرها تواضعا. ولا يعرف أن مكافئته حمام محتزم، وهو الذى لا يكره فى حياته شيئا قدر الاستحمام، فى كل مرة يستحم فيها يصبح مثل فرخة مذبوحة تطفو فوق ماء ساخن استعدادا لنتف ريشها. يصرخ ويحاول جاهدا رفع رأسه وتسديد نظرة كراهية إلى دعاء. لكن اندفاع الماء من الخرطوم ،كذلك يدى ويد أختها الصغيرة وفاء، تمنعه. كنا نضحك حين تتلبك فروته البيضاء ويبدو نحيلا مبلولا مثل رضيع. ساعتها كنا نتوسل لدعاء أن تتركه "حرام عليكى يادعاء ، كفاية" لحظتها يسهيها، يراوغ يدها الوحيدة، ويهرب من الطشت. وبعيدا عنها، ينفض الماء عن جسده على البسطة، مستعدا للهروب مرة أخرى.

وكان أطفال البيت يحلمون فيما يحلمون بعروس لليمو أو حتى بجيرل فرند لنفرح يوما بذريته. كنا نقسم الكلاب المنتظرة بالعدل اثنان لكل واحد .لكن أمهاتنا كن يطردن بنات الحلال جميعا. وأخيرا اضطر ليمو للمشى البطال، فكان يختفى فى نهاية الربيع وبداية الصيف يوما أو اثنين. وكنا نعرف بعودته من صوت دعاء تصرخ فى لهفة وغضب وحزن "شوف يا روح أمك كنت فين وارجع مطرح ما كنت."

سنتوسل لها أنا ووفاء. نستسمحها وينبح ليمو راجيا. وما إن نفتح الباب، حتى يثب السلالم ويستقر على بسطة الدور الثانى، ويدير عينه الوحيدة فى بيته هانئا ، مطمئنا أنه لن يطرد.

أحباب الشيخ حسنين

اليوم هو الاثنين. موعد الحضرة الكبيرة. عاد عم تحسين بلحيته البيضاء مرتديا عباءة خضراء، وقد لف عمامة خضراء أيضا حول طربوشه. عم تحسين هو أحد خدام جامع الشيخ حسنين. وعلى باب بيته ذى الدور الواحد كتب بخط أبيض على لافتة خضراء "الطريقة البرهامية الدسوقية الشاذلية".

فى المدخل ستطالعك صورة سيدى برهام الدسوقى، وترى الأحباب يقبلونها عند دخولهم .ثم يجلسون على الحصير ، وهو كل فراش البيت ، وينهون الختمة المباركة التى تنتهى دائما بقراءة سريعة لقل هو الله أحد . بعدها ينطلق صوتهم جميلا موزونا. يخرج كل واحد كتاب الأوراد الصغير من جيبه ويفر الصفحات بيده اليمنى التى تمسك مسبحة طويلة، ذات مائة حبة، سوداء بلون المسك، من شراشيب المسبحة يتدلى العداد، حبات أصغر ومختلفة الشكل، حتى إذا انتهى من مائة تسبيحة أنزل حبة بإصبعه. يتسابقون دائما فيمن يتم سبعين ألف تسبيحة، وتسبيحهم غريب فهو فقط كلمة الله.

تبدأ الأوراد اليومية بقراءة الفاتحة كرامة فى سيدنا النبى عشر مرات وكرامة فى سيدنا على عشر مرات وكرامة فى سيدنا الحسن والحسين عشر مرات. كذلك يقرأون الفاتحة للقطب الكبير والصغير .ومع رائحة البخور يتوسلون بحزب النصر. وأخيرا بقراءة الأشعار التى لاتنتهى فخورين بأنهم :

ورثوا النبى الهاشمى المصطفى   من أشرف الأعراب من عدنان

ركبوا براق الحب فى حرم المنى   وسروا لقدس النور والبرهان

يخبرنى أبى إنها أبيات ابن عربى أما البعض الآخر فهو من شعر سيدى برهام:

"من له فى الرجال شيخ كشيخى عظيم الدرجات قد نال الكمالا "

غناؤهم يزيد الأشعار جمالا، لا أهتم بقول أبى عن الشيخ حامد أنهم بهذا يخفون وزنها المكسور . كنت فخورا مثل أهل البيوت بعم تحسين والأحباب والإنشاد ورائحة البخور الذى يسبح فى سحابات بيضاء. وتبددها الرؤوس التى تميل طربا بالذكر، والمسبحات التى تطير فى الفضاء بين أيديهم .

تلك كانت موسيقى المساء، سكوتهم هو موعد النوم . أما ألسنتهم فتنام دائما على كلمة "الله".

• • •

الشيخ حسنين حبيب جدتى. فى كل مرة تمرض فيها أمى أو تشفى، تسهر جدتى حتى الفجر لعمل الفول النابت فى الطشت الكبير، وفى غلاية الماء تطبخ الأرز باللبن، وستساعدها الجارات. فى الصباح ترسلنى بأرغفة الفول النابت فوق طبق الأرز باللبن، أمر على الجيران ولن يرفض أحد، فلقد حفظتنى جدتى "ماحدش يرفض الرز بلبن."

عند الظهيرة أذهب للموقف القريب وأنادى عم ملاك، ينتظرها تحت البيت لتوفى بنذرها .وما أن نصل وينزل عم ملاك غطاء العربة الحنطور حتى يهجم علينا كل دراويش ومحاسيب الشيخ حسنين. كثيرا ما كانت الأطباق وهى من بلاستيك رخيص تسقط على ملابسى، وعلى طرحة جدتى السوداء، بل حتى على أرضية العربة. أما إن أخرجت منديلها فسوف تعاين بعينك تحقق المعجزة. ساعتها يبصر الأعمى ويبرأ مريض الشلل الرعاش ويجرى الأعرج كالرهوان. كانت الأيدى التى يمنعها الزحام أن تطولنا تصرخ "امسكوها" لا نعرف هل يقصدون جدتى أم

قروشها . لا ينقذنا سوى عم ملاك. وتعتذر له جدتى فيبتسم تحت شاربه الكث، وحين يتأكد أنها سوت طرحتها يقول "فداك يا خالتى أم محمد" ويعود بنا إلى البيت. تخبره جدتى أن ينتظر، حتى أنزل له بأرغفة الفول النابت بالفلفل والكمون والشطة وأنصاف الليمون، هذا غير صينية أرز بلبن، لعلها السبب فى سماحة عم ملاك الذى كان يرفض النقود بشدة، يقسم وتقسم جدتى من الشباك. أخيرا ينال البريزة شاكرا "ما يقطع لكم عادة يا خالتى أم محمد."

• • •

مدد يا سيدى حسنين. أعادت بركة الشيخ أبى سالما . وهذا العام أخبرنا عم تحسين أن الخليفة الكبير سيدى برهام الدسوقى سينزل ضيفا كريما على العبد الفقير لله تحسين .قبل الليلة الكبيرة بيوم واحد ، وقف عم تحسين بنفسه يشرف على فرش الحصر فى شارعنا حتى لامس حصر المولد. وفى الميكروفون ظل إنشاد الطريقة لا ينقطع .علقوا الزينات والكلوبات فى شارعنا قبيل المساء. وبين الحين والآخر كان يمر شيخ بشعر مضفور فى أربع ضفائر ويبخر مداخل كل بيوت شارعنا. ورصت صوانى الطعام التى جاء بعضها من شارعنا .لكن الأحباب ، فى المنصورة كلها، لم يبخلوا بصوانى الفتة التى تزينها الكوارع ولحمة الراس واللحم البتلو، ومنهم من نفض عشة فراخه وذبحها كرامة للمناسبة.

فلما كانت صلاة العصر سمعنا الزغاريد ودق الدفوف وهرعنا إلى الشرفات لنشاهد زفة الشيخ برهام. كان على حصان أبيض وأحاطوه بخيمة صغيرة خضراء وكأنه، كما قال خالى محمود، الشيخ حسن البنا . فلقد سبقه موكب من الجلابيب البيضاء والأحزمة الخضراء واهتزاز الدفوف. كانت خيمته الخضراء هرما مفتوحا من جانب واحد من الأمام . وكان الأحباب يتسابقون لتقبيل يده رغم أن أتباعه الخلصاء كانوا يبعدونهم قدر استطاعتهم دون عنف. الأحباب من كافة الطبقات. فلقد جاء الكثيرون من الريف بحريهم وعياهم، بل حتى جاء البعض من الصعيد الجوانى ، أما البعض الآخر فكانوا أفندية وبهوات. حفيد الجمل نفسه ، وكان وقتها سكرتيرا

عاما للمحافظة، كان من بينهم . ونزل الخليفة عن حصانه فراحوا يرشون الملح باستمرار وبكثرة حول خيمته ، وجلس سيدى برهام فى مقدمة الصوان فتوقعنا أن يلقى ذلك الرجل الأسمر خطبة، لكنه لم يفعل سوى هز رأسه مع أشعار الطريقة، فحديث سيدى برهام ليس كثيرا ولا مباحا ، ولعله لم يكن لديه الوقت، فلقد استمر الأحباب يهلون عليه واحدا واحدا للسلام. كان سلام أهل الطريقة غريبا فهو سلام وقبلة على اليد . تنحنى وتقبل ظهر يد أخيك فى الطريقة ، فى نفس اللحظة التى يقبل فيها هو الآخر يدك ، كما تقول جدتى "وماحدش أحسن من حد." كان عم تحسين يمر بينهم ليخدمهم واكتشفنا أنه يعرفهم بالاسم فردا فردا . وكانت مناسبة أيضا لفض خصام الأحباب ، وكان الشيخ فى هذه الليلة ينهى أيضا خصاما شخصيا مع بعض الأحباب. فالشيخ إن غضب على أحد وقال "فليعتزلنا فلان شهرا ولعلنا نصفح عنه" إلا وضاقت عليه الأرض. ضمير الجمع هذا ليس تعظيما ، فغضب الأحباب من غضب الشيخ من غضب الله. وليس الصوفى من يقول "هذا نعلى" وإنما يقول "نعلنا" لكن فى مناسبات معلومة - مثل ليلتنا - يمنح الشيخ بركته للجميع. ويفك عزلة المغضوب عليه. وكنت أراهم وقد استبد بهم الفرح يقبلون أقدامه ، ويعودون الآن للسلام على بقية الأحباب دون موجدة . وحين قال الشيخ "إغمسنى يا الله يا الله فى بحر أنوارك واملأ قلبى من أسرارك ومكنى فيك ومنك وأسألك الوصول بالسر أيتنوخ ياموخ باى وامن أى وامن مهباش." فغرنا أفواهنا لكن الشيخ تحسين سيعلمنا بعدها أنها حروف ربانية. لا يعلم سرها إلا أهل الوصول فهى أسماء للفتح على القلب من الغيب .

قال الخليفة الشيخ برهام : "اخشعوا يا أحباب فلقد قيل للرسول المصطفى الحبيب نرى مؤمنا يخشع ومؤمنا لا يخشع، فما السبب فى ذلك؟ قال الحبيب : من وجد لإيمانه حلاوة خشع ومن لم يجدها لم يخشع. وسألوا بم توجد؟ بم تنال وتكتسب؟ قال الحبيب: بصدق الحب فى الله.وسألوا بم يوجد حب الله فقال الحبيب: بحب رسوله . فالتمسوا رضاء الله ورضاء رسوله فى حبهم . اللهم صلى على سيدنا الحبيب

المصطفى من قال أسمع صلاة أهل محبتى وأعرفهم .واندفعت الصلوات على الحبيب النبى محمد من البيوت . فأشار الشيخ ، لا للأحباب فقط . بل لكل البيوت وقال . علامة المحبين إيثار محبنى على كل محبوب واشتغال الباطن بذكرى بعد ذكر الله . فعلامة المحبين إدمان الذكر. واذكروا فلقد قيل للجنيد وهو على فراش الموت يحتضر قل لا إله إلا اله فقال : ما نسيته فأذكره.

وارتفع صوت أهل الطريقة معا بأبيات من حزب النصر

عدت العادون وجاروا ورجونا الله مجيرا

وكفـــى بالله وليـــا وكفى بالله نصيرا

وبدأ الذكر بعد صلاة العشاء. فلقد صاح عم تحسين لا إله إلا الله. وبدأ السماع

إلهى توسلنــا بجـــاه محمــد نبيــك وهو السيد المتواضع

أنلنا مع الأحباب رؤيتك التى إليها قلوب الأصفياء تسارع

كان يعلو دق الدفوف والتصفيق لضبط الإيقاع. وانشدوا جميعا "اللهم صلى على سيدنا محمد فى الأولين وفى الآخرين،وفى كل وقت وحين، وفى الملأ الأعلى إلى يوم الدين. ورضى الله عن سادتنا أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وعن جميع أصفياء الله الآخرين. حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اللهم ياربنا يا واسع المغفرة يا أرحم الراحمين، اللهم آمين." وصمت الأحباب بعدها ليقرأوا الفاتحة وكانوا جلوسا حين أنشدوا مرة أخرى ببطء " لا إله إلا الله " باغناءة فى الرأس والجسد . وقلوب البيوت تخفق معهم وقام المنشدون بالغناء من شعر سيدى الدسوقى :

ولقد جعلتك فى الفؤاد مؤانسى وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للحبيب مجالسى وحبيب قلبى فى الفؤاد جليسى

وكانت صيحة مددددددد طويلة، موزونة ومشددة. حتى نهض الذاكرون أخيرا واقفين، وبصوت عميق أجش قالوا " لا إله إلا الله " مشددين على اللام وعلى الله، وكأنها تخرج من أعماق أعماقهم، وأداروا رؤوسهم يمينا وشمالا، رويدا رويدا... ازداد إيقاع الصوت وسرعته، وحمى الذكر فدارت الرؤوس بعنف. ومعها كان ينحنى جذعهم بينما كانت الأقدام الحافية مغروسة فى الحصر، وتعانقت أطراف ملابسهم فى حفيف مكتوم. ولأن قلوبهم محروقة بجمر المحبة حصل هم من الوجد ما حصل. وصرخوا باستغاثاتهم "أغثنا يارسول الله" فمن لا يسرى به جرح لا يصيح ولا يصرخ. ومرت الإشارة ببيرق طريقتنا الأخضر، المكتوب عليه بالنحاس أسماء الرسول والخلفاء الراشدين وسيدى الدسوقى وسيدى برهام. فاندفعت الزغاريد من كل الشرفات، وصاحت الرجال صلى ع النبــــــى. لحظتها وكأنما أصابهم مس صارت صفوف الذاكرين البيضاء تفور كما يفور اللبن. ولما تساقط أكثرهم من التعب رفعوا المجلس للاستراحة. تناول الأحباب الشاى والقهوة ودخنوا المعسل. بينما وسدوا عيونهم على صدر الخليفة سيدى برهام لتكتحل بالشيخ. فكما قال عم تحسين "من لا شيخ له شيخه الشيطان."

• • •

اليوم الليلة الكبيرة، تخرج كل المنصورة لمشاهدة المولد، وكان يقترب فيما سبق من بيتنا، لكن زيارة سيدي برهام جعلته هذا العام موصولا ببيتنا فلم ننزل. أنت في الموالد السابقة تتعلق في جلباب جدتك وهي تعرف كيف تمنع عنك الزحام أو تحملك حملا. تتلألأ القبة و المئذنة بالأنوار الخضراء، وتترك جدتك نفسها هذا الزحام. الطوفان يدفعها، عيونك أنت تتعلق بالمراجيح وضرب النيشان، وتقرأ بصعوبة الحروف المكتوبة علي كل خيمة تعلن اسم طريقتها.

كل شيء يباع في المولد. كل الألوان و الأشكال. كل ما يؤكل وما يشرب وما

يلعق وما يستحلب وما يمضغ. الزحام لا ينفض عن بائع واحد. في المولد ترى أبلة روزو هي وروجها يبيعان الطراطير الورقية الملونة والطبلات الصغيرة الحمراء. وكذلك الرتالات الصميح. سترجو جدتك كل عام أن تشرب ذلك العصير البرتقالي ذو الشفاطة العجيبة التي تشبه أنابيب معمل العلوم. تجدها دوما مغرية لكن جدتك تقول "مش حاخلص من أمك." تكتفي بطرطورك وطبلتك وتعود إلى البيت.

* * *

من الشرفة سوف تسهر معها لتسمع الأغاني التي تهتز لها طربا شرفات البيوت، بل قد يرقص معها البعض مثل الدراويش. وما أن نسمع صوت الريس سماعين حتى ترتج البيوت من زهو ما تسمع. الريس سماعين ذو صوت قوى، وهو تلميذ الصييت القديم أبو سرارى، لكنه لا يغنى إلا من خلال حكاية. حكايات الريس سماعين نذكرها من العام للعام. يحكى حتى آذان الفجر. المرأة عنده إن تزوجت، حرمت ابنها من المرحوم زوجها المصروف ولبس العيد والطعام والعلاج وتركته للشارع. والرجل إن تزوج فلن يتزوج غير غازية تسوم ابنه سوء العذاب. ومع الريس سماعين يذهب الولد دائما شاكيا باكيا على قبر أبيه أو أمه. تمر الأيام بسرعة، ويعاقب الله المرأة بأن يصبح ابنها أحسن حكيم، وهو الوحيد الذى يعرف الداء ويملك الدواء لكنه يرفض علاج أمه، متذرعا بنفس حجتها القديمة " لكن أبويا والله ما ترك لى مال ... أحسن دوا عندى وأحسن علاج لكن أبويا والله ما ترك لى مال" ومع اقتراب الفجر تقضى المرأة بقية عمرها كسيحة ومشلولة مصابة بداء السكر والجذام والنقرس وربما حتى الجرب.

مع الريس سماعين ستدرك كم هى جميلة تلك اللغة التى يتحدثها حتى وهى غير مفهومة، كلماتها ذات سجع جميل مثل الجمل والجمال، ويلعب بالكلمات فحين يقول "والبنت قاسطة لى" تشرح لك جدتك :أن قاسطة تعنى الجمال والعدل وملأ قسط اللبن لبل ريق الجدع. ستخبرك بمعنى البخور الجاوى والحرير الهندى. لكن الريس سماعين يقف فيما لا يجوز الوقف عنده على رأى مولانا ، فالقصة ساخنة

وأنت تغالب النوم. وتنتظر متلهفا بقية الحكاية "على الطلاق بالتلاتة مانى مكمل إلا لو سمعتنى الصلاة على الحبيب عليه الصلاة والسلام" وكأنه يرانا ولم يسمعنا. يشخط فينا آمرا "صلى على الحبيب" عليه الصلاة والسلام "قلبك يطيب" ويكمل "فتح الباب..." ويسكت الريس فى انتظار مؤازرة الربابة تصف فتح الباب. لكن جدتك لن تشرح لك معنى هذه الأبيات

عزيزة تقول ليونــــس   قوم يايونس قلب الرمان

شوف استوى يا يونس   ولالسه أخضر على العيدان

سيأخذك النوم ولن تعرف هل استوى الرمان أم لا. ستطلب، أول شئ فى الصباح، أن تكملها لك جدتك .

وفى العام القادم ستكتشف أن جدتك قد نست جزءا، تلومها على ذلك فترد أن الريس سماعين يزيد وينقص من حكايته على مزاجه. تندهش. كان للحواديت وجود حقيقي أكثر من كل الحقائق التى حولك فكيف تتغير؟

فى الصباح، وفى طريق ذهابنا إلى السوق ستجدهم يحملون بقايا الشيشة والوابور والحلل الوسخة وحصرهم وأطفالهم ويغادرون . فقد انفض المولد ويردد فلاح وهو يلقى السلام على القبة الخضراء "بعودة الأيام ياعم حسين ... ومدد يا شيخ حسنين".

للسماء سلم خشبى

للأرض الخشبية هدهدة جميلة لأقدامك حين تصعد السلم الخشبى. تفتح أم صفاء الباب وتقول لك بلا مبالاة رائعة "أدخل يا أشرف" تنصرف عنك إلى تنقية الأرز. لن تقف مترددا بل ستدخل مباشرة إلى غرفة هالة. لكنك تطرق على الباب أولا كما علمتك أمك. هالة فى غرفتها، خلفها الستارة المرسوم عليها الملائكة. هالة بقامتها الطويلة الناحلة وشعرها الطويل تبتسم لك وتجلسك على حافة السرير. ستسند ذراعك على شباك المنور. تظل برأسك على الكتاكيت الصغيرة. ستلقمها مثلها الدقيق المعجون بقليل من الماء وصفار بيضتين. هل تفشل فى اكتشاف كتكوتك الذى أسميته باسمك. سوف تحتضنك، وسوف تظل لسنوات تذكر حضنها ورائحة شعرها الأملس الأسود الطويل. لعبة حلوة أن ترفع أنت عن جبهتها "القصة" فتقول لك "يا بايخ أنا لافة شعرى طول الليل."

أنت تريد دخول مدرسة التجارة مثل هالة. رغم كلام أمك أنك لو فعلت فلن تكون طبيبا مثل الدكتور جمال. هالة تشكو من الفرنساوى. ستحتار معها فى هذه الحروف "دى g " فتقول "أبدا دى j" تصرخ وتقول لها أنك أشطر ولد فى الفصل وتعرف الفرق جيدا بين الحروف المفردة والمشبكة " انت بتقرا انجليزى ياأشرف" ستزداد حيرتك حين تلثغ بالراء تخبرها أن هذه لغة سخيفة لا تحبها. ستقبلك وتقول "وأنا كمان. بس جى تيم"... "يعنى إيه ؟" "يعنى بحبك انت."

أخيرا عادت من عند بنات عمها فى الإسكندرية. أسبوع كامل لم تلعب فيه مع أحد. هذه المرة خاصمتها ونحن نلعب الكوتشينة. ألقت بالسبعة ولمت الأوراق كأنها ولد " مش لاعب انت بتغشى"... "لأ فى اسكندرية بيلعبوها كده" ..بعد

عودتها فوجئت بأظافرها طويلة حمراء. ارتعبت حين خلعت هذه الأظافر الصناعية فضحكت. عادت أيضا ترتدى فستانا قصيرا. حين قبلتك لم يعد لقبلتها على خدك طعم النعناع . كانت ثقيلة ودهنية، لزجة وميتة. سوف تمسحها كى لا يضحك عليك الأولاد، ستقول لك بصوت غريب لم تتعوده "اخص عليك بتمسح بوستى؟" . تندهش "انت بتتكلمى كده ليه؟" فتهز كتفيها فى حركة لا تعرف تفسيرها.

• • •

"ياهالة خدى أشرف معاكى" دائما إن خرجت ترسلنى أم صفاء معها. أنت تحب الخروج مع هالة. ستأخذ يدك وتحيطها بخصرها الذى تطوله بالكاد. وتتخبط فى ساقها العاربة فى الفستان الأصفر المينى جيب. هذه الساق كانت مغروسة كوتد فى أرض طفولتك. تحمل خيمة هى كل العالم. الآن يقفز وجهها الأسمر المستدير وعيونها العسلية على رمال ذاكرتك. لم تكن تمنع عنها المعاكسات، كانت تنهاك عن النظر للخلف أو أن تشير بإصبعك لشىء أو لأحد. هذه المرة قلت لها إن حمدى يمشى وراءنا، أكدت لك أنك مخطئ.

فى مدرسة التجارة ستكون بين ساقيها. وهى تنظر فى النتيجة المعلقة على الحائط . لقد نجحت وصارت فى ثانية تجارة. ستقبلك فرحة "وشك حلو يا شرف"... "ألف مبروك. أنا عرفت النتيجة من الفجر." ستلتفت ناحية الصوت وتراه. حمدى!. ستدير هالة رأسها يمينا وشمالا. حمدى يضع يده على رأسك فتفرح لأنه أخيرا صار صاحبك. "ميرسى" ونكاد تمشى فيوقفنى من يدى وتضطر هى للتوقف "بسرعة كده؟ أنا عايز أكلمك" تشدك بسرعة من يدك " ياللا ياأشرف اتأخرنا على ماما ومش حأخلص النهارده." "بس أنا راجع الجبهة النهارده." تنصرف، وتخبرك فى الطريق ألا تخبر أمها بما حدث .

طوال الطريق ستتشبث يدها بيدك. وتدفعها أكثر فى خصرها . باليد الأخرى ستمسح على رأسك. حين تدخل سريعا غرفتها سترفعك على السرير،

تصبح فى محاذاتها . تفرح "أنا بقيت طولك" تضع يديها على خدك، وتقبلك وهى تقول "أنا بموت فيك." هذه المرة لن تمسح قبلتها . رغم سنواتك الصغيرة يخبرك شئ خفى أن هذه القبلة الخصوصية يجب أن تظل سرا . تعرف أنك ستمشى معها المشاوير، وأنك لن تخبر مخلوقا أنها قابلت حمدى، وأن القبلة ليست ثمنا . إنها عالم خاص لك ولها . أجمل من أن تحكيه. ثم إن كلام جدتك كان بلا معنى ... مامعنى أنها بنت ؟ تكتشف الآن أن هالة لم يكن لها "صدر" ربما هذا السبب بالذات أحببتها .

• • •

صفاء فعلا أجمل، كيف لعم ناجى الأصلع وأم صفاء البدينة ذات الشعر المنكوش والرائحة النفاذة والبشرة البيضاء غير المريحة، أن يكون لهما مثل صفاء وهالة ؟ صفاء تقبلك أحيانا لكنك تخاف منها . ماالشيء الذى يخيفك فى هذا الجمال؟ ست الحسن لو كانت بكل هذه الحلاوة ألا تخيف الشاطر حسن؟ لماذا يجف ريقك ويحمر وجهك فى كل مرة تقبلك؟ أنت لاتنكسف من هالة، فلماذا ترتعش يدك حين تغوص فى هذه اليد الطرية أو تلامس استدارات جسدها الغريبة؟ تروح روحك وتسقط فى البئر . ستجذبك تقول وهى تقبلك عنوة، وتجلسك على ساقها " قول لى ياشرف أنا مش عاجباك فى إيه؟ " ستنزلق إلى حجرة هالة التى تسألك "انت بتخاف ليه من صفاء؟" تجلس مبهورا على السرير . مثل كتكوت أفلت أخيرا من مخالب عرسة كانت ستمص الدم من قلبك. "أنا كبرت ومابحبش حد يبوسنى." ستجلجل ضحكة هالة وتقبلك "اسمعنى أنا بابوسك؟" وتنادى على صفاء التى تدخل وتقول "آه منك انت ...اشبع بالعصاية بتاعتك." ستضع هالة يدها فى وسطها وتخبرها أنها أجمل منها وكلها سنة واحدة وتسمن وتصبح ملفوفة أكثر منها . أنت لن تفهم، لكنك تفهمها بتأكيد أنك تحبها أكثر من صفاء . وأنك لاتريدها بدينة مثل... تنكسف أن تقول مثل أم صفاء وتقول مثل صفاء .

أنت لاتخاف منها . بل أنت تخاف منها . تقول جدتى إن صفاء هى أجمل بنت فى الدنيا وان عروستك ستكون مثلها . لماذا حين تنظر فى عينيها يدق قلبك؟

وكأنك تكذب على أمك. لماذا حين تلمسك تشعر بدغدغة غريبة فى جسدك ويملأك الخوف كأنك تقابل الساحرة؟ أرجوك ياهالة كونى دائما كما أنت حتى ولو كانت صفاء أجمل. لاتدعى خراط الصبايا يخيفنى منك.

• • •

خراط الصبايا... هل زارها أمس؟ متى؟ بالتأكيد بعد نزولك. لقد دارت صدرها اليوم ولمحت تحته لأول مرة ذلك اللون الغامق، وحين تعثرت خرزتها الزرقاء فى ملابسها، سطع اللون الأحمر السرى والممنوع لأمك وصفاء وأبلة فاتن. صارت منذ اليوم تتعب كثيرا ولاتتحرك من الفراش. ماهذا التعب الغريب؟ إن الطبيب لم يزرها وهى لا تشكو من شئ يوجعها ولا تتقيأ. لاتشرب الليمون وليس على الكوميدينو أى أدوية. دلع بنات.

اليوم ستصعد إلى سريرها. وستحكى لك حدوتة. معك حكاية الأميرة التى ترفض كل العرسان من الأمراء لأن ساحرا شريرا يجعلها تذهب إليه كل ليلة فى الغابة. يحولها إلى بجعة كبيرة بيضاء. ويغلق قلبها بألف مفتاح عن كل العرسان. حتى عن قلب الأمير الذى يحبها ... لكن هل ينفك السحر؟ مازال صوتها يهدهدك. حين يقفز الساحر سيقفز قلبك، وتتدثر بكل روحك فى جسدها. لكن هذه اللدونة التى بدأت تحسها يوما بعد يوم، وهذه التموجات التى تزعجك والإستدارات التى تدور فى فلكها تائها، لماذا صارت تضغط أكثر فأكثر على جسدك الصغير؟ تحتضنك هذا الحضن الغريب. حضن ليس كحضن أحد حتى صفاء. تفزع وتشيح الغطاء المشترك الذى يدثركما وتريد الهروب. "نلعب السلم والتعبان؟" فتقول هى إنها مصدعة.

• • •

هذه القصة بالذات تخفيها فى كتاب المدرسة ولن تقرأها لك. ستجد خطوطا حمراء تحت كلمات تصعب عليك قراءتها، ستسبق عينيك وتقلب الصفحة. من

صـفحة أخـرى تسـقط صـورة حمـدى، ووردة حمـراء اقتطعتهـا مـن مفـرش السـفر، البلاستيك. تخفيها بسرعة وحين تنظر إليهـا فـى لـوم، سـتقول " اوعـى تقـول لحـد يا أشرف ده سر عشان خاطرى." ستمنحك قبلة لكنك ترفضها وتخبرهـا وأنـت تـدير وجهـك أنـك لـن تخـبر أحـدا . سـتحمل كتـاب الحواديـت ذا الصـور ، وتنـزل مـن علـى السرير. ستنام كل الصور الملونة. هذه الكلمات الكبيرة لن تجـد مـن يقرأهـا . فلـتترك لها حروفها الصغيرة والكتاب الخـالى مـن أى صـورة. ستحتضـن يـدك غـلاف الكتـاب اللامع البارد وتنصرف " أشرف ؟ "تنظر لها من على الباب وتنزل " احلف " تنـزل السلم معاندا القلب وعكس اتجاه مـدن سـت الحسـن ..لكنهـا لـن تجـرى وراءك ولـن تصالحك .

• • •

لم تعد تذهب إلى المدرسة. لم تعـد أم صـفاء تنـادى عليـك ولـن تـذهب معهـا المشاوير. قالت جدتى إنها ستتزوج من حمودة ابن ولاد المحنكرة. صفاء أكبر فلمـاذا لاتتزوج صفاء أولا؟ تخبرك جدتك أن صـفاء تـدرس فـى الجامعـة فـى مصـر ، أمـا هالـة فهى "يادوب فى التجارة"... "اشمعنى هالة؟" تضحك جـدتك فـى خبـث "أبوهـا وهـو حر."

• • •

ارتفع الصويت من بيت أم حمدى مات حمدى. استشـهد فـى السـويس. كنـت فى الشباك وجدتك تمسك ببيجامتك بكلتا يديها ، تتشهد باكية. كان ضـوء النهـار يغمق وينسحب. أشعر الآن بجز إطار النافذة فى بطنى. خرجت النساء إلى الشـرفات وتجاورن مثل عصـافير بدينـة سـوداء ، فـى الشـارع الضيـق كانـت تمـر بصـعوبة عربـة الإسعاف مثل الزنبرك المضغوط فى مواجهتى تماما حجرة أم صـفاء . نفـس الملائكـة المتربة على قماش الستارة. تنفرج فجأة عن صـفاء باكيـة. ولم يكـن هالـة سـوى ذلـك الشحوب الهائل، ومن الفستان الأسود كانت تسطع صفاء ببشـرتها البيضـاء باكيـة.

هل كان قلبى مازال على خصومته مع هالة ؟

البنات لايحببن أحدا، فهذه صفاء تصرخ بكل قوتها. صفاء التى لم يتبعها حمدى ولا مرة واحدة - ولم يهدها صورته . "نينة ... هي صفاء كانت حتتجور حمدى؟" تنهرنى أم محمد وتهددنى بقطع لسانى - مخنوقا من يدها وتهديدها ، يتداخل فى عينى البياض والسواد . أحس أنين النوافذ الخشبية وأفكر هل تسقط الشرفات الخشبية بهذه العصفورات البدينة. عربة الإسعاف ... سفينة بيضاء توشك على الغرق. تتلاطمها أمواج الناس. انفتح باب السيارة الخلفى. وأصبحت الغلالة التى تفصل بينك وبين العالم ليل أسود مباغت. تظهر النقالة البيضاء وقد حزموها بالأربطة فيندفع الصراخ أكثر .غصت فى بيجامتى، أصابع جدتى متشنجة، وبطنها يضغط على ظهرى فينغرس حد مزلاج النافذة فى سرتى أكثر. أغرق وأبحث عن عيون هالة، كانت غائرة وبعيدة، وكأنها طارت فى السماء واستقرت مثل نجمتين.

أغلقت صفاء الستارة وأضاءوا النور، كنت أرى صورتها مهتزة بين دموعى وهى تحتضن هالة، وأخيرا بيدها البيضاء. البيضاء بذلك البياض المستحيل الذى يشع نورا على فستانها الأسود. كانت صفاء تحكم إغلاق الشباك . الصراخ سقط فى البئر. لحظتها أمكننى أن أسمع صوت جدتى "الله يرحمك ياحمدى."

• • •

"أنت فين ياأشرف من زمان، مش تسأل على صاحبتك؟" قبلتنى أم صفاء هذه المرة. قبلة كانت كفيلة بأن تشعرنى بالغربة لأول مرة فى بيتهم. لم أذهب إلى غرفة هالة. وبقيت فى الصالة "ياهالة! الجو بتاعك جاى يزورك" لم يفتح الباب. أخذتنى أمها من يدى ولم أعاكسها إلا قليلا . ورجتنى بصوت خافت متواطئ أن أدخل عليها، وبيدى الخالية من أى لعبة أو كتاب حواديت أدرت مقبض الباب. الأشياء مكانها لم يتغير، كما حفظتها ومازلت تحفظها، الكليم الصوفى الأصفر، نفس الطلاء الجيرى الوردى للحجرة، على الحيطان العالية عنكبوت لم تطله يد أم

صـفاء ولا حتـى هالـة. الشـباك مغلـق وتحرسـه سـتارة ذات ملائكـة أطفـال بأجنحـة صغيرة. بطونها مستديرة مثل وجوهها، مستديرة تلك الاستدارة الجميلة التى تحس طراوتها وكأن عيونك تلمسها.

السرير، كأنما ينوء بثقـل هالـة ... هـذه الصـغيرة الشـاحبة الممـددة والناحلـة لأكثر بكثير مما يمكن توقعه. شعرها جمعته كله للخلف .لاحاجة لأصابعك لترفعه كى ترى جبهتها الصغيرة. وحاجباها اللذان كادا يتلاشيان.

النجمتان ... اختفتا فى ثقب محجريها ويبعثان ضوءا صغيرا وانيا مستحيا. ستصعد ها على السرير الذى علـى وشـك أن تتفكـك مفاصـله. ولأول مـرة ، دون أن تطلب هى منك تقبلها. ستجلس بجانبها. وتتابع فى وجهها دمعة نحيلة أضعف مـن أن تسـقط. سـاعتها تـوقن أنهـا أبـدا لم تخنـك ولم تستسـلم للسـاحر الأسـود خـراط الصبايا.

الآن لا تجد كلمـات لتصـف بيـت البيـوت وبنـت البنـات. أعـرف أننـى تأكـدت لحظتها كم أحبها. وأننى سأتزوجها مادامت صغيرة مثلى هكذا، مـن وراء السـتارة. كان نزول الليل بطيئا، ودودا .كانت الغرفة تسبح فى ظـل حميمـى هـادئ، كـان لقلبـى ذلك الإحساس المعذب لمن يحب. يحب بكـل سـنواته الصـغيرة الكـثيرة التـى يملكهـا ، يحب هذه الكلمات التـى لم يـتمكن مـن قولهـا. ويحـب هـذه المشـاعر التـى لا يفهمهـا. ويملك الليل منا. تنفسنا معا فى رئتيه. كنا فى أرجوحته يهدهدنا فى المسـافة بـين رئتيه والحجرة. أما لسعة البرد التى كانت فى يدى فكانت منه أجمل هديـة، لأن يـدها تحركت أخيرا وحطت على يدى كفراشة دافئة ، ثـم راحـت تنقـر راحتـى كالعصـفور. كان لملمس يدها فى يدى طعم ....؟ ليتنى أعرف.

لكن ومـاذا علـي لـو عرفـت ؟ لقـد عرفـت أن الشـاطر حسـن وسـت الحسـن ورحلات السندباد السـبعة مجـرد حواديـت ، فليتنـى ظللـت علـى يقينـى الراسـخ أن جبال الزفزاف والبلاد البعيدة والمدن المسحورة وسـت الحسـن حقيقيـة مثـل طلـوع

الشمس. إن طعم هذه اللحظة في دمي فلماذا أحكيه لكم ؟ وهي لي ...لي وحدي وليست لكم .

كل ماأعرفه أنني استبدلت كل ستات حسن الحواديت بهالة، وأصبحت أنا - وليس أبي -الشاطر حسن. ومن الآن أنا صاحب كل الحواديت.

* * *

بصعوبة راوغت العمال وهم ينزلون بحرص على السلم الخشبي المتآكل الأثاث والمراتب وقد ظهر منها القطن محترقا. كنت أعلم أن ابن المحنكرة هو الذي أحرق بيت عم ناجي شطيفة لأن هالة رفضته أكثر من مرة. وأن عم ناجي الطيب أجبن من أن يتهم أحدا. كانت يدي على الجير الأبيض فيما مضى، تحس رطوبته، تبللها دموع الجدارالذي تآكلت بطنه فكشفت عن مصيص وأعواد خشبية سوداء. سوداء بلون ترابي تخترقه مسامير عجوز صدئة .

أصعد ولآخر مرة إلى بيتها .

على البسطة، كانت أم صفاء تبكي، واندفع صوت عبد الحليم من الراديو "خسارة خسارة فراقك ياجارة. " صعدت إلى أعلى ومن الباب المفتوح كانت آثار الحريق أشد، وخواء يفترس ويحتل نصف البيت . ما إن دخلت حتى جذبتني بسرعة يد صفاء وأبقت رأسي على بطنها وطوقت ظهري بذراعيها ، حتى مر اثنان يحملان الكنبة الأسيوطي. حين خلت الصالة تماما فرشت أوراق الجريدة على الأرض، وأجلستني بجانبها ثم قالت فجأة "اسمع ياواد انت والله العظيم لو ماادیتنيش حضن جامد وبوسة حاضربك وحامشي مخاصماك." أخذتني في حضنها دون أن تخيفني هذه المرة وبكت،

بينما كان صوت أمها على البسطة صارخا. عنيدا مثل الأطفال "ماليش دعوة" كان عم ناجي زوجها ينهرها وهي تردد أنها لن تترك حتتها -سألتني صفاء

"عارفة إنك جاى لصاحبتك لكن حتوحشنى ..حأوحشك ياجرم؟" وأحسست أن صفاء طيبة جدا وحلوة خالص. لم أتكلم . مسحت دموعها وقالت وهى ترفع إصبعها منذرة "لو كدبت حتروح النار. قول هالة مش حازعل. لكن ماتكدبش" كان صدرى الصغير يمتلئ ويمتلئ. يحب هالة وصفاء وحتى أم صفاء وعم ناجى وهذا البيت. لم تنزل دموعى. خرج صوتى كأنه يمزق حلقى بسكين "انتم ماشيين ليه ياأبلة؟" وألقيت نفسى فى حضنها، متمرغا فى ذات اللدونة اللذيذة التى طالما أفزعتنى، وتمنيت أن تحملنى أنا بالذات فى قلبها وأرحل معها. كان لقبلتها ذلك الطعم البارد الساخن، الممتزج بريقها ودموعها، وهى تحتضننى دون قوة وتنفجر باكية. كانت غرفة هالة مغلقة. واهتزت الأرض رغم أنى فى حضنها وهى تخبرنى أن هالة قد رحلت عند خالتها منذ الصباح.

"انتى ياأبلة أحلى من هالة." وجريت نازلا السلم.

لماذا لم تودعنى ؟

....

ثم إنه عيب، وهى تعرف طبعا، أن أطلب منها أن ترينى ساقيها. كيف أجرؤ أنا الذى طالما بكيت من أجلها، أن أرى ساقيها محترقتين فى المينى جيب ؟

من وراء الشيش رأيتهم يحملونها ملفوفة بالكوفرتة إلى الحنطور .

....

شرعوا على الفور فى هدم البيت .

كل هذا التراب من سقوط المنزل ؟!

كيف تسحقون قلبى ؟!

ما اشتريناه منهم و ما تركوه لنا

لوكومادس ... لوكومادس ... لا ... لا

كوم سى بون ... كوم سى بون ... ما   مم ..ما

الصوت يملأ أذنك فى البيت ويلاحقك خطواتك على السلم. فى المسافة القليلة المتبقية تغالب فى سعادة تثاؤب الصباح و الكسل الشتوى. تسبقك أنفاسك مثل سحابة صغيرة بيضاء إلى عم أحمد لوكومادس وشجرة العصافير.

فى الصيف، كان اسمه أحمد جيلاتة، وكنا نتبادل الاسمين مع تعاقب الصيف والشتاء، ببساطة ودون خلط. نشترى منه، لا من البائعين الجوالين الذين لم يقربوا شارعنا إلا فى مرات معدودة لاستحالة المنافسة؛ كان يملأ الطبق مانجو أو حليب بقرش، وبتعريفة واحد كان يعطينا الكلوكلو، لم نذق مثله أو نرى حجمه مع أحد غيره. حتى عندما فتح حلوانى "أحمد أمين" الذى يجيئه الريفيون من أربعة أركان المحافظة ليتذوقوا "الزالِطّة" تمسكنا بعم أحمد فهو الأصل.

نحن الآن فى صباح شتوى، أنت لا تفهم سوى لوكومادس و ماما و "لا" الحرف السادس من السلم الموسيقى. تفاجئك سحابة هائلة من العصافير المجنونة تحوم حوله وكأنها تشكره على هذا الدفء. وتدخل مثلها فى دائرة الدفء اللذيذ. عم أحمد بدانته مفرطة، كنت دائما أتساءل من يفصل له بناطيله، كرشه يبدو أكبر حتى من الطشت الكبير الذى يقلى فيه اللكومادس، وبجواره تقف ابنته ياسمين التى ورثت عنه بدانته،لاتفعل شيئا غير لف القراطيس البيضاء.

لعم أحمد يد ماهرة وكبيرة .قد شمرها حتى مرفقيه، تمسك بالعجينة التى

تطل من تحت غطاء الحلة المواربـ فيسمح له بالكاد أن يمسك بها كأنها رقبة أوزة.
نحن صامتون لا نتعجله. نستمتع بوشيش النار وبالدفء الذى تشعر به أولا يجتاح أنفك ثم ينتقل إلي أذنيك، ونتأمل صورة عم أحمد المتراقصة.

لا، لن تهرب منه الإوزة، يطبق عليها أصابعه الممتلئة البدينة، فيطل عنقها وتندفع العجينة بيضاء. يجتز رأسها بسرعة بالملعقة ودون أن ينظر إلى الطاسة يلقى بها. على الفور تطاردها العيون الصغيرة النهمة، وتتابع نحوها إلى أصفر ذهبي. تتجاور وتتجاور حتى تكتظ الطاسة بالزحام الأصفر. هذا هو الوقت المعلوم. يترك العجينة ويغطى الحلة. يشكل بأصابعه قوسا يمرره بسرعة على ذراعه فيزيل كل آثارها. يغسل يده فى الماء ويجففها فى مريلته البيضاء. يطارد عم أحمد أسماكه الذهبية. أخيرا وقعت فى شبكته فيدق رأس المقلاة فى مهارة لينفض عنها زيتها ويلقى بها فى العسل. كأفضل لاعبي التنس يضربها جميعا يمينا ويسارا حتى تغمص بالعسل "عايز بكام؟" نسكت طمعا أن تغرق حباتنا فى العسل أكثر فأكثر، لكنه دائما يفاجئنى "بكام ياشرف؟" يا عم أحمد أنا لا أريد أن أغادرك، فلماذا تسرع وتملأ قرطاسي ؟ دائما يده الماهرة تختار لى من اكتظت بالعسل. على القرطاس الأبيض تظهر بفعل الزيت والعسل بقع دهنية شفافة، فرش الحبر الأزرق علاماته عليها. ويشيعك صوته ممزوجا بزقزقة العصافير "سلم الحاجة أم محمد."

تنصرف وفى فمك حلاوة اللكومادس. وفى يدك دفئها. حريصا ألا تمس جزء عم أو تلوث جدول الضرب الكبير نقطة عسل واحدة . تقول جدتى أنه يصحو مع الفجر . حتى المطر لا يقطع زبائنه الذين يحتمون بالشجرة و يتعارفون مع بعضهم البعض. أحيانا نتابع قطرات المطر بلا كلمة واحدة . فألسنتنا مشغولة بهذه السخونة العسلية التى تباغتنا وتحرقنا بنار مسكرة،نلحس بعدها شفاهنا وأصابعنا فى لذة .

" لوز "

بعدها ستمر على عم إبراهيم الفوال

- بقرش بليلة وقرش فول يا عم إبراهيم .

عم إبراهيم ليس عنده زحام وليس لديه دكان، تقف عربته الخضراء أمام الدكة الخشبية التى يجلس عليها . على العربة قدرتاه. سيدتان بدينتان طيبتان تتجاوران كأنما تستغرقان فى الهمس. يرفع غطاء مستديرا من الخيش مثل كرة شراب وتغوص مغرفته النحاسية الطويلة فى القدرة، يدغدغها حتى تعود ممتلئة بحبات الفول تسبح فى بحيرة كهرمانية، ويملأ السلطانية الصاج البيضاء أو الزرقاء. بعدها يقطر فوقها قطرات من زجاجة الدقة الحمراء وبعض من الزيت أوالسمن حسب طلب الزبون. أما البليلة فهو يملأها للأطفال فى كرم وابتسامة، ثم يعود للجلوس على دكته الخشبية، مشخشخا بالقروش، كأنما يؤنس جارته محضية، تلك الفلاحة الجميلة الصغيرة التى تفرش مشنتها، وتوزع عليها أعواد الجرجير والبصل الأخضر والليمون. أنت لا تعرف الفرق بين الشبت والجرجير، لكن الشبت أكثر أهمية بالتأكيد لأن اسمها محضية بتاعة الشبت. كانت الأيدى المشغولة لاتصل إلى مشنتها إلا بعد أن تضع الخبز تحت الإبط، فتقول بابتسامة طفولية لائمة "بيَضه !؟ دا أنا منقيالك أحسن حاجة" أو يندفع صوتها الطازج بالدعاء لعم إبراهيم، حين يأتيه ولد خائب يبكى -وقع على الأرض وسقط منه الفول- فيغسل له السلطانية من الحنفية المجاورة، ويعيد ملأها دون نقود "يبنا يفتحها عليك يا عم إبياهيم." كان المرور عليهما ممتعا وإن لم نشتر الفول ، حتى وإن ترك قدرتاه وجلس ينقى حبات الفول بالواحدة ويصدح صوته الجميل بالقرآن والذكر. سيبتسم لك إن وجد فى يدك جزء عم ويقول "الله يفتحها عليك يا شيخ."

كانت الشائعات تدور أنه سيتزوج محضية لكننى لم أره أبدا يحدثها، كنت أراه أمامها صموتا جدا وطيبا كالملائكة. لا يملك إن سكت عن الذكر سوى وجه نخيل وجبين أبيض وطاقية شبيكة، وابتسامة ترفرف دائما على مشنتها. وكنت فى نفسى أتمنى أن يتزوجها بإحساس عجيب أن هذا الزواج سيمنحه شبابا دائما فلا

يختفى وإلى آخر العمر من أمام قدرة الفول .

فى رمضان... يكسر عم إبراهيم عادته ويمر هو على البيوت بعربة الفول لم يكن ينادى على الفول أبدا ، كان يمر فى شارعنا بعد العصر تزفه الأطفال ولا تعطل سيره وهو يردد هازا لرأسه: "صلي يارب وسلم ... الله . على النبى خير البرية ..الله" ويطرب لصوته حتى الخواجة منير حين يغنى:

"حبه يحيى القلوبا ...يغفر الله الذنوبا ... يستر الله الذنوبا ..للحبيب مولاى محمد.

زادكم زاد طهور... وجهكم يعلو نور... ربكم رب غفور ..للحبيب مولاى محمد .

يا رسول الله نادى ..أهل حب وعباد ..هم كثير فى البلاد... للحبيب مولاى محمد ."

وأحيانا لا يردد سوى "سيدنا النبى ... سيدنا محمد" ولا يشبع منها . يهتز لها بطرب، بنشوة، بخشوع، بشيء لا ندركه. كان رأسه مرفوعا دائما إلى السماء وكنت أحفظ موعد مجيئه ..وحين ينقطع صوته العذب، نضع إفطارنا على المائدة وننتظر المدفع. ومع حلاوة خشاف التمر نردد حين يؤذن لنا المغرب، مغرب رمضان فقط ، "اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت."

"سودانى يا فول"

فى الشتاء ، وفى ظلام الليل ،كنا نسمع صوته بلهجته الغريبة على البيوت ينادى على الفول. لم تكن الإضاءة كثيرة فى شارعنا وكانت بعض البيوت مثل بيت عم مسعد وأبلة سعاد لم تزل دون كهرباء . كان مصباح عمود النور يسقطه غالبا حجر من نبلة مؤذية. على هذا ظل عم محمود البربرى خفاش شارعنا ، لا يظهر أبدا

فى النور ويرفض الصعود إلى البيوت. كان يسير متمسحا فى الحوائط، فى جلباب لم تحدد لونه أبدا. على وجهه تلفيعة كان فى غنى عنها، فالظلام كان يمتص وجهه فلا يكاد يبين منه سوى عينين لامعتين. يسير مثل شبح حاملا قفته الصغيرة، وبيده التى سترها الليل يلف القراطيس الصغيرة البيضاء ويملؤها لنا بقرش. كنت أعود خائفا بقرطاسى الساخن إلى جدتى فتضحك، لكننى مثل أهل البيوت أحب فول عم محمود المملح بحمرته القانية مثل دم الغزال.

قالوا - والله أعلم - إن عم محمود صعيدى وقال البعض بل نوبى. كانت له لهجة نوبية ظل محتفظا بها وكان لا يتحدث تقريبا، حتى يمكن الظن بأنه أخرس، فلم يسأل طفلا بكم بل كان يمد يده لقروشنا ويتفحصها وعند أية محاولة من السيدات لتبادل الحديث معه كان ينهيها بسرعة ونزق "تجرش ولا تجرشين؟".

قالت جدتى أنه لبناء السد العالى أخذت الحكومة والسد أرضهم، ووضعوا أرقاما للنوبيين وبيوتهم ونخيلهم بل وحتى فراخهم ومعيزهم، وحملوهم فى مراكب سار بها النهر بعيدا عن نخيلهم، ونسوا عم محمود الذى كان مسافرا وعاد ليجد البيوت خاوية. رفض العسكر دخوله، فعاد إلينا، وقبع فى الظلام تحت عامود النور.

لا أحد يذكر متى أو كيف اختفى بالتحديد ولا حتى افتقده أحد أو سأل عنه. فقط عرفت بذلك من جدتى حين قالت "الله يرحمك يابربرى الواحدة نفسها هافاها على شوية فول."

لكن المسكين كان فى هلاكه راحة لبعض البيوت. فلقد رأيت أطفالا يرتعدون وينسحبون من أمام الباب ويعودون صاغرين إلى فراشهم، بل يهرعون بصرخة إلى حضن أمهاتهم إن قالت واحدة "اوعى تنزل أحسن يقابلك البربرى."

وصار اسمه فى شارعنا - وإلى فترة غير بعيدة - مرادفا لأمنا الغولة وأبو رجل مسلوخة. صحيح أنه كان فى قاموس طفولتنا مرادفا للسواد، فإن احترق

رغيف أو كوز بطاطا قلنا إن وجهه صار مثل محمود البربرى، لكن الأمهات الآن يستعذبن الحديث عن صفات البربرى. كانت أم وحيد تؤكد لعيون صغيرها المشعوفة الدهشة أن البربرى أسود تماما، لا يراه أحد، وإن شاف ولدا فى الليل نزل الشارع، دون إذن أمه،خطفه، وهوى به إلى سابع أرض. ظل البربرى بشكل ما موجودا، فى الظلام، فى البرد ، فى المطر، تستدعيه الأمهات -وحتى بعد موعد النوم- إلى أحلام الأطفال. ومع اقتراب الفجر يختفى من حيث جاء .

تستشهدنى أم وحيد فأسكت. أشهد أننا فى رمضان كنا نموت من أجل القليل من اللعب بالفانوس الجديد الملون. كنت تطيل يد الفانوس بخيط كى لا يلسع يدك. توقد شمعتك وتهز فانوسك "وحوى ياوحوى" . نرسم بالأضواء الخافتة على أرض الشارع وردات كبيرة ملونة تتسلق ملابسنا ووجوهنا. كان دائما بجوارنا عم محمود، يذود كلبا أو ينهض من سقط منا على ركبته. يضىء لنا شموعنا الصغيرة م رة بعد أخرى إن انطفأت، ثم يمسك بيدك بعد انصراف الأطفال ليوصلك إلى باب البيت. ساعتها كنت ترى،على ضوء الفانوس، أسنانه البيضاء مبتسمة ولامعة ومرصوصة مثل كوز الذرة .

يا رب أنت لا ترضى الظلم فلماذا تركت هذا المسكين الذى طالما حرس طفولتنا ليخاف منه الأطفال من بعدى؟ حتى من تطوع بتكذيب الحكاية لم يجد من يصدقه. ظلت لحظة الخوف فى عيونهم واحدة وممتدة. هيهات أن تزيلها كلمات طيبة. يا رب هل تخاف البيوت ألا تخاف ؟!

روح لعمك غنيم البقال

ولن تسمع الباقى فأنت تحفظ. العيش الفينو والأصناف الثلاثة المقدسة الجبن والزيتون والحلاوة. ستقول له بعدها كعادة زبائنه "هات شوية لب أو شوية حلاوة شعر." كيس الحلاوة الشعر أمامه،كبير وراسخ ومنذور للأطفال. أما اللب

فهو فى سحارة لا تراها. عم غنيم لا يغادر دكانه. أحيانا تقف معه زوجته غير الجميلة، ومن حين لآخر تظهر ابنته سوسن فى البلكونة وتدلى له السلة بوجبة الغداء، أو تناوله شيئا على عجل من باب المخزن الخلفى. لكنها لم تقف أبدا فى الدكان.

عم غنيم قصير، بالكاد يعلو وجهه قليلا عن برطمانات الملبس والكراملة المربعة ذا ت الغطاءات الملونة، المرصوصة أمامه. كان مشهدا مألوفا حيرته فى الوصول إلى سلة البيض المصنوعة من السلك والمعلقة فى أعلى الدكان، قبل أن يتعلق بشىء - كل مرة جديد ومختلف - ليقف عليه ويصل إلى أعلى البنك ليحضر البيض. يقف حائرا قبل أن ينزل مرة أخرى لأنه نسى القرطاس. وكانت له تلك العادة الشائعة وهى دق القروش البيضاء الممسوحة على البنك. كان لقروشه الكثيرة سلطانا غريبا يدفع الأطفال إلى عدها، بينما ينهمك هو فى ملأ الأطباق بالعسل والطحينة، أو يقطع مكعبات الجبنة الدوبل التى كان يحرص عليها ولا يقطعها بالسكين لنعومتها الشديدة بل بفتلة من الخيط. السكين للحلاوة والبسطرمة والجبنة الرومى على سبيل إكرام بضاعة الأغنياء.

يبدأ صباحه دائما بقرآن الإذاعة، وبعد أن تخف الحركة يرتدى فى وقار الشمامسة بالطو كاكى ويترك الآن البيع لزوجته. فالبيع فى ذلك الوقت لأشياء تافهة مثل كيلو من الأرز أو إبرة وابور أو لتر جاز أو بقرش بلى أو دود القز وطعم الأسماك .هو مشهور ببيع الأرز خارج التموين رغم أن الأرز كانت له موجات اختفاء غريبة يصعد بعدها ثمنه إلى ستة قروش.

شأن كل البقالين كانت ثرثرته محببة عكس زوجته،التى لا تتحدث كثيرا ولا تنظر ناحيته عندما يبدأ صرف التموين، لا تشارك السيدات فى الحديث حتى وإن سمعته يقول لواحدة "ياحلو ...يا قمر ...ناموسيتك كحلى يا جميل." كان هذه المرأة نوعا غريبا من الصمم والصمت والقوة، وتتبادل فقط بعيونها مع ابنتها نظرات متفاهمة.

سعادة عم غنيم الحقيقية هى صرف التموين. مع القراطيس الكبيرة المصنوعة من ورق اللحم ومختلف رجاجات الزيت .وهى معظمها زجاجات خمر لا أعرف كيف كانت البيوت تتحصل عليها . وبقطعة من قوالح الذرة يلف عليها ورقة تصبح سدادة محكمة حتى الشهر القادم. كان يقف على أرض ربتية بين أكوام من صفائح السمن صغيرة وكبيرة، مفتوحة الفم يسيل منها الدهن مثل جرح. ورغم الشكوى من زحام عم غنيم وطولة باله التى تعل، وتهديد السيدات المستمر بنقل التموين على الجمعية. فنادرا ما تهجر البيوت عم غنيم. فهو يصالحها بالصابون الناشف الغامق المتحجر وليس الجديد الذى تعجنه الأصابع، وبشكك من تموين الشهر القادم فيمنح على سبيل السلف كيلو أو اثنين من الزيت لمن ستخبز قرصا رحمة ونور أو عشرة كيلوات سكر لعمل كحك صباحية عروسة، بل إنه يقبل الشكك. سواء بطيبة قلب أو لجر الرجل ثم ربطها بالمحل .

المتزوجات حديثا ممن انتقلن مؤخرا إلى شارعنا وليس لهن خلق أو طول بال، لايألفن بسهولة عم غنيم، وكانت رؤية واحدة عائدة بالتموين من الجمعية كفيلة بقمصه وتوقف العمل. خاصة إن كانت الملاءة تظهر بياض لحمها . بشيعها حتى تدخل بيتها . بنظرات حزينة لائمة، وأحيانا يرفع صوته بالشكوى وكلمات التقطيم "حاكم كبانية السكر اللى فى بيتنا بتعمله مغشوش ..خليكوا شاهدين ياناس أنا جبت الزيت الشهر ده من الحنفية." تتطوع واحدة أو اثنتان بتطييب خاطره ليعود إلى عمله، ويظل يستغفر ويستعيذ ويحوقل ويزفر ضيقا يتأكد أن كل واحدة من الواقفات قد أحست به وطيبت له خاطره بكلمة.

لكن السيدات بالتأكيد كن يحببن وقفة عم غنيم. فلقد كان يفتح ضلفتين ضيقتين فقط فى المدخل، فيجلسن على عتبة المدخل أو تستند واحدة على الحائط ويسرقها الوقت وهى تمارس النميمة مع جارة حبيبة حتى يرفع الشيخ عبد العزيز آذان الظهر فتصرخ أكثر من واحدة "ياهوى ياغنيم زيدان. حأطبخ امتى ...؟ الراجل الشقيان زمانه راجع" ويرد بكلمته الشهيرة "الصبر طيب ياذوق."

أعتقد أنه كان يحب النقار ويستمتع بخناقاتهن معه، و يمكن القول أن بلوغ البنت حد الأنوثة كان يتم بحفل تدشين على يده، فمع أول خناقة مع عم غنيم، تُعلن البنت فى شارعنا عروسة .

حين تميل الشمس وتملأ عليه دكانه, يعمل عم غنيم بدقة شديدة ومقدرة فريدة على صرف كل النساء فى نصف ساعة "أصله بغزالة " وأخيرا يتنهد بملامح حزينة بعض الشيء لانصراف الزحام ويتناول غداءه .

كانت المواعيد تتحدد بدقة شديدة من العاشرة وحتى الثانية ومن آذان العصر حتى المغرب. مع غروب الشمس يتوقف صرف بطاقات التموين. نادرا ماتجد رجلا يصرف التموين فهو يرده بأدب شديد وحكمة "اتفضل حضرتك وابعت الست فلانة ..حأمشيها على طول" أما عم مينا فما إن يراه حتى يقول "حاجتك جاهزة يامقدس مينا ."

على أية حال كانت الشوارب غير مرغوب فيها من النساء خاصة أن الملاءات المتأففة كانت تنزلق وتظهر قمصان نوم ساتان حمراء أو ذراعا أبيض، وعم غنيم سبع البرمبة لابد أن يدافع عن حريمه، فكيف يسمح بدخول ذكر إلى عرينه؟ بعد المغرب يجلس بجوار زوجته فى ركن البقالة يسوى حساباته المعقدة بقلم كوبية. أما زوجته فكانت تتبادل مع السيدات الأكثر أهمية فى الشارع حديثا قصيرا جدا، وبالطبع كانت أوهن جدتى.

زبـــــــادى

حين يغمق الضوء، وقبل حلول المساء ...يمر على البيوت عم محفوظ بدراجته الكبيرة الـ٣٢ وهو ينادى زبـــــــادى. مهما خدعتك جدتك لن يصبح كوب اللبن الدافئ المحلى بعسل النحل فى طعم زبادى عم محفوظ. حين يوقف العجلة

ينزل عن رأسه طاولة مستطيلة قد رصت عليها عدة أدوار من البرامات غطاها بفوطة بيضاء ... بيضاء فى لون الزبادى. يكشفها، ويخرج بإصبعين اثنين البرام، يقدمه لك بفخر عريس يقدم علبة قطيفية حمراء، بداخلها أساور ثعبان من ذهب بندقى، ودائما ... يتمهل قبل أن يزيح الغطاء وكأنه يرفع الستار عن مسرح، يسمى بالله ثم يقول "اللهم صلى على كامل النور اللهم صلى على سيدنا محمد." أنا أحب هذا البرام الأصفر وأنظر فى تلمظ إلى الكرمشة اللذيذة المغرية على صفحته.هذه الحركة البسيطة كان يطيلها فى متعة غريبة حتى يستوثق فى عيوننا إعجابنا بصنعته. أما عودة البرامات خاوية - التى لايقبلها إلا مغسولة - فكانت تتم بسرعة وكأنما يخشى عليها العيون، فيدارى عورتها وعريها كأنها ابنته. ألا يصف دائما وجه زبديته بأنها قمر ١٤.

عم محفوظ ينادونه أحيانا بعم حافظ، ربما لحفظه بيوت براماته، حتى وإن مر عليها أعوام. لو سافرت عائلة للمصيف سيذكر أهل البيت أنهم فى يوم كذا ساعة كذا وبأمارة كذا... أخذوا براما ولم يردوه. أتابعه وهو يحمل ثروته ويبدل فى تؤدة بتوازن دون أن يقع، فأقدامه الطويلة تحفظ له دائما توازنه وتثبته على الدراجة .

أما لو وقع ولد وسقط منه البرام فوقعته سوداء، لحظتها، يهرول ويحمل شقف البرام المكسور. ينظر إلى الزبادى الممتهن على الأرض جزعا. لن يقبل عوضا رغم إلحاح البيوت، لكنه يصدر قرارا بالحرمان على كل من يكسر براما، ويصبح لزاما على أهل البيت لسنوات أن يشتروا من الباطن عن طريق إحدى الجارات؛ فتشترى جدتى ثمان برامات لأن أم خليل كسر ابنها براما فى ساعة نحس.

ماذا لو اصطدم هو يوما بشىء وسقط منه الزبادى؟ تقول جدتى بسرعة "تف من بقك ..دا كان يروح فيها."

وأطرد الفكرة من رأسى. لأنه عندما علم من جدتى أننى أعمل عملية. دخل حجرة طفل فى السابعة، استأصلوا لتوهم لوزتيه الملتهبتين، طفل يفتح عيونا

دائخة بصعوبة، تثقل عليه رأسه فيرى وجه عم محفوظ عائما، ممطوطا يقول "زبادى مخصوص لسى شرف" ومد يده بملعقة من ملاعقه الرخيصة تلك التى يخصصها لمن يشترى منه من الشبان ويأكل فى الشارع ومن زمزمية الماء يغسلها هى والبرام، ويسقطها فى مريلته لتصلصل مع قروشه.قالت جدتك وهى تحمل رأسك وترفعها بحرص "عمك محفوظ خاف تبقى زبون حد غيره وجالك مخصوص ياشرف" وحين همت أمك أن تستبدل الملعقة بأخرى، نظرت جدتك لها نظرة نارية وفتحت لك فمك وهى تقول "تسلم ايدك ياسى محفوظ."رفض نقودنا وقال "عيب" انصرف وهو يغيظ الممرضة مناديا فى ممر العيادة "زبادى..."

فى اليوم الذى سمعنا فيه صرخة حادة وصوت تهشم البرامات، كان عم محفوظ قد سقط. امتدت أكثر من يد إلى الرجل، لكنها تراجعت "لاحول ولاقوة إلا بالله."

كان منكفئا على الأرض وكأنما انتحرت على يديه وأقدامه كل براماته. سقطت النعمة طائعة كلها وراءك تقبل ملابسك وأقدامك ياعم محفوظ.

غطوهما معا حتى وصول الإسعاف .

ومن دموع جدتك فى المساء، تعرف أنك ستنام الليلة من غير زبديتك .

بيت الكمان

من شرفة بيتنا التى تعلو قليلا على شرفتها، أتابع لساعات منى بنت أبلة سعاد. ليس لديك فى الساعات الطويلة، حتى موعد وصول أمك من عملها، سوى أن ترقب البيت المسحور بيت أبلة سعاد. أبلة سعاد وهذا سر راقصة. وطبعا راقصة يعنى عيب. لكنك لا تعرف لماذا تبتسم فى وجهها كل نساء الشارع، حتى أمك تقول لها من البلكونة فى احترام "صباح الخير ياأبلة سعاد."

تتحدث أمى وجدتى عن أيامها التى مضت. صعب أن تتخيل هذه المرأة وقد ارتدت بذلة رقص. هى ليست عجوزا مثل جدتك ولا صغيرة مثل أمك.

أبلة سعاد تخرج قليلا إلى البلكونة. فى حجرة النوم نصف المضاءة ترى من الشقوق حركتها القليلة فى شقتهم، وبالطبع لن تخرج من بيتها إلا نادرا، لم تقل أبدا أكثر من صباح الخير -تقول جدتى أن منى وأخواتها ليسوا حقا أولادها، بل أولاد أخيها أحمد السعدونى لكن منى تشبهها، كيف؟

* * *

خيط رفيع يربطك بها فهى لا تنزل الشارع مثلك ولا تلعب الأولى مع البنات. تبقى فى البلكونة تتأرجح على حصانها الخشبى، أو تلعب بالعروسة القماش. يتصك المشهد ولساعات طويلة، كأنك لست فى شرفة أخرى بل بجانبها، تشاركها هى فقط دون اخوتها كل ألعابها. الآن أجتهد فى تذكر وجوههم، وأفشل، لا أذكر سوى منى بشعرها البنى الخفيف النظيف اللامع والذى تتعلق بعض خصلاته فى الصيف بجبينها. بنت حلوة بملابس ملونة وشبشب صغير. ستضع بجانبها العروسة

الصغيرة وتتخيل أنك تلعب معها "واحد ومراته" فجدتك نهتك أن تلعب مع أى بنت عروسة وعريس -ستسألها عن الطبيخ هل جهز أم لا، وهل نظفت البيت أم لا. سنضرب العروسة ثم نصالحها، وستجلس معنا على مائدتكم التى تصنعونها من علب السجائر الكليوباترا الصغيرة وتصبح أغطية زجاجات الإسباتس أطباقكم. لكنك لاتجرؤ على محادثتها. ظلت أمنيتك أن تنادى عليها وتخبرها فى غباء أن عروستها حلوة. اعترف أنك كنت "بنوتة" وأنها كانت تعتبرك بنتا فلم تصلح أبدا للعبة. هل تلعب فى بئر السلم؟ أنت نفسك تخافه ألا تخرج الثعابين من هذا البيت. منذ أيام دخل عم سعد الفران إلى هذا البيت وسط الصراخ والترقب. احتضنتنى جدتى وهى تقول: "مدد يارفاعى" وبعد ساعة كان الشارع فيها يكتم أنفاسه، خرج عم سعد وسط الزغاريد. مبهرا كنت أراه يلف ثعبانا حول رقبته، أعطاه لتوتو وقال "موته أنت. أنا ماأخونش العهد" وأفهمتنى جدتى أن الرفاعية لايقتلون ثعابينهم، لو قتل ثعبانا مرة تعضه الثعابين بعد ذلك، ولن يفلح أبدا فى صيدها. غريبة! ومن سيخبر الثعابين؟ قالت جدتى بتأكيد أن الثعبان يعرف من يخون العهد.

• • •

الأرض فى مدخل بئر السلم غير مستوية، عارية، وبلا بلاط أو خشب، تصمغ أقدامك مثل عجينة غير متخمرة. رائحة رطوبة تنفذ إلى خياشيمك، وعتمة مفاجئة تتسلق كالعنكبوت ركبتيك المرتعدة. إن استندت على الحائط ببطنه الأسمنتى ينفرى تحت أصابعك وكأنك تفرك أوساخ جسد عجوز جدا، يتساقط الملاط وتسقط الرهبة فى قلبك. هل سيخرج الثعبان ويلدغك؟ لقد هربت من أمك ومن الدنيا حين دعت الله أن يعيد رأس أبيك فقط، أغمضت عينيك باكيا، مستسلما للدغته القادمة... لكنه لم يخرج.

فى المساء، ستناديك أمك ولن تسمعها، فما أن تنقطع أوراد أهل الحضرة والشيخ برهام حتى تسمع صوت الكمان.

سنوات يتسلل الصوت وينام على شرفتك. فعم أحمد. يخرج فى المساء لدقائق معدودة، ومستندا بمرفقه على درابزين الشرفة الخشبى. ينقر بأصابعه منسجما مع لحن لأم كلثوم. صوت ليس شديد النقاء يندفع من فونوغرافه القديم ذى السماعة الكبيرة. يظل يدور بأغنيات الست حتى بعد انتشار أجهزة التسجيل. ياعم أحمد ألا تمل العزف أبدا؟ لكننى أشكرك فلم أنم يوما فى بيت أمى إلا وكمانك يهدهدنى، وكأنه صعب عليه ألا أنام الليلة فى حضن جدتى. وعلى صوت الكمان كنت أسترجع حواديت أم محمد، ولا أروح فى النوم بسرعة. فى حواديتى أنا، كنت أبالغ فى انتصارات الشاطرحسن وأتجاوز بسرعة أحزان ست الحسن. فى حواديتى هذه الليلة ستكون النهايات قريبة وسهلة ورائعة. أنا حر.

* * *

اليوم توفيت أم أحمد. اندفع صراخ ضئيل من البيوت المجاورة مجاملا ومستحيا. بعد دقائق عاد صمت القيالة مرة أخرى. لم يذهب المعزون إلى بيتهم فهم لم يتركوا بيتهم مفتوحا شأن من تحدث لهم مصيبة. ومن ذهب خرج بعد قليل. أستطيع تخيل ذلك السكون والصمت. وأحزن لأن أم أحمد السعدونى البدينة الطيبة قد أغلقت عيونها إلى الأبد. بالطبع لم يدركوا أن عليهم الآن أن يفتحوا باب بيتهم على آخره شأن من يستقبل الموت. وأن يجلبوا الكراسى الحمراء، وفراشة الحاج منصور، وأن يعلقوا اللمبة الكبيرة الـ ٥٠٠ على المدخل. مجرد الصمت والشعوربأن هذا البيت سر. بيت وحيد لا يدخله أحد رغم أن بداخله ميت. لقد نزل عم أحمد بنظارته الطبية السميكة، اكتفى بهز رأسه لمن جاء من أهل الشارع معزيا، واستأذن ثم أغلق باب البيت. لكن لماذا لم يخرج النعش؟

كنا قد سمعنا فى الفجر صرختان. ومن الفجر وحتى قرب آذان العصر لم تخرج الجثة. وهمست جدتى لأم صفاء أنهم على قد حالهم وربما لا يجدون أجرة الحانوتى، وقالت أم صفاء أن السكين مازالت تسرقهم. لم تصحبنى جدتى لكنها خرجت ودخلت منزل الموت والثعابين. مع نزول النعش لم يصوت أحد، ربما لأن أهل

البيت أنفسهم لم يبدأوا بذلك، تشهد الرجال ورددت السيدات فى حزن "ياحبيبتى ياخالتى أم أحمد."

أهكذا فقط ؟ أين صراخكم؟ أم أحمد ومنى يستحقون منكم أكثر من ذلك. من أجل خاطرى يا رب دع كل الشارع يبكى ويصرخ ويصوت، بل اجعل يسرية تشق هدومها . اصرخى ياجدتى، اصرخى ياأم صفاء "والنبى عشان خاطرى."

كان الموكب قليلا يسير فى وجل، وأتمنى لحظتها أن أكون كبيرا لأحمل معهم نعشها . كانت عيون عم أحمد تتسول من يحمل نعش أمه، لكن الموكب راح يزداد ببطء وعلى استحياء فيطمئن قلبى. حين غادروا شارعنا كنت سعيدا رغم حزنى. أخيرا وفى آخر لحظة صارت جنازتها تليق . أقبل جدتى ولا تعرف السبب. يا أم محمد أنت لاتعرفين ماذا فعلت من أجلى .

لأول مرة تقف منى وأخواتها فى الشارع، على باب البيت. أذكرهم الآن جيدا، كان أخوها أمين يشد شعر رأسه. ولد من سنى يقول مخنوقا، بلا دموع، مخاطبا الهواء "ستى ماتت ..ستى ماتت." هل الدموع لا تزور الفقراء أيضا ؟ أراهم وأحس تبعثرهم، وأرى فى عيونهم جميعا نظرة العصافير حين تقع فى الشبكة. نظرة على ضعفها تثقب كل البيوت بحثا عن جدتهم، كأن البيوت قد ضنت عليهم بهذا القليل الذى امتلكوه ... كأن خبيئتهم قد نهبت .

ولم تذهب سوى النساء فرادى إلى بيت أبلة سعاد .

* * *

كانت تحمل الطبق لشراء العسل والطحينة. أراها واقفة بجوارى فى الفرن. أسألها "عايزة بكام؟" آخذ منها القروش الخمسة وأعطيها لسعفان فيعطينى هذه المرة عشرين رغيفا . عشرة لى وعشرة لها . العيش الساخن لن يكفى حجورنا الصغيرة. نفرده على الأرض، نفرغ هواءه الساخن، ستختار لها أحلى عشرة أرغفة.

سأحمله عنك. ترفض وتهز كتفيها. تمشى معها إلى البيت، غير عابئ بسخونة العيش على بطنك. أتعذب حين ترفع جدتى البيجاما والفانلة وتسألنى لماذا لم أفرد العيش وأنتظر حتى يبرد. أسكت، لا أجيب. ومن الشباك تنادى غاضبة على أبيك "أنت قاعد جنب مراتك وباعت ابنى لطابورالعيش؟" وتغلق الشباك غير منتظرة ردا.

أفكر مكسوفا، لكن فى خوف، هل احمر بطنها مثلى. مسكينة يامنى... كانت جدتك ستحمل عنك خبزك. أنا جدتى لا تسمح لى أبدا بالذهاب إلى الفرن.

• • •

أنا محظوظ ..ستأخذنى جدتى معها إلى بيت منى. استدارات السلم الخشبى حادة، وتنذر بالسقوط. ساعتها أمسكت جدتى بيدى فى عنف، الباب الكبير والمقبض الصدئ يغيران جلدهما كالثعابين. أنظر إلى أعلى بسطة السلم فأرى ألوان الزجاج الملون للشباك. غريبة! من خارج البيت لم تظهر ألوانه الجميلة الحمراء والصفراء أبدا. تفتح لنا أبلة سعاد بلا دموع "خطوة عزيزة يا خالتى أم محمد" ترد جدتى "شدى حيلك." ستجلس على الكنبة الأسيوطى التى تقوس قطنها إلى الداخل، وتفكر فى جسد أم أحمد البدين الذى صنع تلك الوهدة. متوجسا تجلس بجانب جدتك على الكنبة الوحيدة، غطاؤها هو نفس قصاقيص القماش التى صنعت كليمهم. كان عم محمد الصعيدى يجلس أمام بكرات كبيرة هائلة بكل الألوان ويصنع الأكلمة وأغطية السرائر، حين طلبت واحدا من أمك، لأن الألوان الكثيرة أعجبتك، قالت بامتعاض إنها للفقراء أما نحن ففى بيتنا سجاد.

أمامك كرسى لايكاد يتماسك، تجلس عليه أبلة سعاد بتعود وحذر. ستأتى بسبرتة القهوة وتشرع فى إكرام ضيفتها "سألت عليكى قبل ما تموت." فى الحجرة الأخرى الأولاد، مازالوا مبعثرين ومشتتين بنفس النظرة الفارغة، وعلى شفاههم بقايا كلام لم تدركه، لا يتحركون وكأن كل منهم يحدث جنيا مسحورا "أنا عارفة...

قهوتك سادة ياخالتى أم محمد." بجانبها ماكينة الخياطة، وملابس تتكوم فوقها ، فى ألوان فاقعة " ستاتي" من الساتان تخرج لسانها بلا حياء لملابس أبلة سعاد وجدتى السوداء. ربما هذا السبب لا تفصل أمى وجدتى عندها . أمعن فى بيجامات الأولاد فأتعرف على "بيجامتى" أقول ذلك هامسا لجدتى فتنهرنى فى عنف. لكنك لا تجلس كسيرا كشأنك حين تزجرك جدتك بالذات. بل تصبح سعيدا بإحساسك أن منى قد تظهر فى البلكونة مرتدية شيئا لك. شيئا مشتركا، جزءا منك. اللعب قد يصير معها ذات يوم ممكنا. لكنك مرة واحدة، أمام أثاثهم الضئيل تغوص فى الكآبة.

مع أبلة سعاد تسمع لأول مرة جدتك تحكى لغيرك عن المرحوم محمد. لابد أن الراقصة شئ مختلف غير كل نساء الشارع، فجدتى أصبحت امرأة أخرى أمامها . هى الخياطة الفقيرة التى ماتت أمها . سيتبادلان دموعهما بالتساوى. وحين تسكت كلماتهما ستخبرها جدتى برأيها فى "الحردة" بل ستقص لها جدتى قطعة قماش . وأستغرب أن جدتى تعرف الخياطة. لن تتابع جلستهما فعيونك متسمرة على منى . للمرة الأولى تصبح بهذا القرب منها. ورغم أنك تعرف أنه عيب، كنت تتمنى أن تستأذن جدتها وتلعب معها. لا لن تلعب معها بل سترتبت على كتفها وتقول "معلهش ماتزعليش يامنى." "لامؤاخذة مافيش حاجة نقدمها لشرف." أتفرس فى وجه أبلة سعاد الأبيض وعيونها العسلية طويلة الأهداب التى نكستها والروب المهترئ الذى يغطى عودها النحيل. أستشعر طيبتها وحنوها. ومن الغرفة الأخرى المغلقة ستسمع صوت الكمان أعلى وأقوى وأوضح من صوته فى بيتنا. ستقول جدتى بصوت مرتفع لدرجة مناسبة "مساء الخير ياسي أحمد" فيتوقف الكمان ويرد من خلف الباب "يسعد مساك ياست أم محمد ... خطوة عزيزة مايجيلكيش فى حاجة وحشة." تسمع إغلاق الباب جيدا. كيف تعرف ياعم أحمد؟ إن جدتى مازالت فى حدادها على خالى محمد، تسرع بعد القرآن بإغلاق الراديو، كى لا تسمع حتى موسيقى نشرة الأخبار. "لامؤاخذة" ويضعف صوت الكمان.

هذه الليلة ستحتضنك جدتك وتفهمك حزن الفقراء. كم هو جليل وأبدى. الفقير لا يملك الكثير. والكثير يلهى عن الحزن. الفقير ما أقل فرحته، والفرح يغرى بالنسيان.

- كانت تشاركهم ..

- ماذا ... طعامهم هذه اللقيمات التى لا تكفى دجاجة. الهلاهيل التى تتدثر بها أم الأشبار التى تنام عليها؟

- كانت تمرض و...

- وتقول يا رب ... أنت الشافى المعافى، والطبيب هو الله.

"هم زعلانين قوى ليه يانينة؟"

ستخبرك أن مصابيح الجنة قد انطفأت فى بيت عم أحمد السعدونى، وأنك لا تعرف بركة لقمة تنتزعها لك أمك من فمها، ولا شبعك إن ابتسمت لك ثمانون عاما من الفقر حين تعود فى الليل شاكيا ضيق الرزق.

- عم أحمد عنده كمانه.

- سيفتقد أكثر حضن أمه. أنت لاتعرف ثراءك حين تقول أمى.

- أبلة سعاد...؟

- كانت تحمل عنها نصف همها ونصف جوعها. كانت ستسند معها أحلامها الكسيرة، فى غد ليس فيه ولد، بلا كسوة جديدة ولا لقمة حلوة.

• • •

فى عتمة تلك الليلة، كنت أراها تنحنى على الماكينة ... وحيدة سوى من الليل والهم، تفتقد قول أمها "نامى ياسعاد الصباح رباح يابنتى" لكى تصلب عودها.

ستشكو لأمها أجرها القليل والتعب الذى هدها، لكنها تستأنف عملها .

الخوف يجلس فى الفراغ الضئيل الذى خلفته أم أحمد، غراب أسود جاثم يشاركهم أقل قليلهم. تتمنى مثلهم أن يبتعد، يبتعد قليلا ولا يرحل ... يبتعد ليس إلا.

ومسكينة أنت يامنى. لن تجدى حضنا هذه الليلة، تلجأين إليه إذا البرد هاجمك أو عضك الخوف بنابه. من سيحكى لك مؤانسا كم أنت أثيرة عند الله والملائكة. من سيصادقك فى الصباح بالأشياء بالأشجار، بالمطر، بالعصافير والكتاكيت والأرانب؟

لماذا انطفأت هذه العيون ...؟ كانت ترتق ملابسهم وفقرهم.

إنى خائف ... من يرتق روحى وأرواح أولاد عم أحمد الصغيرة المثقوبة؟

رحمك الله ياأم أحمد، وسامحك الله ياجدتى، لماذا أوجعت قلبى؟

كلنا مخطئون أمام الرب

ذهبت إلى الكُتاب متأخرا. كنت فى الصف الثانى عندما أدرك أبى أن المدرسة مسيحية جدا. دون تصريح بهذا القلق ذهب بى إلى مكتب تحفيظ حسين بك .

الإرسالية الأمريكية التى صارت معروفة باسم مدرسة الأمريكان، أنشأها البروتستانت بالقرب من كنيستهم البروتستانتية الجميلة. فى الزمن البعيد يحكى خالى محمود - تلميذ مدارس الفرير والرهبان اليسوعيين بزيهم الأسود وتعليمهم الفرنسى - أن مدرستى كان بها أيضا قس بروتستانتى، يمر فى طابور الصباح ويسألك " ياولدى أنت مخطئ ؟" وعليك أن تجيب بنعم ، فكلنا مخطئون أمام الرب . وظل هذا هو شعار المدرسة رغم رحيل القس.

للمسيحية غموض آسر. بدءا من مولد الشهيد العظيم مار جرجس الذى قاد المؤمنين للنصر ضد الكفار وقتل الحية العملاقة، ومروراً فى الصباح بجمعية بيت النهضة القبطى التى يتصدرها صورة الأنبا، ونهاية بزملاء الفصل ذوى الأسماء ذات الوقع المبهم بولا وجورج وميخائيل وكيرلس، صحيح أن بالفصل محمد وأحمد وفاطمة لكن هناك أيضا إيفا وماري وماريانا وكريستين.

• • •

كانت تلك هي حصة الدين، حيث وقف الأستاذ بطاطا، وقد ظل مدرس العربية محتفظا باسم مضحك طوال سنوات الدراسة ، فهو بطاطا أو شبارة أو كعبورة، الأستاذ بطاطا كان موجها دينيا، وبعد بلوغ سن المعاش عمل مدرسا فى مدرستنا، وقف الأستاذ بكرشه غير النباتى والكرافتة البالية والقميص حائل اللون، وقال: "حصة الدين ... المسلمين ييجوا ورايا على الجامع."

وقفنا صفا أمام الفصل ثم سرنا وراء الأستاذ . قادنا إلى المسجد وعند

وصولنا قال: " اخلعوا أحذيتكم " .

المسجد ضيق كئيب . أحس تحت جوربى بحصاة صغيرة . كان عم رزق المسيحى قد غسل الحصر وقامت دادة فاطمة بإزالة آثار العنكبوت فضاع مجهود عم رزق، واكتست الحصر بتراب ناعم، أفسد لون جواربنا الأبيض "النهارده حنتعلم الصلاة." ولسبب غير مفهوم كنا نصلى الظهر، والظهر فقط ، لمرة واحدة فقط ، فى أول أيام الدراسة فقط . ومتثلا بقول الإمام على " أصلى بغير وضوء " وقف الأستاذ مواجها لنا واضعاً يده على كرشه المهيب ، الذى يسبقه دائما فى الدخول للفصل ، وكبر قائلا "الله أكبر" وبدأ فى ترديد الآيات والتسابيح بصوت عال فرحنا نردد وراءه. وحين راودتنا الرغبة فى الضحك راح يتفرس فى وجوهنا بغضب مؤجل. لما ركع، وجد صعوبة فى الانحناء بسبب كرشه، وظل يزغر لمن يبتسم، أومن لم يعجبه مكانه فى الصف فقام بتغييره — هذا مع المحافظة على مبدأ منع الاختلاط ، فالبنات تصلين دائما فى الصفين الأخيرين _ وبعد السلام كان الأستاذ يقفز دائما لشد أذن ممدوح الذى وجدها فرصة مواتية لصفع محمود على قفاه، أعترف أنه بدا لى أنا الآخر، طوال الصلاة، مغريا جدا. وكنت قد تحملت صابرا قدر استطاعتى على العسال الذى ظل يدغدغنى حتى انفجرت ضاحكا، أما المفجوع أيمن الجمل فلقد أخرج سندوتشا وراح يقضمه بين آيات الفاتحة. ولم نر عصا الأستاذ تنال البنات اللاتى !رتفع صوتهن.

عند عودتنا، كانت دائما موسيقى البيانو ترتفع من قاعة مغلقة، ومعه صوت مس أنجيل الجميل يغنى بملائكية وخشوع "لا مثل لك بين الآليهة يا ربه.. لأنك عظيم ، عظيم أنت" وأحيانا يردد الأستاذ فؤاد، وهم وراءه،"وقال له سريال الملاك.." لكن صفعة على قفاى من الأستاذ بطاطا كانت تشغلنى دوما عن أقوال سريال.

شغفى بتلك الحجرة كان بلا حد. فى أيام الامتحانات كنا ندخل أخيرا تلك القاعة الكبيرة، حيث تفاجئك هذه الصور هائلة الحجم، لمارى جرجس. والعذراء

بملابسها الزرقاء السماوية تحمل يسوع رضيعا ، تحيطه هالة جميلة. وتحت أقدامها هدايا المجوس من المر والذهب واللبان. أو صورة المسيح ذلك الوجه المعذب .تلك الجفون المثقلة والرأس الذى ينوء تحت إكليل الشوك. وصورة أخرى له على الصليب بجسده الوردى العارى وآثار الدماء تنز على المسامير مفتدية شعبه ، وتحتها كلمات مباركات من الإنجيل يلقى عليها زجاج الشباك الملون المعشق بالأرابيسك ألوانه. للغرفة هواء مكتوم وبقايا بخور لكن اتساعها رحب ورائع . من الخارج تلقى الجنينة بأشجارها الكبيرة الوارفة على القاعة ظلاً دافئاً كأنها تحتضنها. أما العصافير فكان صوتها قريبا يصاحب البيانو الذى سكت الآن وقبع فى آخرها ساكنا كقط منزلى. الامتحان فى أبريل. لكن الريح كانت تفتح الشباك أحيانا وتلقى علينا بأوراق الياسمين، وقد يحدث أن يدخل عصفور بشوق إلى قاعة الروائح والموسيقى والصلوات، ويرفرف فوق رؤوسنا مكتشفا، وأحيانا يفعلها فوق ورق امتحاناتنا الأبيض . كان صوتنا يعلو متحمسا، لكن المدرسات الأقدم سنا مس تريزا ومس إيزيس بباروكات السبعينات المضحكة، كن يعدن إلينا هدوءنا بنظرة قاسية، بعدها يتبادلن كلمات إنجليزية تتعدى قاموسنا فتصبح رهبتنا مضاعفة وكأنهما تتلوان صلاة بالكلدانية.

• • •

قال خالى محمود - سامحه الله هو وفرنسيته- ضاحكا وهو يحمل حقيبتى " مافيش فايدة أنت ياولدى مخطئ." وحين فتح الحقيبة قال " إيه ده لاروس الكبير ؟" فقلت له مصححا "لأ ده كتاب سلاح التلميذ " ولما عرف أننى سأكتب نشيدا عشرين مرة قال ضاحكا لأمى إننى مازلت مخطئا أمام الرب بل وأكفر عن كل أخطاء العائلة. كان يشرب الشاى ويتابع أمى وهى تفرش "متاعى" كما يقول أبى، فاليوم هو آخر الأيام قبل إجازة نصف العام . كنا ليومين، يومين كاملين، ننقل من على السبورة واجبات الإجازة. كانت أمى منحنية مثلى ، وقد بدأت على الفور خطة العمل ، تبرى الأقلام الرصاص وتلومنى للمرة الألف على حرف الـ b الملعون . أيام

الإجازة لاتكفى. يهدك التعب وتنام . تستيقظ فزعـ مرعوبا من نومك لأنك لم تنـ
الواجب. تبقى لك مرة، رغم البرد تستيقظ ، فترى بطرف عينك نصف المغمضة أنا
قد صعبت على أبيك ، فجلس يكتب مرتك العشرين الناقصة من النشيد ، فتقو
بعيون نصف مغمضة "بابا اكتب بخط وحش بعدين مس فلامينا تاخد باها" . ثـ
تروح فى النوم قرير العين. وفى الصباح تتأكد أن المرة العشرين ومئات المسائل قد
حلت. لكنك تبرى القلم مرة أخرى، وبمسحوق الرصاص تمسح الكلمات التى كتبه
أبوك، فيده لم تعرق مثل يدك ولم تمسح أكثر الحروف مرة بعد أخرى. تكتشف أن أباك
ساذج ينقصه الكثير من الخبرة، كتب السين والشين بخط الرقعة. يابابا نحن نكتب
بخط النسخ .

• • •

الساعة الآن الثامنة إلا خمس دقائق مع "كلمتين وبس" تقدم الشهادة
مفتوحة لأبيك على مكان الإمضاء "بابا أمضى لى الشهادة" أبوك فى هذا الوقت فى
الحمام وأنت تقرع عليه الباب. تترك أمك حقيبتك وسندوتشاتك وتهرع إليك. على
حسن أن ينهى مهمته بأسرع ما يمكن وأن يخرج لمواجهة الكارثة. أنت حين يكرمك
الله ببركات الشيخ حسنين ومار جرجس ودعوات جدتك تصبح الأول، ساعتها تعلق
شارة لبنية اللون على كتفك لشهر كامل ، وتقف فى الطابور فى أول الصف . لكن
عند ظهور نتيجة الشهر القادم يصبح الثانى ماسخا . وتنتقل شارة الشرطة
المدرسية إلى يوسف وليم سمعان ، تعود إلى البيت فتنظر أمك مبهوتة فى وجهك
"أنت جبت الشهادة؟ ..الكام ...؟" تسكت أنت عن الكلام المباح، فتقول جدتك
"الشهر الجاى يرجع تانى الأول" .

فى الشهر التالى، تستميت فى الحفظ لعلك تحصل على الأول . لكن الأمور لا
تخلو من كوارث. الكارثة دائما هى الرابع، وتظل تحمل سرا دفينا أنك ارتكبت كبيرة.
فى الثامنة إلا خمس دقائق، ستخرجها من تحت المرتبة. رغم المواد القليلة ، إلا أن
أباك وأمك سينظران طويلا ، ويسكت قلبك وكأن ٤٨ من ٥٠ فى الحساب ستشى

بعملية ضرب تكاسلت يوما فى حلها وغششتها من مسطرة جدول الضرب . يقول أبوك فى عناد "آسف مش حأمضيها." تمتلئ عيناك بالدموع. فتأخر عودة الشهادة موقعة هو حادث جلل لم يحدث أبدا فى الأمريكان . "معلهش يابابا ... عشان خاطرى ياماما ..حأقول إيه للمس ؟" أنت لاتعرف بالضبط سلطة المس التى تخيف أباك وأمك " آسف" ويدخل حسن إلى الحمام ليتابع ماكان فيه. تعود أمك إلى حقيبتك دون كلمة وفى عيونها دموع. دقت الثامنة. تفتح الباب وتجرى إلى منزل جدتك. تراك فتصرخ " ياهوى مالك؟" امتلأ وجهك دموعا ورعبا. احتقن باللون الأحمر رغم برد الشتاء. "الحقينى يانينة ..بابا مش راضى يمضى الشهادة" وتجذبها من يدها فتهرول معك بسنواتها السبعين على السلم ولا تتدارك أن تعدل طرحتها، وفى النهاية يصبح التوبيخ أقل قليلا مما يجب لأنك ستتأخر. تعيدها لك جدتك، فتضعها فى الحقيبة متنهدا فى ارتياح. لقد انتهى الكابوس. صحيح أن الكلام إياه ينتظرك بعد العودة. لكنك ستعود للمس بالشهادة. وفى بيتكم عليك أن تضع عينيك على صورة، طفاية أو كرسى، وتسرح حتى ينتهى درس أمك الأخلاقى.

* * *

ما أقل الفرح ! هذا الشهر أنت الأول فيقول أبوك "شاطر أهو كده مش الرابع!" وتنفى أمك الاتهام "خلاص-رابع إيه؟ دى مرة وعدت" . يوم الجمعة، ستكوى أمك المريلة الزرقاء والمنديل الأبيض والكولة وكذلك شارة الشرطة المدرسية. تتابعها عيونك بقلق. ماذا عن الشهر القادم؟ لكنك فرح بالنجاة.لقد أفلت هذه المرة. كنت دائما تقع مثل فأر فى المصيدة، حتى لو هربت، تعرف أن الباب مفتوح وسينصفق مرة أخرى عليك أو على ذيلك، حين تستدعى مس فلامينا أمك.

ستقضى كل الفسحة فى حجرة المدرسات لتخبر أمك أنك فى الشهر الماضى أخطأت فى مسألة أو فى سؤال، وكذلك أنك فى الفسحة تلعب بالدوم مع الأولاد، أو أنك أثناء الشرح تكتب ورقة لممدوح صاحبك تزف إليه أن معك دومة كبيرة.

وتغرس أمك نظراتها اللائمة تتهمك فيها بخيانتها. تعرف أنها في البيت ستجلس بجانبك بلا ملل تقلب كل محتويات حقيبتك بحثا عن أداة الجريمة، وستحصي لك رغم أنك تحفظ ذلك جيدا، عدد المرات التي حصلت فيها على على تسعة من عشرة. أو أخطأت في الإملاء. لم يكن عندك محامي ليجادلها ويحسب كم مرة حصلت فيها على عشرة من عشرة. ستسمع لك تسميعا ألعن ألف مرة من تسميع مولانا، وحين تخبرها بتجربة الكرة والحلقة وتنزلق منك كلمة " وبعدين " تصرخ في وجهك وكأنك قلت كلمة تجديف، أو لفظا من ألفاظ أولاد الشوارع "لازم تحفظ بأسلوب الكتاب."

هل هو حفظ القرآن، أم عيون والدتك، أم مذاكرة الصيف التي جعلتك تجيد لعبة الحفظ لسنوات كثيرة قادمة؟ لقد اتهمتك أبلة خلود أم ممدوح بالغش من موضوعات سلاح التلميذ، وصرفت ممدوح حتى تعاتبك في أمر رهيب. لكنك نظرت إليها خائفا ومشفقا لأنها لا تعرف أن موضوعات التعبير الجاهزة لابد من حفظها. تسألك متحدية أن تعيد عليها ما كتبت، فتعيد عليها وكأنها مجرد سورة الأعلى أو الزلزلة. تستلبها اللعبة. تفتح في كل مرة صفحة مختلفة. وتقول "العمل" "عيد الأم" "النظام" فتكرر عليها مثل جهاز كاسيت كلمة كلمة وحرفا حرفا. تنظر إليك في النهاية مبهورة أو مشفقة "غريبة ... حفظتهم أمتى؟"... " في الصيف" ...كانت أمك تتأخر قليلا عن عملها لتملي عليك في الإجازة المسائل التي ستحلها وموضوعات التعبير التي ستحفظها. ألا يكفي أنك تشارك الأولاد لعبهم من الشباك؟!

• • •

"اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم." الله الله ياشيخ عبد العزيز. لا يهم أن يوسف سيصير له ملك مصر. لكن لماذا لا يقتلوا يوسف؟ ذلك الولد الجميل البشوش يوسف وليم سمعان. كم أكرهك يا يوسف. أنت الوحيد القادر على منازعتي لقب الأول. يجلس أمامي برأسه الصغير ويكتب بخط جميل. الملعونة مس فلامينا تقارن أمام أمي بين خطه وخطي. أصبح لزاما علي في الإجازة

الصيفية أن أذهب إلى الأستاذ ناصف وأملأ عشرات كراسات الخط :ب إنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا. " تستغرق فى كتابة هذا السطر نصف الساعة وتمحو كثيرا بالأستيكة. لن يحكم على كتابتك أمك بل أبوك. سيصمم الأستاذ الشيوعى أن العين تكتب أولا مثل رقم ٢ مائلا قليلا، يعبر أسفلها خط يميل بحساب، والميم هى رقم خمسة مثلثا وليس مستديرا. " أيوه بالراحة وبعدين السنة" له سحبة سحرية للقلم، من بعد المنتصف بقليل.

يا أستاذ أنا لست شيوعيا مثلك، كما أن الخط وجهات نظر.

لكن يوسف يكتب بخط النسخ وبسرعة. وفى آخر الشهر، قبل لحظة إعلان النتيجة. تتمنى أن يقتل الله يوسف بصاعقة وتصبح أنت الأول. أنت تقلده فى نوع أقلام الجاف التى يستعملها والكراسة ذات التسعة أسطر وكل الوسائل التى تسمح لك بالتغلب عليه. نادت مس فلامينا "يوسف وليم سمعان الأول ..أشرف الأول مكرر."

قال لى ممدوح مواسيا "أنت الأول مكرر عشان مسلم إنما هو مسيحى زيها." نهانى أبى عن ترديد ذلك وذكرنى أننى الشهر قبل الماضى كنت الأول. لكن أليس من الممكن أن يسلم يوسف؟ يكفى أن ينطق الشهادتين، تتأكد من أبيك فى خبث "هو أى واحد يقول الشهادتين يبقى مسلم؟"

فى الفسحة تراوده لكنك تخاف أن يتمسك بمسيحيته وعليك أن تستخدم الدهاء. "يوسف تعرف تقول زينا لا إله إلا الله. محمد رسول الله؟" ضحك يوسف وقال "لأ طبعا، كده ابقى مسلم" رد ممدوح وهو يتوقف عن قضم العسلية "وفيها إيه. المسلمين ماهم؟" رفع يوسف عيونا مرتبكة، وجرى فجأة.

خطا ممدوح خطوة إلى الأمام وهو يضع يديه فى جيبى مريلته، ومحتفظا بالعسلية فى فمه. أخيرا استدار لى ليفهمنى، قضم أولا قضمة من العسلية ثم قال " طبعا خايف، ماهو اللى يدخل فى الإسلام لازم يطاهروه غصب عنه" وقلت غير

مصدق "هم المسيحيين ما بيتطاهروش؟" .

يوسف أيها المسيحى النذل ! ألا يكفى أنك لا تتوضأ فى عز الشتاء بالماء المثلج، وخطك حلو ...كمان حمامتك سليمة؟

• • •

الكراهية تحبو على أوراق شهادة الأمريكان الوردى مثل دودة القز لكنها دودة وضعتها مس فلامينا لتأكل الدرجات والقلب. أنا لم أكره كثيرا يايوسف فسامحنى. هل كنت تكرهنى؟ أتمنى من الله أن تكون قد كرهتنى بقدر ماكرهتك. كما أننى ظلمتك، واتضح لى بعد ذلك أن حمامتك مقطوعة مثلنا. يوسف! بحق سماحتك المسيحية. اكذب على نفسك وقل أنك كرهتنى حين اغتصبت منك لقب الأول. ألم يفعل المسيح كل شئ ليخلص شعبه، بل وأحب أعدائه؟ فتش فى قلبك بعمق وحرص عن دودة صغيرة واحدة، أو حتى عن يرقة متناهية الصغر. ستكون لى أجمل هدية من صديق الطفولة.

• • •

فى الفسحة لم يكن مسموحا بالجرى. كان علينا أن نقضى الوقت فى مناقشات فلسفية عميقة، فالمسلمون كانوا يناقشون قضايا المعتزلة وقضية خلق القرآن هل هو مخلوق أم أزلى، أما المسيحيون فكانوا يتباحثون فى طبيعة السيد المسيح وهل هو ابن الرب أم الرب نفسه ويستشهدون بآراء آباء الإسكندرية أو روما. وغالبا ماكنا نلقى بخلافاتنا العقائدية جانبا، وتتجلى الوحدة الوطنية فى أحلى صورها، حين نناقش مسلمون ومسيحيون على السواء قضايا الساعة، مثل مفاوضات فصل القوات المتحاربة عند الكيلو ١٠١ونتائج زيارات كيسنجر المكوكية للمنطقة.

أنت كاذب بالتأكيد. كانت أعماركم بين الخامسة والعاشرة.

لو كنت أكذب فأخبرونى لماذا كان الأستاذ فؤاد يمشى مصحوبا بالحرس الحديدى من طلبة الصف السادس. وقد قطب وجهه حتى كاد يفعص نظارته الطبية بين أنفه وحاجبيه. فتحتا أنفه دائما إلى أعلى تتشممان الهواء بحثا عن ولد يجرى وراء الآخر. إن أمسك بأحدنا متلبساً يهوى بعصاه - للحق لم تكن عصا بل مضربا بيضاويا لامع بالورنيش - على مؤخراتنا . كنت تبكى وتفر بعدها مثل كتكوت مذعور. أما كلاب الصيد فلا تكاد تنتظر أن يقول "هاتوه" إن أفلتنا قبل النصيب المقرر. رغم حرصك أنت وممدوح إلا أنه يخرج فى لحظات غير معلومة. وكان أعدل الناس، يوفى الكيل، ولا تفرق عصاته العمياء بين مؤخرة مسلمة أو مسيحية.

لكنه منع الفراشين من بيع أى شئ فى المدرسة، وحرص ألا يكون بالحوش مرجيحة واحدة . بل وحرمنا من الكرات البلاستيك التى كان يجد متعة غريبة فى شقها وإلقائها خارج السور. وفى طابور الصباح، كان يمشى بين الصفوف بحثا عن جيب منتفخ بكرة أو دومة يصبح نصيب صاحبه علقة ساخنة، وكنا نسمع صوت الصراخ فى رعب وتنقذنا إيفا الطيبة "هاتها يأشرف" وبسرعة تمرر الدومة فتضعها إيفا فى حقيبتها فى المرواح، يترصدنا حتى آخر الشارع، فلا يجرؤ أحدنا على شراء شيء من أى بائع ينادى فى يأس على بضاعته، فالأستاذ يكفيه أن يحفظ وجها واحدا حتى ينكل به فى طابور الصباح .

فى الفسحة، منحنيا كنت تمد يدك، وتمرر القرش الأبيض من تحت عقب البوابة الحديد لبائعة عجوز لتحصل به على بسكوت، باستيلية، دومة، لكنه يفاجئك من الناحية الأخرى ويضرب يدك الصغيرة جدا بحد المسطرة، فتسحب يدك بسرعة. يجرحك حديد البوابة، ويضيع عليك مصروفك. ستبكى من الألم والقهر، لكن ممدوح يضع منديله فوق يدك ويقول لك "معلهش" تضئ عيونه من وراء نظارته ويقول "ولايهمك أنا اشتريت منها باستيلية ندلر" وتقتسمان خمس باستيليات، كل واحد اثنتان، وحين يقضم بأسنانه الخامسة لتصبح نصفين "خد أنت النص الكبير" يكتشف أنه فقد سنة جديدة .

إنه الشيخ عبد العزيز

كنت أقفز لا أمشى وأنا أحاول اللحاق بخطوته الواسعة بينما كان يحاول أن يخفف من قبضتة على يدى الصغيرة. كنت فرحا لأننى أسير بجانبه، وأيضا لأن اليوم هو أول أيام الإجازة الصيفية. وحين وصلنا إلى الكتاب قال أبى : " آه لو نلاقى الشيخ حامد."

على لافتة خضراء تقشر لونها قرأت "مكتب تحفيظ حسين بك". دخلنا حجرة صغيرة بابها رفيع بنى اصطفت بداخلها دكك صغيرة تشبه دكك مدرستى. وعلى منضدة صغيرة جلس مولانا.

كان فى سن أبى تقريبا، أسرتنى خضرة عينيه، وحاجباه المقوسان فى استدارة تامة، كذلك الشال الحريرى على كتفه . كان يدخن سيجارته بهدوء شديد ضجر. لما دخلنا سكت كل الأولاد وقال أبى: "أشرف يحفظ سورة الأعلى و ..."

وقعت عينى على الأولاد، كان الصبيان يلبسون البيجامات و البنات جلاليب بعضها مقطوع العروة ضائع الزر وأكثرها غير نظيف .

" سنرى بإذن الله."

تدخل هائبا ومستمعا إلى وقع خطوات أبيك المنصرفة. تفتقده ذات اللحظة، تجلس وحدك ... تلملم روحك مثل جزيرة صغيرة فى هذا البحر. أنت تحمل فى يدك - مثلهم - جزء عم . وبدأ صوت الشيخ "بسم الله الرحمن الرحيم" بالأمس قضيت اليوم كله فى الحفظ كى لا تخذل أباك، وراجعت ما تحفظ، والآن تغمض عينيك وتبدأ مثلهم بسورة الإخلاص و المعوذتين. كنت فرحا أن الأصوات العالية

المتحمسة الصغيرة بدأت تسكت صوتا بعد الآخر. وحين وصلت إلى سورة الأعلى. كنت أنت وأربعة أولاد فقط، لكنك حين سكت، فاجأك صوتان يستمران فى القراءة "والسماء ذات البروج" تفتح عينيك وتتأملهم جيدا. ولد بدين ستعرف أن اسمه فريد. وآخر نفرت عروقه ستعرف أن اسمه راضى، ولن يتوقف راضى إلا بعد أن يتم سورة المطففين. بينما تفر أنت الصفحات وتعرف أن معركتك قد بدأت، وأن يوسف يولد من جديد. واسمه هذه المرة راضى الدرينى. تنظر إليه فى تصميم محاولا أن تقرأ فى الغيب متى ستلحق به.

• • •

صرت تحب الشيخ مؤنس. تحب طريقته فى احتساء القهوة، وتدخينه للسيجارة وحلاوة صوته. أحيانا يقرأ معنا، ليشجعنا فى قراءتنا الجماعية ويضبط اللحن. وأحيانا كان يبدأ لوحده فى القراءة من أجزاء لانحفظها فنسكت سكوتا حسنا. فى ذاكرتك كان المقرئ دائما رجلا بدينا وبعيدا. غارقا فى ضوء الصوان الشديد الأصفر. المسافة البعيدة والموت يفصلانك عنه، والصوت الميكروفونى معدنى ذو سطوة وجبروت. لكن هذا الشيخ الصغير الوسيم ذا الذقن الحليق الذى يفوح برائحة اللافندر، قريب وآياته تتدفق فى سلاسة ، فى صوت إنسانى دافئ. الشيخ مؤنس يبدو أنه يستعد لسهرة فى مأتم كما أخبرنى أبى ويراجع ما سيقول. كذلك أخبرنى أبى حين سألته لماذا قرأ علينا الشيخ كفؤا أحد، أن هذه هى قراءة ورش، وأننى سأقرأ على يديه بقراءة حفص عن عاصم .

لكن الشيخ لم يصطفيك، فهو يحب راضى. فى كل صباح تسكت الحناجر الصغيرة رويدا رويدا حتى ينفرد راضى بالقراءة، راضى هو فخر مولانا، نتابعه نحن فى حسد، ونتمنى أن نصل مثله إلى محبة الشيخ. فيكفى أن يأتى ولد جديد مع أمه حتى يخبرها مولانا أن راضى يحفظ حتى سورة المطففين، وإن زار الكتاب أحد المشايخ من أصدقائه، استنزل راضى الويل على المطففين.

كان الكُتاب قد بدأ عمله منذ فترة وجيزة، وكانت الأعمار تقاربني يقل بعضها عني أو يزيد قليلاً. كعادة الأمراء المقهورين، كان عليّ ألا أسمح بظهور أحد في مجالي. هكذا كنت أحفظ دون تقصير، وأستعين في بيتنا بالشيخ حسن. فالشيخ مؤنس كان يسير على طريقة أبي، فهو يحفظني خمس آيات بخمس آيات ويقولها مثله مفخما الخاء. لن تنصرف إلا بمراجعة "اللوح" واللوح تعني السابق من الحفظ، ويقول الشيخ بعدها احفظوا ويذهب في مشوار. عند عودته كانت عصاته تؤدب كل من سولت له نفسه ادعاء الحفظ زورا وبهتانا. أنت مثلهم تؤخر ذلك قدر ما تستطيع، ولاتسمع إلا في الواحدة تقريبا، وتقرأ عليه اللوح الجديد. كانت البنت فايزة تتقدم في بطء سلحفاة، ووحيد البدين يقترب من المطففين وكذلك تامر وشوقي، أما معظم الأولاد فكانوا لا يزالون في السور الأولى من الجزء.

بعناد وهدوء بدأت أتقدم. لم أغفل الحفظ يوما، وكنت أقاوم رغبتي في الاستماع إلى حديث الشيخ مع زائريه أو زبائنه، فالشيخ كان يحقق في هذه الفترة نجاحا وشهرة في المآتم. تغمض عينيك وتحفظ جيدا. جيد جدا. وما إن دعت حنجرتي بالويل على المطففين، حتى التفت الشيخ، وسألني عن عمل أبي وأمي وأين أسكن وقال: "فتح الله عليك. " كان هذا الاهتمام مشجعا، فأدركت راضي في النازعات وغدا هو اليوم الموعود.

ليلتها، ظللت تحفظ السورة حتى غار منك الشيطان الرجيم وألقاك في بحار النوم، لكنك في الطريق كنت تراجع وتسمع طوال اليوم دقات قلبك، وفي الواحدة قرأت. قرأت السورة كاملة وانتظرت أن يقرأ راضي لكنه تلجلج ولم يكمل. لست الأول مكرر إذن. وقال الشيخ "خلاص أشرف بقى الألفة على الكتاب" ضاعت فرحتك فأين الأول من الألف. لكن أبوك طمأنك بأنك ألف الحروف وأول الابتداء، يعني الأول. بجد؟

• • •

- مستوى الولاد مش قد كده ياشيخ مؤنس .

- نعم ... ؟ ده فى شهرين ..شهرين ختمت مع أشرف جزء عم.

كنت فخورا بزهو مولانا بىّ. لقد حفظت الجزء وكان ذلك حدثا فى مكتب التحفيظ، وزارتنا على أثره لجنة من الأوقاف. كان الشيخ يعمل حسابها، وأكد على بالأمس ألا أتغيب مهما كانت الأسباب، وأخبرنى أننى سأنال لامحالة حقيبة جلدية. حين حصلت فقط على علبة ألوان شمع "اللخبطة" وألبوم أزرق لجمع الطوابع، ثار الشيخ وطالب بحقيبتى الجلدية التى لم تأت أبدا، لكنى مع ذلك كنت أحمل جوائزى فى فخر. حين سألنى الشيخ إسماعيل "أنت فى مدرسة إيه وسنة كام ياشيخ؟" سألنى عن عمل أبى وأمى، وقدم سيجارة للشيخ مؤنس وهو يقول "مايمكن حفظها من بره. ما بيقول أبوه حافظ القرآن." نظر الشيخ مؤنس فى وجهى وكأننى من قوم لوط أو من الفئة الباغية وقال :

- هو أبوك أزهرى؟

- ....

- شوف ياشيخ إسماعيل " ولم يشعل السيجارة " أنا وكتاب الله أتحصل فى السهرة الواحدة على عشرين جنيه والله الغنى عن فلوسكم، لكن بآجى هنا زكاة عن صوتى لأن من تعلم القرآن وجب لزوما أن يدفع الضريبة ويحفظه. آه خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

قال له مصالحا وهو يناوله السيجارة فى يده ويشعلها له هذه المرة

- أنت يا مؤنس صغير ومالكش طولة بال على القرود دول. لازم الشيخ عبد العزيز.

وسكت الشيخ مؤنس. حزينا راح يدخن باستغراق وينظر فى غيظ إلى الشيخ إسماعيل ذى الشارب الرفيع المدبب والنظارة الطبية السميكة . وحين انصرف سألته

فى حزن:

- خلاص مش حتحفظنى يامولانا...؟

• • •

أشرق وجه شيخى حين تأكد من أبى أنه ليس أزهريا ، بل كان فقط طالبا فى المعهد الدينى واستوثق:

- وخاتم ؟

- أيوه بس نسيت . الكلام ده كان من عشرين سنة . والقرآن غالب لامغلوب.

وكنت مستحيا من اكتشافى أن أبى لا يحفظ القرآن، لكن إشراقة الشيخ كانت جميلة ورأيت أبى يقدم له فى استحياء علبة قطيفية سوداء، بداخلها ولاعة رونسون، أبدى الشيخ تمنعا -لكن الولاعات الرونسون لم تكن تباع فى المحلات، تعجبت أن يقدمها بسهولة إلى الشيخ وهى الهدية التى أحضرها له خالى من ليبيا وثمنها ستة جنيهات كاملة، خاصة أن رأيه فيه من البداية أنه الشيخ "أبو فتلة". كان الشيخ مستمرا فى رفضه، لكنه كان ينظر إليها فى اشتهاء عجز عن إخفائه. بدأ فى استعماها بعد انصراف أبى مباشرة وأرسل الولد فكرى فاشترى له علبة روثمان بخمسة وأربعين قرشا كاملة ليستكمل وجاهته .

نفس اليوم مرت علىّ أمى وشكرت الشيخ على مجهوداته، وطلبت منه بالخصوص أن أستكمل معه الحفظ لأننى بالأمس بكيت وقلت لها إننى زعلان لأن الشيخ سيتركنا . طوال الحديث كان وجه الشيخ فى الأرض، واحمرت أذناه مثل حبتى فراولة، ولإنهاء المقابلة قال: "حاكمل معاه إن شاء الله" مد يده مسلما عليها بمنديل، وسدد لى نفس نظرة الأمس وهو يسألنى "دى أمك ؟" جف ريقى وعجزت عن الإجابة وأردف بنفس الصوت المغتاظ "قل لها ماتجيش هنا تانى." كدت أن أبكى

وترقرقت دموعى غصبا عنى. وأحسست بالغصة تزداد فى حلقى لكنه وضع يده على رأسى وقال بصوت هادئ ومنخفض "حوالين الجامع والمكتب ورشجية وعيال صيع. ازاى تبهدل نفسها عشان خاطرك؟ ياللا الحقها ووصلها أنت دلوقتى راجل مش عيل صغير".

• • •

أخطأت أمك وأبوك فى توقيت الزيارة، ليتهما جاءا اليوم. ففى هذا الصباح فوجئنا بالشيخ عبد العزيز سليمان، بوجهه شديد السمرة ونظارته البرسول الكبيرة السوداء فى انتظارنا. صحيح أننى طالما سمعت صوته ورأيته من النافذة، لكننى لم أكن أبدا بمثل هذا القرب منه. ومن اللحظة الأولى، أوقفنا الشيخ مرارا، واستعاد الحناجر الصغيرة أكثر من مرة. كنا ننظر مستنجدين بشيخنا مؤنس الذى اكتفى برفع حاجبيه منتظرا آخرتها. كنت أنا وبفخر آخر الحناجر التى توقفت "ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا." وانتظرت أن يسألنى عن اسمى أو أن يقول مثل شيخ اللجنة "فتح الله عليك" لكنه راح يلف سيجارة فى هدوء، ثم مررها على شفتيه وأخيرا قال :

- دى قراية جرنان مش قرآن.

وانفعل الشيخ مؤنس:

- قصدك أيه يا شيخ عبد العزيز ؟

- طرابا ..هو أيه اللى طرابا. وأين القلقلة ياشيخ ..أين الإدغام ..أين الغنة ..أين الترقيق والتفخيم؟

- حيلك حيلك ياشيخ . خلاص سبنا لك الجمل بما حمل أنت فاكرنى فى الأرياف ؟ دول بنادرة ..الأجازة يادوب وأهلهم ماحدش فيهم حافظ حرف. طيب داحنا عندنا فى ميت خميس كل واد سارح على حمارة خاتم المصحف

والفقى اللى هوه ..بيرجف لماتيجى له سهرة هناك.

لكن الشيخ سحب نفسا من سيجارته ونفض رمادها بإصبعه وقد فهم ما بين الكلام واستعد للمناورة

- لو ميتين خميس أردهم بعون الله .

وضحك فبدت أسنانه تالفة من الدخان. ثم قال فجأة مخاطبا الرؤوس الصغير "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..."

• • •

بدأ عهد جديد من القراءة الوقورة على يد مولانا عبد العزيز. وكان له صبر غريب على انتزاع الحروف الصحيحة من أفواهنا، لدرجة أن البنت فايزة وهى تلثغ صحت حروفها عند القراءة. ولم يكن له من مشوار سوانا. من الثامنة إلى الثانية، وهو فى المكتب يحيطنا بشبكة رقيقة مثل نسيج العنكبوت، لكن خيوطها أمتن من الحديد وميز الحناجر فكان يوقفنا أحيانا ليلسع وبمهارة البنت فايزة على مؤخرتها إن قالت " كلا بلا ينبذن فى الحطمة"... "كلا بل يابنت الكلب." ويستعيد الحناجر مصمما على الغنة والإدغام. ويختلف صوته عن الحناجر وهو يقول "رقق الراء ياولد أنا عايزها زى الحرير .حريـــــر...تانى ورايا. شيطان. أنت بتشرب أيه ؟ شاى أيوه قول بقى شاى طآن." كانت كل قراءاتنا لاتعجبه. فهو لايقنع أبدا بمدنا المقطوع النفس ويستزيدنا دائما "اطلع لفوق يا ولد لحد السما. السمـــــاء دول خمس حركات." . أما الأرض فلابد أن نقع إن سمعناها كما يقول على جذور رقبتنا. وأحيانا ينتفض ملسوعا وتنال عصاه أقرب الحناجر " الذين قفروا ..هى كورة كفر ولاشراب كـ ...كاف."

وبدا نهار الحناجر أطول من شهر الصوم. فنحن نحفظ أمام عينيه ولانغادر المكتب إلا مضروبين، صارخين، مولولين ولكن بالقطع حافظين.

كانت الحيلة القديمة أن نسمع اللوح القديم للشيخ مؤنس الذى ينسى. أما مولانا فهو دائما من الذاكرين. يشرب الشاى متلذذا بينما عصاته "تحشنا زى الخس" كما يقول. رغم ضيوفه يوقف بمهارة شديدة أوراق الخس فيصحح حروفنا ومدنا وغنتنا وقلقلاتنا. بدا من وراء النظارة بألف عين وألف أذن. منعنا من دورة المياه إلا مرة يتيمة، وكان يصمم على صلاتنا الظهر خلفه مع أننا لم نركع وراء مؤنس. أما العلقة التى ناها الولد رضوان أخو راضى فلقد أرهبت أوراق الخس وهدلتها على الدكك فى رعب وخضوع لجبروت الشيخ، فلقد فتح راضى جزء عم لأخيه حريصا على ألا يصدر أقل صوت، بل افتعل بمكر السعال وهو يقلب الصفحة، لكن مولانا أمسك بيده على الصفحة وعلى موضع الآية، وألقى كل جسمه عليه، فغرق رضوان فى كاكولة الشيخ، وباليد الأخرى أنقض على راضى وقال: "بتستعمانى يابن الكلب؟"

كانت هذه هى أول ابن كلب وأول علقة كاملة غير منقوصة ولكنها لم تكن أبدا آخرها وصرخ رضوان قائلا وهو يجرى مغادرا الكتاب. "والله ماعدت جاى." وما إن انكشفت الكاكولة وعاد النور إلى راضى حتى قال بوجه أصفر كالكركم "استنانى يا رضوان" وكأن جناح خفاش قد أظلنا وكأن السقف قد أطبق رؤوسنا، فاندفعنا دون أن يطلب "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو الله أحد..."

أصبحت مشكلتنا عويصة، ولم نستطع الهروب، حتى يوم الأحد الذى صار التليفزيون يقدم فيه اليوم المفتوح والفيلم الوحيد الذى نستطيع مشاهدته، لأننا ننام قبل فيلم يوم الخميس ولا ندركه. لم نستطع التغيب ليوم واحد خوفا من عقاب الشيخ، فراضى ورضوان اللذان ظننا أن الله قد كتب لهما النجاة، عادت بهما أمهما فى اليوم التالى، وانصرفت بعد أن قبل "أولاد الكلب" يديه واستسمحاه. ورغم أن أمهما جاءت حامية ترغى وتزبد، إلا أن الشيخ طواها فى عبه .

وبعد أن تركنا الشيخ مؤنس، جاء مولانا بولد أسمر مثله اسمه ياقوت، يحفظ

القرآن كله صار عبنا علينا. عبنا بعد المائة ترقب أوراق الخس. ومحتذرا بكلام عم تحسين "صار بصرى بصيرتى فصرت كلى مبصرا" كنت أستميت فى الحفظ دون غش خوفا من عيون الشيخ.

وازدهر الكتاب وتجدد حماس أهل البيوت، فالأولاد فى المسجد أأمن من الشارع. لن يتوه عيل أو يتخانق مع ابن جارة. بدأت الحناجر تبذل مجهودا رهيبا ألعن من أيام الدراسة، لتنجو من عصا الشيخ . ومع كل آية نحفظها كنا نلتف ونختنق أكثر بخيوط العنكبوت، فلقد استحرم أهل البيوت أن تنقطع الحناجر عن الآيات وثمار الحفظ دانية. وصرنا فى الحفظ نسلمه أولا الجزء ولن يجرؤ واحد أن يفرط فى جزئه خوفا أن يسرقه الوقت. أخيرا وبراحة قرار اقتلاع ضرس آلمك إلى درجة الجنون. تولى ظهرك للشيخ، وجهك فى اتجاه الحائط وتبدأ القراءة. إحساس بثلجية عنيفة تجتاح أطرافك وحين يقول "نعم" يجف ريقك ويتشقق حلقك. أنت متأكد أنك حفظت بل وسمعت أمام رضوان. أنت متأكد الآن أنك لم تحفظ حرفا، وتندم أنك انسحبت من لسانك وقلت حفظت. ومع أول عصا تأتيك الآيات فى آخر لحظة. لكن العصا لن تمهلك ولن تتراجع. تأتيك مرة من ذات اليمين ومرة من ذات الشمال، فجريدة الشيخ لاتعرف التمييز وعلامتها مباركة يرحب بها أهل البيوت.

والشيخ موهوب فى إقناع أى أم، حتى وإن بدأت زيارتها بالردح، فى أنه يضربنا لمصلحتنا، ويسرح بالست متحدثا عن فضل حامل القرآن وكيف أنه يشفع لسبعة من أهل البيت أولهم أمه، كذلك أنها ستحج بفضل الله والقرآن لا محالة، وستنجو من عذاب النار ومعظم أهلها من النساء كما هو ثابت، وأخيرا أن الولد سيفلح فى المدرسة. وحين ركب أم فايزة العند قال معتذرا "حقك عليا أنا غلطان. فايزة دى فى عينيا" بل وقال لأم زكريا بالحرف الواحد "طيب ياشيخة إلهى أنطس فى نظرى أنا بحب ابنك ..مش مصدقانى؟ طب عينى فى عينك كده؟" وكركرت أم زكريا بالضحك ونست الموضوع .

فى ذلك الصيف الطويل الطويل، لم يفقد الشيخ، بل لم يفرط فى واحد من

كتاكيتـه، وجلـس أخـيرا مثـل ديـك شركسـى أمـام اللجنـة وهـو يلفـت نظـر الشـيخ إسماعيل إلى حلاوة النطق ومخارج الحروف وبراعتنا فى الوقف التى أثنى عليها الشيخ إسماعيل قائلا : "ماشاء الله عندك مشايخ بتفرمل فى نص سنتى."

• • •

بيت مولانا فـى آخـر الشـارع. مـاإن دخلـت حتـى زكمـت أنفـى رائحـة عطنـة للرطوبة ، ومن بئر السلم المظلم فتح رجل بابا سريا ، فاكتشفت أنه دخـل دورة ميـاه وشرع على الفور فى الاستحمام.على السـلم الضيق كـان صـوت المـاء يصـل إلى أذنـى وأذن جـدتى. كـان المـلاط متـآكلا وينشـع برطوبـة قاسـية. الـدرجات شـبه عموديـة تتعب جدتى، وكادت لولا يدى الصغيرة أن تقع على ظهرها . أخـيرا فـى الـدور الرابـع نادت وهى تنهج "ياشيخ عبد العزيز ... يا أم فضيلة؟"

كان الظلام دامسا حتى أضىء النور ، وجـاء الشـيخ متحمسـا فوضـع نظارتـه بسرعة على وجهه وارتدى طاقيته. فوجئـت بـه مثلنـا يرتـدى بيجامـة صـينى "أهـلا ست أم محمد لسه فاكرانا ؟ استنى أنـور النـور عشـان أشـوفك." وأضـاء نـور الشـقة أيضا ، قال مبتسما " أيوه كده شوفى نورتينا ازاى؟"

جلست جدتى لتلتقط أنفاسها

- إزيك وإزى أم فضيلة ؟

- بنبوس ايديكى.

- استغفر الله ..أنت مزعل شرف ليه؟

وتلفت رأسه فى الهواء وقال مستفسرا :

- هو فيه حد معاكى؟

لحظتها غاص قلبى فى بئر عميق. أهكذا يامولانا حين تخلع الكـاكولا تتجـرد

من عباءة الشر ومن عيونك؟ كيف أصدق؟ لقد أقسم لى رضوان باكيا أن الشيخ يبصر مثلنا، لكنه يدعى العمى ليصبح شيخا؟ ذكرته يومها أن الشيخ مؤنس كان مبصرا فقال إن الشيخ مؤنس مقرئ أما مولانا فهو فقى. والحق أننى كنت شبه مصدق لكلامه. كيف للشيخ إذن ألا يعرف أننى معها. وجدتى أليست هى من قالت:"اوعى تستعماه ياشرف ده ربنا منور بصيرته بالقرآن."

- اشرف ابن بنتى.

- أهلا وسهلا.

ومد يده فى يدى المرتجفة وقال على الفور:

- آه. ده زبون عندى ..أشرف.

قلت واقفا بصوت خفيض وأنا المس ركبة جدتى

- ازيك يامولانا ؟

قبلنى ... لأول مرة، فى رائحة دخانه وجسده رائحة أليفة. تحسس الكنبة كأنه يسويها ونادى على أم فضيلة التى نزلت لنا من على السطح بصينية قهوة وهى تمسك بجنبها.

- سلامتها ياشيخ عبده.

- الله يسلمك ... السكر هد حيلها ...كل اللى يجيبه ربنا كويس.

كانت قد ذهبت إلى آخر الصالة وجاء صوتها واهنا عليلا

- لامؤاخذة ياست أم محمد. جنبى ناقح عليا.

- هى كلوتها بعافية؟

- آه عندها أملاح وحصوة.

- أنت مش قلت سكر؟

وضحك مولانا :

- خير ربنا موجود عندنا سكر وملح وزيت وسمنة . حاكم أم فضيلة عندها التموين كله.

ردت جدتى بأسى " سلامتها " رشفت قهوتها وقالت :

- أنت مزعل شرف ليه؟

- زينب كبرت خلاص. اتجوزت وخلفت، بس جوزها جدع ابن حلال . الهى أعدم نظرى ما كنت أعرف.

وضحكت أم محمد ونسـت كل ماحفظته ها فى الطريق. مولانا لا يعترف بالماضى ولا بالتاريخ. فى الكتاب يعاملنى مثل أى ولد خائب مازال فى سورة الزلزلة. أنا الذى أحفظ الآن عم وتبارك وقد سمع .

فى اليوم التالى قربنى مولانا من مجلسه وقال :

- ياسيدى اشكر لنا أم محمد .

ولم أفهم السبب وقال وكأنه يأتمننى على سر

- اسمع بقى سيبك من حفظ العيال ده من بكره تيجى وتجيب معاك مصحف وتحفظ من أول سورة البقرة .

* * *

اليوم سعادتك لاتوصف، لأول مرة تحمل مصحف أبيك ذى الغلاف الجلدى الأملس البنى اللون والورق البرتقالى . أنت الوحيد الذى تحمل مصحفا بين الأولاد "بسم الله الرحمن الرحيم ..ألف ..لام ..ميم."

أخبرنى مولانا عن تعب سيدنا عمر لسنوات وسنوات فى حفظ سورة البقرة. ما إن انتهى الجزء الأول حتى بدأت المتشابهات، وصدق سيدنا عمر. أنت تحفظ بإذن الله وتنسى أيضا بإذن الله، ومولانا يستوقفك. يامولانا، الآيات كانت على طرف لسانى فهل هذا وقت حروف القلقلة ؟ أعرف أنها "قطب جد". والله العظيم وأيمانات المسلمين الإظهار هو أوائل " إن غاب عنى حبيبى همنى خبره" .

هذا غير التريقة "إيه ده هى الست أم محمد مابتاكلكش. خد مص سكر نبات." تجهد ذهنك فى تذكر قول السفهاء "سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها..." لاشىء أكثر من ذلك والشيخ منصرف عنك إلى ضيفه.

- يالله الحمد لله ياشيخ محروس. أنا عارف الدنيا جرى لها إيه ؟ الصيف ده ما تعرفش يا أخى فيه إيه ؟ كأن الناس مابتموتش. متبته فى الدنيا بإيديها واسنانها ؟ زمان كانت تيجى أيام مفترجة، إشى كوليرا لأ شوطة، والشغل كان على ودنه.

وأذنه معك "ماشبعنا من السفهاء ..قل لله المشرق والمغرب... وبعدين فين الغنة ... الغنة حرف يخرج من الخيشوم ولادخل للثنايا فيه." لايهم أنك لا تعرف الخيشوم أو الثنايا المهم أن يفتح الله عليك.

- آدى حال الدنيا ياشيخ، إنما الدنيا إذا أينعت نعت، وإن صالحت لحت، وإن أدبرت برت، وإن أقبلت بلت، وإن حلت أوحلت، وإن خاصمت أوصمت ...

"الحق من ربك فلا تكن من الممترين..."

- فيه ناس بتتولد الرزق يخبط فيها. عندك الشيخ مؤنس ولا عبد النبى .

- دول بيتاجروا بالقرآن ياشيخ محروس. عبد النبى موظف فى الأوقاف

وبيقرا فى مقرأة وبيحفظ كام ربون سقع ولاد أعيان . ده اشترى لنفسه موتوسيكل عشان مش ملاحق شغال علاوله. لأ وإيه مراته كمان موظفة !

وكنت أشفق على مولانا فرغم حفظه - ثبته الله - وصلاته المطمئنة، لم تصل حلاوة صوته إلى الشيخ مؤنس. كان كبار الحفظة يقصدونه ويراجعون على يديه القراءة. يستعذب أن يحرجهم أمامنا قائلا " نعم يا سيدى قلت لى أستاذ قراءات ولا تهمس التاء ، هيه الدنيا جرى فيها إيه ؟" كان يقرأ القرآن بالسبعة، وأشهد أن الشيخ بحبح، وهو من هو ، قرأ أمامى على يديه. لكن شهرة بحبح الآن صارت تثير حنقه .

- وحياتك أحلق شنبى لو بنوا حاجة فى المجمع.أمال يلهفوا التبرعات ازاى ؟ وبيصرفوا عمال على بطال بقى يدوا لبحبح عشرين جنيه ؟

وكنت رغم حبى لمولانا أحب صوت الشيخ بحبح وبكاءه الذى يبكى البيوت.

- طيب ماحنا فيها حأصلى السنة دى التراويح وحأعيط وأنهنه، وليكم عليا لو حتدفعوا عشرين جنيه لأرقع بالصوت الحيانى بعد التسليم . عيب ...عيب ده تلميذى يامحروس ولما بقف وراه والله مافى مرة إلا وأرده. كمل

- ...ومن حيث خرجت فول وجهك...

- ....حتى فى توزيع اللحمة. إلا ماحطوا فى عينهم حصوة ملح ..قال إيه عبد السميع مقيم شعائر وياخد كرتونة لحمة وهو مروح ..مش كفاية اللى أكله ...؟ دا الأكل كان بيقع كده من بقه على الجلابيه وايده ملحوسة. منظر يؤذى العين والله. أكمل نعم ...

آه من تلك النعم التى تلقيك فى أهوال جهنم. مولانا له غضباته ولحظتها ينسى كل عهود الصداقة. الضربة إياها التى لا تتوقعها . تضرب وتخنقك الدموع " قال إنه يقول .. "حتى أنت ياسيدنا موسى تريد لخبطتى؟ "قال إنه يقول إنها بقرة

..." وتأتى الضربة من ورائك فلا تجد أمام عينيك سوى الحائط ..حائط اسود تستغيث بآية، وتستعيذ بالله كما علمتك جدتك، ولايفتح الله عليك. "إنها بقرة..." تلسع الجريدة ظهرك فيندفع الدم ساخنا إلى وجهك. يطقطق شعر رأسك "وحياة جوز خالتك، عرفنا إنها بقرة أمال معزة؟" ... وتدارى جانبك الأيمن متوقعا أن الضربة القادمة ستكون عن يمينك " إنها بقرة ... بقرة؟؟؟ ... بقرة خضراء."

تلسعك عصا أخرى عن شمالك "خضرا؟ ... خضرا ياكداب يانصاب ياحقير بنى أمية؟" ويضحك الأولاد الملاعين تشفيا فيك ومجاملة لمولانا . أنت لم تعد تذكر " بقرة ... حمراء؟"

ومع عصا مولانا تتلون بقرة بنى إسرائيل بلون جديد، وأخيرا تمن عليك العصا بلونها "صفراء" نعم كيف تنسى أنها صفراء فاقع لونها " نعم والتنوين ليه؟" أنا ناقص؟ ياربنا هكذا الكتابة فى مصحف الشمرلى . فى البيت تطلب راجيا من أبيك أن يساعدك لكنه نسى فيما يبدو . فهو يتجاوز عن أخطاء لا يتسامح فيها مولانا، وسيمنعك الحياء أن تخبره أنك نلت علقة بسببه.

* * *

أنت غاضب من مولانا ومن نفسك. لماذا تتفلت الآيات. فلتنصرف.

لكنك ترى مولاك واقفا وحده. ولم يأت الولد ياقوت ليعود به، فتمد له يدك. فرحا بها سيقول

- أهلا شيخ أشرف.

تمشى فخورا بأنك تمسك بيده وتعود به إلى البيوت. تفكر طوال الطريق. طيب أين تذهب الآيات ؟ أخبرك رضوان بطريقة رائعة ومجربة أن تقرأ الواقعة والدخان والرحمن والملك كل يوم عشر مرات. ياسلام ياسى رضوان. أنت يابنى عبيط ؟هذا وقت يكفى لتراجع البقرة كاملة. وتفكر فى مولانا لم لا ينسى؟ كنت

وحدك أنت وهو فقط، الشمس تلقى شعاعا لذيذا عليكما عند باب المسجد بعد صلاة الظهر، حين أصابته رعشة، وقال بسرعة منتفضا "افتح مصحفك ياأشرف" ويفر، هو الأعمى، الصفحات حتى يصل إلى صفحة ويقول "هنا اقرا" تقرأ فيقول لك "لأ بعدها بصفحتين كمان ..." تقرأ . " أيوه هى دى . إن الله إيه ... سميع بصير ولاسميع عليم؟"

أخيرا تجرب طريقة الشافعى، تبلل إصبعك بريقك وتكتب الآيات على ظهر يدك، تماما كما كان يفعل الإمام لكن هذا لا يجدى.

الآن ...تنتبه على يد مولانا وهى تضغط على يدك فى شدة تخيفك، وعلى وجهه هلع ويتشبث هو ، مولانا ، بيدك أنت، يدك الصغيرة.

- احنا تهنا ياأشرف

كنت قد تجاوزت مدخل الشارع، سرحت مع آيات البقرة من إذاعة القرآن الكريم خوفا أن يفاجئك بنعم.

- خلاص ضعنا ؟

- لأ يامولانا حندخل من الشارع الجاى.

- أيوه، سيبنى أنا عند الشجرة اللى هناك ..أيوه هنا بالظبط ... مع السلامة ياشيخ أشرف.

يبتسم الآن، ويدق بعصاه على أول الطريق القصير إلى البيت

- مع السلامة يامولانا .

فناجين نائمة في صمت

هذا هو بيت الصمت .

فى الدور الأرضى من بيتكم تسكن أم رجب. بوجهها الأسمر وتلك الملامح المتلاشية. سيشع من نافذة الباب الزجاجية ضوء اللمبة مرة خمسة فالكهرباء لم تدخل بعد عندهم . بعدها تفتح الباب وتقف متكئة عليه. لا تذكر دعوتها لك بالدخول. تدخل حين تناديك أبلة خديجة.

الأشياء ليس من طبيعتها التغير فى هذا المنزل ولا العادات أيضا. لن يتحرك كرسى مليمترا من مكانه. البلاط يفوح برائحة مطهر قوى. الكليم الصوف له وبرة كثيفة وخشنة. على الحائط صورة ستعرف بعد سنوات أنها، لحسن البنا. المكتبة كل كتبها مجلدة بالأسود عليها اسم المؤلف وتحتها مسعد خليفة. أما الصوان فمغلق دائما. كل ما به من أطباق و فناجين تنام فى صمتها كأنها تصمغت. البنات أكبر بكثير من صفاء وهالة ولم يتزوجن. لن تذكر احتضان واحدة لك أو حتى قبلة من أم رجب. هناك دائما مسافة تفصلك عنهن. تفصلك عن هذا البيت وتفصله عن العالم.

أنت لا ترى الأشياء جيدا. و لن تتكلم. إنهم فى هذا البيت يسرقون صوتك و يغلفون جدار الروح بقطن سميك. لن تسمع شيئا ولن يصلك ضجيج الشارع فالنوافذ دائما مغلقة.

***

هذه هى الساعة التى تكرهها قبل مجىء المساء بقليل. سوف تكون وسط

الدائرة تماما . دائرة الهمس. حين تجلس أبله سهام القرفصاء وتنشغل عنك بمتابعة الحائط. أم رجب وخديجة يسندان خدودهن على الركب أو يضعانها بين اليدين. تتلاشى ملامح هذه الوجوه شيئا فشيئا . مع انسحاب الضوء . تتوحد هذه الكائنات مع المساء . سوف تسمع صوت تنفسهن ثقيلا تقطعه تلك " النتة " المتواترة . ستقترب من أبله خديجة، وتتشنج يدك على يدها ، وتراهن يعقدن صداقة مع الظلام و الليل .

هل كان الليل ودودا جدا يأخذهن في حضنه. فيستسلمن له ولهذه الآلهة الغريبة ؟

بينما تحاول أنت الهروب بحواديتك، لكن حتى الحواديت تهرب من هذا المنزل. تحس بالضيق، وتحاول مع الضوء القليل أن تستعيد شكل الأشياء والعفش ووجوههن التي ألفتها في الصباح، كنت تغوص في نفس الليل الذي يلفهن، ورغم أنه بالخارج، كنت تحسه يرقبك. لم يبق لك سوى أن تستسلم له أنت أيضا . تفتقد الأصوات البعيدة، كأنك في مركب جانح يستسلم واجما لأنفاسهن الدافئة ولقدره المجهول. هل كانت صورة في خيالك أم واقع ؟...

***

"اعملي لنا شاي ياسهام." ستتابع مثلهن الخيالات على الحائط. تسمع صوت براد الشاي يتنفس محموما ، غطاؤه لا يكاد يستقر . الدفء يشع في الغرفة. يمكنك الآن أن تسمع صوت خديجة تغني غناءا لا تفهم عباراته، أقرب لغناء الصعايدة . تتمنى لو حفظت منه شيئا . نبرة الصوت تذكرها؟ طويلة معذبة للقلب. أما حين يرددن عليها بصوت خفيض ومستح، فإن النور يشرق في قلبك، نور يشرق قلبك الصغير من حلاوته. نور يشدك إليهن. أولئك الحريصات على النغمة الخافتة المسروقة. يا إلهي أية لغة يتحدثنها هل هي لغة أبو زيد و خضرة الشريفة، لا تعرف، لكنها لغة تشدك إليها .

ستسمع صوت احتساء الشاى لثلاث عجائز من ألف ليلة. يتبادلن جذبك من يدك الصغيرة كأنما يتبادلن عينا واحدة سيسرقها منهن السندباد. أما سهام فستجفل للحظة ثم تتركك تندس فى عظامها وتطلق زفرة. أنت تحب يدها الساخنة مازالت من ملمس كوب الشاى.

ستشرب أبلة سهام الشاى ولن تفرغ لك كوبا. بل ستقول لك أن تشرب ما تشاء لأنها تحبه باردا. لماذا لم تسامح نفسك على تلكؤك فى شرب الشاى؟ كنت تترك لها رشفات قليلة باردة فلماذا لم تدرك فقرهم؟

لم تكن ولدا غبيا. وكان فقرهن جميلا وقاسيا. هذه الأشياء القليلة دوما. النظيفة اللامعة، التى تفوح بالفنيك تذكرها. تذكرهن أيضا بنفس الجلباب لسنوات. ملابسهن بلا وبرة، مشدودة وجافة، ولا تذكر شكوى واحدة. كن فقيرات حتى لغتهن وكان خجلهن أروع أمامك. أنت اللعبة المتحركة التى لا يجرؤن على اللعب بها.

***

ستدق الساعة القديمة الثالثة عند عودة عم مسعد. سيضع المفتاح فى الباب وسيكون الشيش والزجاج والستارة مغلقين. الصمت يبطن المنزل. يدخل عم مسعد بجسده الفارع ملقيا السلام، بلحيته الكبيرة التى غزاها الشعر الأبيض و العيون العميقة. سيقف الثلاثة صفا واحدا. بخوفهن الهائل، يمارسن طقوسهن المرعبة حتى يدخل غرفته. عم مسعد رغم سجنه لسنوات طويلة مازال يحتفظ بسلطان وجبروت غير عاديين فى هذا المنزل. غرفته لا يدخلها أحد. حتى التراب أو الذباب. أنت تتبعه وتجلس فى انتظاره على السرير و لا تجرؤ واحدة أن تنهرك. سيعود مجففا يديه من آثار الوضوء. سيهجم عليك ويرفعك فتكاد تصل الى السقف. تضحك و تتشبث بلحيته حتى لا يطوحك مرة أخرى. "حفظت كام جزء؟" فتقول بفخر حتى سورة الأعلى سيقول: "هانت كلها ٢٩ جزء وكسور" لكنه مرة واحدة،

يتخلى عن ضحكه، و يعود هذا الوجه صمته و هذه العيون عمقها. سيتركك في حضنه قليلا ثم يقوم ليصلي. لن تركب على ظهره أثناء السجود مثلما تفعل مع خالك محمود. سينتهي من الصلاة وستجلس بجواره على السجادة ليتم تسبيحا طويلا. حتى تنقر أم حمدى باب الغرفة فتعرف أن هذا موعد غدائهم وتجرى خارج المنزل.

•••

عند العصر ستعود. سيفتح الشباك المطل على المسقط ويقرأ في مصحفه. بجانبه تجلس صامتا -من الشباك سينظر عميقا الى لا شيء. تنتظر هذه اللحظات النادرة حين يسألك ماذا حفظت اليوم ؟ حين تبدأ في القراءة سيقول دائما "نعم" لن يشجعك بابتسامة أو يعبس في وجهك، سيقول لك " اقرأ" وحين تنتهي سيقول "فتح الله عليك، أبوك شاب صالح."

لن يزورهم أحد. ولن يخرجوا لزيارة أحد. طلبات السوق تقضيها دائما أم رجب بالملاءة السوداء ومغطية لمعظم وجهها وإن فاجئتهم جارة نادرا بزيارة، لن تدعوها للدخول بل ستجلس معها على البسطة خارج الشقة.

أنت لاتذكر أنه ضربهن مرة واحدة،أو صاح فيهن أمامك. لكن نظرة من عينيه تجعل البنات وأمهن يرتجفن. هل سيدق الباب بتوع السياسة ويأخذونه للسجن؟ هن إذن لايخفن منه-بل يخفن معه وعليه. عم مسعد رجل طيب. أليس هو من علمك التشهد ويراجع معك الحفظ ؟

لكن المؤكد أن العرسان أيضا يخافون منه. خديجة الصغرى تجلس في المسقط في الشمس، وتشكو لأمها باكية وخافضة لصوتها "خليني قاعدة كده وافرحوا بيا ... طيب والله لما ييجي لحقول له ..أنا ماعدتش خايفة ..حيعمل فيا إيه يعني؟" أبلة سهام تتابعها بنظرة جافة وهي مقرفصة، جنب الوابور، تقلي الفلفل والباذنجان. بنفس الملامح التي ورثتها عن أمها. بتلك الهالة السوداء تحت جفونها والبقع

السوداء على وجهها والعيون الغائرة ذات النظرة العميقة الممتدة كسرداب .

•••

سهام. كان للمسات يدها ذلك الشيء المسروق. كان فى جسمها شيئا جافا ويابسا وضائعا .كنت تحس عظامها فى الجلباب القصير والبنطلون الكستور المشمر الذى تظهر من سيقانها نحيلة مثل سيقان دجاجة تتشبث بالبلاط وهى تمسح البيت يوميا . كان لها أيضا هذه الإبتسامة النادرة التى ما إن تزور وجهها حتى تقول "اللهم اجعله خير."

•••

تتساءل دائما أين ينمن ؟ فالحجرة الأخرى صالون عليه غطاء أبيض . بيتهم ليس سوى غرفتان وصالة ومسقط. لم ترهن نائمات فأنت تنصرف قبل العشاء وهن يستيقظن فى الفجر . كن لا يخفن العفاريت ولا يضحكن لنكتة، ولا يأملن فى أية معجزة. أما ما يحدث فى الشارع ..."احنا فى حالنا والناس فى حالهم." فى كل مرة تطرق عليهن الباب كانت أم رجب تطل دائما فزعة، بوجه مازال الصمت والظلام يسرقانه. بلا نظرة لوم أو عتاب. إنها نظرة الخوف. الخوف الذى يخاف الخوف منه، ويد يدا مترددة عجفاء لتأخذ من يدك طبق عاشوراء أوكحك. هن لايصنعن الكحك وليس فى بيتهن أبدا حلاوة المولد . فعلى الحائط صورة وحيدها الذى استشهد فى ٦٧ . لن يتحدثن عنه. لقد جئن من دمياط إلى شارعنا بعد النكسة مباشرة، مع المهجرين، ببطون خاوية، وبالخوف من باب لن يطرقه أبوهن، كان وقتها فى السجن، وكن دائما يفتحن الباب بالخوف من عاصفة ستقتلع آخر ما تبقى لهن. وفى ذلك الحيز الضيق كن مثل النمل صغارا جدا .

مسكين ياعم مسعد .ألم تملك جهازا للبنات ؟ وهل كان معاشك قليلا إلى هذا الحد؟ ما هذا السجن الذى كنت تدخله وتخرج منه لتجعل من بيتك سجنا آخر؟ سجن أحسه مع إغلاق الشيش، حين يصبح سنا الشمس مجرد قضبان من

ضوء .أتابع الغبار وهو يسبح فى أشعة الشمس فى درات دقيقة. بعد وفاة أم رجب ظل كل شيء على حاله وحين دخلت حجرته كان الشيش لايزال مغلقا. الشمس لا تستطيع كعهدها ولوج الغرفة. إلتصقت قضبانها الذهبية بلحيته وجلبابه. افترشت معه سجادته. قال باكيا " الله يرحمك ياأم رجب..اقرا ها الفاتحة يا أشرف."

كان غبار ذهبى دقيق يتسلق شرائط النور معادرا إلى أعلى ..إلى أعلى.

ياإلهى لماذا تورطت بالكلام إنى خائف ..خائف وهذا البيت سرق صوتى فماذا أقول لكم ؟

***

بعد إعادة فتح الجمعية الشرعية، صار قلبه معلقا بالفجر وصلاة الجماعة. وعرفت أن الحاج كان من كبار رؤوس الإخوان. بدأ بعض الأخوة فى زيارته، خاصة الشيخ سعيد، زاد عدد الجلابيب البيضاء التى تزوره. كان الصوت يتسلل همسا فى البداية إلى البيت. وبعد دخول الكهرباء ارتفع صوت رائريه أكثر وكان عم مسعد يسمع ولا يرد. وتزوجت خديجة أخيرا من أحد الأخوة وهاجرت إلى أمريكا فلم تعد تأتى إلينا. ظل هو وسهام فقط فى البيت .

يوم وفاته صلوا عيه الظهر والعصر جماعة، وجاءت سيارات كبيرة سوداء من مصر نزلت منها ذقون أغلبها بيضاء. وقالوا فى شارعنا إنه "شيخ كبير قوى منهم بل تمنت أبلة نادية أن تكون خرجتها كخرجته.

لكنه ترك سهام نسخة من أم رجب. عجوز ...عجوز جدا. ليس لديها سوى أن تقدم لى كوبا كاملا من الشاى، وتشرب شايها ساخنا جدا بتلذذ، وعلى مهل ...وأخيرا حين ترى عيونى القلقة تتعلق بصورة أبيها، تسقط دموعها بنفس الصمت الذى لم تعرف أن تقهره أبدا. فأربت أنا باصابع متوجسة على كتفها. وكأنما فاجئتها يد عفريت، يجفل جسدها ثم تسند رأسها على وتبكى. فتتخاف حتى أن

تقول لها إنك ستنصرف. تمشى بنفس الخطوة الصغيرة المتسحبة التى أجدتها فى هذا البيت. دون صوت، تتركها لبكائها طفلة عجوز. وتعرف أن شيئا سيأخذ قريبا أبلة سهام من هذا البيت وأن البيت يحتضر.

•••

لكن بعد سنوات، وأنت على مشارف الجامعة، بعد صلاة الجماعة مع الأخوة فى الجمعية الشرعية، وقعت يدك على كتيب صغير "الجهاد من هنا يبدأ" أسفله "مسعد خليفة ... الهارب إلى الله" وكتاب آخر بعنوان "إخوان فى سجون الناصرية". كنت ترتجف وهو يحكى عن تفاصيل التعذيب والسجن، هروبه إلى الصحراء لسنوات تنقله هو وأسرته من بلدة إلى أخرى بعد حلق لحيته، احتفاظه بعلبة سجائر وادعاء التدخين درءا للشبهات، بل حتى بليمونة طازجة إن اضطر للمشاركة فى جلسات المزاج مع أحقر عباد الله الذين كانوا فى سكته. كنت ترتجف سعادة وفخرا، ولا يهمنى رأيكم الآن فى الإخوان، فالبيت لم يمت. انتصر مع عم مسعد أخيرا على كل ذلك الصمت والقهر.

الكتاب فى يدى، وأستدعى به أم رجب وخديجة وسهام وقد عشن جميعا حيوات أخرى، ببطون ممتلئة، بلا هالات أنيميا، بلا خوف. بابتسامة واحدة هن جميعا، بعدها يعلو صوتهن، فأحفظ أغانيهن التى ضيعتها.

للعذراء أبناء كثيرون

ايام الحرب كان عدلى افندى أخو أبونا بطرس يأتينا دائما مسبوقا بكلمة "ياساتر! أو سعيدة ياست أم محمد." حين تظهر جدتى على الباب يدخل عدلى أفندى حاملا طلبات البيت. فلقد ذهب أبى واثنان من أعمامى إلى الحرب ولم يكن الآخرون يسكنون مدينتنا. يرتاح عدلى أفندى قليلا ليلتقط أنفاسه وتغادر وجهه سحابته الحمراء. يضع فوق الكنبة دستة صابون لوكس نندهش كيف تحصل عليها أو صفيحة سمن الممتاز. عدلى أفندى زميل أمى. يشترى لنا البيض البلدى من صديقه المقدس بشاى، وهو بيض طازج كبير الحجم وصفاره بلون الكهرمان. أحيانا يأخذنى إلى عم أمين شنودة حيث تحوم حولنا نحلتان فى المخزن وهو دور أرضى مفروش بالقش، ويظل الرجل فى صبر يفتح له علب الصفيح، يتذوقها عدلى أفندى، ويشترى أخيرا كمية كبيرة من العسل، دائما أول قطفة، يشترى كذلك لنا ولجدتى وأخوالى.

فى رمضان، كان يمر علينا يوميا بعد عودته من عمله، ويقسم على جدتى ألا تقدم له واجب. حين تعود جدتى بالشاى يظل الكوب أمامه منتظرا. لا تمتد يده إليه، وإن ظهر شخص على عتبة بيتنا المفتوح صاح خجلا "رمضان كريم" ورغم أنه يدخن لن يشعل سيجارة. كانت أمى وقتها فى إجازات طويلة وحين يستغيبها أو يعلم بمرضها يقول بصوت مرتفع يصل إلى إليها "سلامتك ياست أم أشرف" ويقول بعدها لجدتى فى حزن "إن شاء الله يرجع بالسلامة."

ويفاجئنا عدلى أفندى أنه اشترى لنا خبزا أو تمر، بل يقسم أحيانا أن يترك لنا باكوين من شاى التموين الذى جاءنا يحمله لأنه "صدقينى مش كييف." بعدها يترك قرطاسا من السكر لزوم الشاى، لأننا فى رمضان وسنحتاجه للحلوى وأنه منعه الدكتور من الحلويات. تقبلها منه جدتى شاكرة، لكننا نعرف أنه يكذب، فعدلى

أفنـدى يحـب الشـاى ويأكـل الحلـوى فـى نهـم، وإلا فكيـف أوتـى هـذا الـبطن الكـبير المستدير؟

اليوم سيصطحبنى معه إلى الجمعية التعاونية فـى ميـت حـدر لشـراء السـمك الروسى والفراخ. فعدلى أفندى له أصدقاء طيبون مثله يخبرونه مسـبقا بموعـد وصـول كل احتياجات البيت. فى عمر أفندى يعرفه الموظفون ويحـتفظ لـه عمـو ألـبير دائمـا بقماش كستور المحلة المعتبر. وفى باتا يحصل على أفضل الأحذيـة بسـعر ٩٩ قرشـا عند دخول المدارس.

أحب المشاوير مع عدلى أفندى فهو دائما يلقبنى بالأسـتاذ أشـرف ويسـتمع باهتمام مدهش لأى تعليق أو كلمة أقولها. هذا غـير أنـه طيـب القلـب فحـين وجـدت فـوق ترابيـزة السـفرة تلـك الصـور الجميلـة الملونـة ليسـوع ومـار جـرجس والعـذراء، أمسكت الصور أطالعها فـى حـب ووجـل، نظـر فـى عيـونى وسـألنى: " انـت بتحـب العدرا؟" وكيف لا أحب هذه السـيدة الجميلـة؟ اسـتجمعت شـجاعتى وأحنيـت رأسـى خائفا أن ينهرنى بأن هذا لا يجوز لأننى من ملـة غـير ملـتهم. لكنـه وضـع الصـور فـى جيب بيجامتى وقال وهو يقاسمنى سرا كرجل كبير مثله:

"خليها معاك، لكن لو بابا قال لـك حاجـة اوعـى تقطعهـم ... تجيـبهم المـرة الجاية."

وعلى هذا. ظلت هذه الصور سرا أخفيه فـى دولاب جـدتى لأننـى أعـرف أنهـا أيضا تحب العذراء، وبعد موتها فقدتها كما فقدت أشياء كثيرة.

سلم بيت عدلى أفندى خشبى عجوز. حين أصعد يكاد يسـقط بـى فدرجاتـه تميل نحو الخارج دائما، وحديد الدرابزين لايـوحى بكـثير مـن الثقـة لتسـتند عليـه. حديد البـاب علـى شـكل صـليب للبركـة ولطـرد الشـياطين. سـتفتح لـك أبلـة هـدى زوجته، تلك التى ترتدى الأسود دائما. تختفى لحظات، فتتركـك للصـور المسـيحية وأوراق النتيجـة التـى تقـرأ بـنهم عليهـا أعيـادهم الكـثيرة وكلمـات الإنجيـل، تعـود

لتقسم عليك أن تأكل البنبونى أو تقدم لك عصير الفراولة الطازج الذى لايصبح طعمه بهذه الحلاوة إلا فى بيتها . ستجلس أمامك أبلة هدى راجية مرة بعد أخرى أن ترشف الكوب الكبير عن آخره . تمسكه بيديك الإثنتين وتتابع عيونك على الحائط صورة لعدلى أفندي وأخرى لأبينا بطرس ولأبينا بطرس فى ملابسة السوداء وعلى صدره صليب فضى ضخم مورق.

•••

قلت لأبلة هدى مستغربا أن شعر ابنها أمير أسود جميل وثقيل وليس مثل عدلى أفندى، ضحكت حتى نزلت دموعها ، ونادت على عدلى أفندى لتخبره فضحك هو الآخر. أنت تحس أن الكلمة بايخة وأفلتت منك، لكن أبلة هدى تستزيدك فى خبث .تريد أن تسمع هذه الجملة مرة أخرى وتسألك لماذا قلت ذلك وهل تعتقد أن الصلع يصبح أولادهم صلعا مثلهم "طيب ماهى جانيت شعرها طويل وزى الحرير اشمعنى أمير؟" وبعدين بقى طبعا "لأنها بنت."

ألذ مافى بيت عدلى أفندى هو تيتة تيريزا. هكذا يناديها. أنت لا تصدق أن جدته العجوز جدا مازالت على قيد الحياة. لكنها رغم ذلك تعرف الحرب وتسأل عن حسن. بل تعرف عبدالناصر والسادات. هى لا تصدق أن أمر مصر المحروسة صار لذلك البربرى. يخاف عدلى أفندى ويتلفت قائلا: "ياتيته بعدين حد يسمعك؟" لكنها لا تهتم بكلامه. تشعل سيجارة وترينى الفارق بينه وبين صورة مولانا والملكة فريدة على طابع بريد تحت زجاج الكومودينو. عدلى أفندى يرجوها ألا تدخن ويكفى أنها تأكل الشيكولاته من وراءه. كانت دائما تحتال على جانيت لتشترى لها باكو شيكولاته كورونا كبير، رغم تعليمات الطبيب، تخفيه تحت مخدتها وتلتهمه وحدها .وكنت أحمل معى لعدلى أفندى فى أيام صومهم الكبير قليلا من اللحم اشتراه له أبى سرا ولفه فى ورق جريدة لأدارى ملامحه، فعدم صيامها كان يتسبب فى احراج كبير لعدلى أفندى إن اشترى لحما أو فراخ شمورت من أجلها لأنها ترفض فراخ الجمعية.

لزرقة عيونها وشعرها الفضى وفمها الخالى تماما من الأسنان شكل غريب لكنه لا يثير النفور. كانت أكبر سنا مما يمكن لعقلى أن يتخيله، وكنت أعتقد أن المسيح والعذراء كانوا بلا شك أصدقاء طفولتها الذين مازالت تحتفظ بصورهم. تيته تريزا لها جملة شهيرة كلما سمعت صوت القطار "بكره الجو بيجى حر؟ فهكذا علمتها صديقتها اليونانية أم أندراوس. هذا غير كلامها الذى يثير الذعر فى عائلة عدلى أفندى فهى تحكى أن جارهم أندراوس كان عندما يرى مارى أم جورج وعدلى أفندى على السطح يعاكسها بحجة أنه "عايز من ده" وحين تقدم له طبق البيض يشير إلى شفتيها فتجرى على السلم وتكسر البيض. يصالحها أندراوس بأن يعزف لها على البيانو "بلاش تبوسنى فى عينيا"، لكن العبيط تركها وهاجر إلى اليونان.

كان فى يدها دائما مسبحة مثلنا ولم أكن قد شاهدت سيدة تسبح سواها. سوف تسمح لك أن تعد حباتها السوداء المنتهية بصليب وتعرف أنها تسبح قائلة "كيريا ليسون" تسألها لماذا ٤١ فقط وليس ٣٣ أو ٩٩ فتخبرك أنها ترمز لآلام يسوع. فالمسيح جلد على الصليب ٣٩ جلدة."فاضل اتنين؟" واحدة لإكليل الشوك والأخرى للحربة التى طعنوه بها فى جنبه.

فى حجرتها وفوق سريرها، بالقرب من بيانو أندراوس، صليب خشبى كبير، جميل بشكل فذ، بصورة استثنائية. عليه يبدو المسيح مصلوبا بحق، بجواره صور أبينا بطرس قبل رسمه قسيسا وكذلك صورة البابا كيرلس الذى تنيح. "يعنى مات؟" تصمم أن قداسته تنيح ولم يمت.كان يرتدى " فراجية " ذهبية، فى يده اليمنى صليب ذهبى، وفى اليسرى عصا أطول منه تنتهى مثل تاجه بصليب أيضا، قبل نهايتها خرت حيتان صغيرتان ماكرتان ،التف عليهما، متدليا إلى أسفل، وشاح أحمر. "وليه ياتيته أحمر؟"... " ما أعرفش، بس اللون الأحمر دايما رمز لدم المسيح.

•••

ليس عليك فى هذه السن أن تناقش وجود أبينا بطرس. هو صديق طفولة والدك وأعمامك وله مكانة كبيرة فى بيتنا. فى زمن بعيد، فى الخمسينات، كانت

الدراسة الإبتدائية تقتضى سفرا وإقامة فى المنصورة بعيدا عن أمهم. نزلوا فى بيت أم جورج فكانت - قدس الله روحها - كما يقول حسن تغسل هم ملابسهم أو تعد هم لقمة ساخنة فى الشتاء. وكان جدى عبد الرحمن يسأل دائما عن أخبارها ويصون ها ذلك المعروف. فى بداية زواج أمى لم تبخل عليها أم جورج بطريقة عمل صينية المسقعة أوالخرشوف بالبشامل وكذلك الكريم كرامل، أما الكريب سوزيت فلقد أخذت عهدا ألا تبوح بسره خارج العائلة، وصعدت روحها إلى أورشليم السماوية حافظة للعهد. وقتها كان ابنها طالبا فى كلية الهندسة وبعد قليل من وفاة أمه ترك الكلية فى السنة الثالثة واتجه لدراسة اللاهوت وصار اسمه بطرس وليس عبده ويعرف الآن الأسرار السبعة. أحيانا أزورعدلى أفندى مع جدتى بطبق من الكحك، أول من يأخذه منى تيتة تريزا. وكنت أكتم ضحكتى وأنا أرى فرحته الطفولية، رغم رأسه الأصلع وشاربه الكث ونظارته الطبية، وهو يتابع فى حنين وتلمظ كحك الست أم محمد ، حابسا أنفاسه فى انتظار تيته ويسألنى بسرعة "أمال فين المحوجة السنة دى؟" والمحوجة بالنسبة لجدتى توازى كريب سوزيت أم جورج. وفى أيام ليست عيدا تخبز جدتى صاجين من المحوجة، ترسلنى بهم أوتحملهم بنفسها إلى عدلى أفندى وتؤكد عليه أن "ده نصيب أبونا بطرس."

***

جدتى فخورة جدا بحب أبينا بطرس لبيتنا . فهى بعد رجاء من إحدى الجارات ستسأل الأب النصيحة فى موضوع ما أو تطلب منه أن يدعو ها ولجارة حبيبة فى المولد الكبير ببيت دمسيس أو مولد ستنا دميانة، وقبل انصرافه ستعيد عليه طلباتها وكأنه ذاهب للسوق فيقول هازا رأسه فى صبر مؤكدا أن لم ينس شيئا "إن شاء الله . .إن شاء الله . اذكرونا فى صلواتكم".

حين يشتد الصداع بوالدتى، كان أمرا عاديا أن يأتى أبونا بطرس إلى بيتنا فيحرق البخور من مبخرة فضية ويرسم علامة الصليب فى الأركان الأربعة فى الهواء. وكانت جدتى تؤمن ببركات الأب وقدرته على صرف "اللى ما يتسموش" أكثر

من سفرنا القاهرة وعرض أمى على الدكتور خيرى السمرة.

وعلى أبواب الجامعة كان حسن يتسول لقائى فى الجمعية الشرعية إبان سنة الإعتكاف. كنت أردد له أن رسوماته وبركات أبيه بطرس شرك من عمل الشيطان فألمح فى عينيه حزنا عميقا، ويجادلنى بأن الله كان يتقبل منه. أما خالى محمود، المتخرج من الجامعة والمدير العام فكان يؤكد لى أننى لا أفهم ...لا أفهم.

أبونا بطرس كان يعبر دائما شارعنا بابتسامة. يلقى تحياته على الجميع ويهرع الخواجة منير وعم مينا لتقبيل يده. أما الأطفال الصغار فكان بعضهم يتابعه أحيانا بتعبيرات تفتقد إلى الذوق لكونه قسيسا لكن الأب كان يفلح دائما فى اصطياد المحبة من القلوب، وبلا معجزات. فلقد كان جيبه الكبير عامرا بالملبس الملون. ولم يتحرج أن يجلس على الأرض ويعفر رداءه الكهنوتى لينتزع قطعة زجاج دخلت فى قدم عزيزة وأن يربط قدمها الصغير القذر بمنديله حتى يضع عليها الصيدلى، لخاطره، قطعة قطن مبللة بصبغة يود، لكنها صرخت، وكان جزاؤه هو والدكتور منير أن لعنت عزيزة سلسفيلهم. كان يصطدم أحيانا فى مناوشات مع الشيخ عبد العزيز شأن الزملكاوية والأهلاوية. لقد كان الأب زملكاويا فعلا أما مولانا فكانت كلمته لكل زملكاوى "مش حتسلم بقى؟" وفى وفاة عم الشحات جلس أبونا بطرس بعد المأتم فى الصالة وطبعا جعل مولانا يدخن فرجاه الأب أن يتوقف قائلا:

- اطفئ السيجارة لو سمحت.

وميز الشيخ صوت الزملكاوى النصرانى فقال:

- وانت مالك ياأخى؟

- - أنا خايف على صحتك. السجاير بتبوظ الصوت وتضر الحنجرة. وأنت صوتك حلو.

- إنها متعتى.

وسحب مولانا نفسا عميقا، وحدد موقع أبينا بطرس فنفخ الدخان ناحيته ليغيظه أكثر.

- ماالمتعة فى الدخان ؟ رائحة كريهة وضياع للصحة والمال.

رد مولانا وهو يدير سيجارته فى الهواء:

- هذه معبودتى.

ورد الأب فى أسى:

- انت وقعت فى الخطيئة والرب يسامحك. مش عندكم فى القرآن ومن يشرك بالله فقد...

وصرخ مولانا ملسوعا :

-هذه مداعبة ولاأقصد ... إيه ؟ زلة لسان يا أخى.

- وهل يكب الناس فى النار إلا حصاد ألسنتهم ؟

والتفت الأب - الذى يحفظ نصف القرآن كما يقول أبى - مخاطبا الجالسين قائلا إن الرب يثبت الآن فى هذا المجلس وهذه اللحظة أن سيجارته لا يأتى من وراءها خير. فها هو رجل الدين قد تلفظ بكلمة شرك فماذا ينتظر ليتأكد من إثمها.

وعاد للشيخ قائلا :

- دى بتشغلك عن ذكر ربك. وانت إن جمعت بينها وبين التسابيح لاتخلص عملك للرب. كيف تقول كلمات مباركات تفوح بالمسك وتتحداها بدخان؟

واسود وجه الشيخ خاصة وأن الكثيرين قد تحاملوا عليه. زاد الأب فمد يده فى جيبه وأخرج خمسة عشر قرشا ناولها لمولانا قائلا:

- لو سمحت أنا قاصدك فى خدمة. احرق لى الخمستاشر قرش دول.

- اللهم طولك ياروح ... احرق نعمة والعياذ بالله؟

ورد الأب متصنعا الدهشة:

- ماانت بتحرق زيهم كل يوم. أنا مستعد أجيب لك ١٠٠ شاهد.

- ماحصلش.

- لأ حصل. بتشترى كل يوم علبة سجاير بخمستاشر قرش وعلى آخر النهار بتحرقها. انت لو اشتريت تلاتين رغيف ورميتها فى الزبالة أهون.على الأقل بتاكلها القطط.

بهذه الحجج الدامغة وبابتسامة واسعة وبدعم المؤيدين الذين تكاثروا على مولانا ألقى السيجارة وقال:

- فلا والله أقربها حياتى.

وحين قابلنا فى الشارع سلم على وعلى الشيخ وقال بابتسامته المعهودة:

- ياأشرف هل المؤمن يكذب؟ هل يخون عهده؟

فقال مولانا فاهمنا وهو يلكزنى لننصرف:

- يا أبونا أنت مش واخد بالك. أصل أنا اليومين دول عندى شوية فكر، وخلاص صمت تلات أيام.

وكنت لحظتها أدير عنقى لأرى ابتسامة أبينا بطرس واضحة وطفولية جدا، هى توأم ابتسامة عدلى أفندى لطبق المحوجة.

مشربية تضيء الملعب

كانت تدير ظهرها للشمس وتواجهني، فتحجب قرص الشمس. أرفع رأسي نحوها فتتحرك حركة بسيطة خفيفة لكنها كافية لأن يظهر النور فجأة وأعمى بذلك العمى اللذيذ، بعدها تتداخل الألوان والخيالات المدوخة في عيني وتصبح الشمس أخيرا ...تاجا لها.

- صباح الخير ياأشرف. سلم على ماما وتيتة.

في انتظار أتوبيس المدرسة، أراها كعادتي تنتظر التاكسي. كانت سنتك تؤلمك منذ أيام ولم تواتك الشجاعة على اقتلاعها. كان عذاب الأمس شديدا، ربطتها في فتلة وربطت الفتلة في مقبض الباب وتبقى أن تغلقه بسرعة. لكنك تراجعت في اللحظة الأخيرة. وهذا الصباح بعد أن تعب لسانك من دفعها. ضغطت عليها أخيرا بإصبعك مستمتعا بألم قليل وطعم دم ملحي. أفزعك تكسر هش ومخاط أحمر على اصبعك. اقتربت لحظتها منك جازعة "مالك ياأشرف؟" " قلت في حياء، كأنك عملتها على نفسك، وأنت تريها السن الصغيرة " سنتي" ابتسمت ووضعتها في منديلها الحريري الصغير، النظيف المكوي الذي يتعلق بطرفة فراشة "ما تخافش. بص للشمس وقول ياشمس ياشموسة. خدي سنة النونوسة وهاتي سنة العروسة." كان لعينيها ذلك اللون العسلي كأنما أجمل نومة لقمرين صغيرين. آه هذه العيون الرائعة التي تطلق الفراشات في دمك. فراشات تقف كلها على أطراف أصابعك تبغي انتحارا على وجنتها التي لم يغادرها النوم. الحمراء.. الناعمة.. المشدودة، اللامعة والملساء كقشر التفاح. تتمنى أن تستطيل قامتك فتصبح في مستوى هذه العيون وتستقر نهائيا في بحيرتها العسلية..

أشجان أنا من أجلك أحببت الجنة. أصلى رغم الماء البارد الذى يشقق ظاهر يدى. وأحفظ القرآن رغم عصا مولانا ...وأنت طيبة ....فانتظرينى هناك.

الآن أندم على السنين التى انقضت ولم أقبلها فى خيالى.

معذور كنت عيل وعبيط. لكن لماذا لم تحتفظ على الأقل بتلك السن وذلك المنديل؟

•••

أشجان هى الأخت الصغرى لأربع بنات. ألقت الملائكة عليهن بالتأكيد ملاءة شفافة من الحزن. كن أقرب إلى القصر بامتلاء حميم. ملابسهن السوداء الضيقة المحبوكة تمس كل فتاة فى عشق. هل لى أن أعرف كم كان لتلك الملابس تأوه على الجسد البض؟ هل أخبركم أن الجورب الأسود كان يلتصق التصاقا بربلة الساق فلم يتهدل مرة واحدة؟ وأن الجونلة كانت تحتضن الخصر بينما ينام قماش البلوزة الحريرى على الصدر فى خشوع؟

لأربعتهن نفس الرداء الأسود. زى الحداد على والدهن البيه المأمور. وكانت الست أم أشجان "جمان أفندينا" تبدو من الشباك هى أيضا فى رداء أسود وسيجارة تدخنها ساعة العصارى.

تقول جدتى إنها مصراوية وهذا فهم من طينة مختلفة. ولأن الله فرق بين الناس فى الطباع فإن الست جمان يحق لها أن تدخن، ويحق للبنات أن يضعن الروج ويذهبن إلى الجامعة.

مسألة الذهاب إلى الجامعة هنا فى شارعنا، فى أول إنشائها، حدث غريب تنظر إليه البيوت فى حسد. رغم أن هناك بنات سافرن وتعلمن فى جامعة القاهرة أوالإسكندرية إلا أن ذهاب بنات من شارعنا إلى جامعتنا مسألة تملأ البيوت زهوا. زاد الموضوع إثارة للدهشة أن معجزة الجامعة صارت قريبة ودانية لبنات كفر

الغجر. كيف أشرح ذلك ؟ إنه شيء مثل نقل الحرم من الحجاز إلى شارعنا. لن يتوقف الإعجاب بالبنات على أيام معدودات شأن الرحيل والعودة من الكعبة. بل صار الحج يوميا ببركاته وطقوسه. على هذا كانت المغفرة والاحترام. لم يكن الحديث يدور عليهن بالسوء. رغم أن أبلة أزهار زوجة الأستاذ ناصف أقسمت أن أباهم المأمور جاء إلى شارعنا متخفيا من أهوال مافعله أثناء خدمته.

•••

البيت له طابع مملوكى فى سبيله إلى الإنقراض، بمشربيات جميلة وزجاج معشق فى خشب أرابيسك. كان مغلقا دائما. وإن فتح سترى واحدة من البنات تتحرك للحظة فى غير جلباب البيت. فى أيام الحر، كنا نرى خلسة من المشربية. وللحظات قليلة الست جمان فى قميص نصف كم وهى تروح عن نفسها بمروحة من القش الملون، بذراع بيضاء ممتلئة. وحين تزوجت الكبرى كانت عربة الرائد تأتى إلى شارعنا يقودها سائق لتوصيله وأحيانا بعسكرى مراسلة يحمل للست جمان لوازمها.

ولم يجرؤ واحد، رغم امتلاكها تليفون أن يطلب منها إجراء مكالمة أو أن يعرف رقمه السرى ليودعه سلاما إلى الأهل. ولم يقصدها بيت مثلنا لتسقيع زجاجة ماء رغم أنها بالطبع عندها ثلاجة.

البنات لا يخرجن معا خوفا من العين . هكذا قالت الست جمان ذات الشعر الأصفر ، وكان الشعر الأصفر دليلا آخر على أصلها التركى ، لكن بنت التراكوة كما تقول جدتى أصيلة، فمازال بإمكانها الزواج لكنها ترفض العرسان ، وترفض أن تتلون ملابسها أو ملابس بناتها .

كان أبوصلاح يأتى إلى شارعنا ويقف تحت بيتها صباح كل أربعاء، وعلى دقات كنيسة مار جرجس يسبها بأقبح الشتائم، كأنها ساحرة سحرته، وتظل المشربية مغلقة. قالوا إنه كان من كبار الأعيان وأحبها فباع من أجلها كل شىء، وقالوا إنه امتلك البيت لشهر واحد ثم باعه للمأمور. قال البعض مثل زوجة

الأستاذ ناصف أن عم أبو صلاح كان من كبار أعضاء الحزب الشيوعى السودانى وما إن وقعت عيناه على الساحرة حتى تبعها إلى مدينتنا ولم يعد إلى أهله.

لم نكن نعرف شيئا أكيدا. ولم يكن أبو صلاح عاقلا يمكن فهم تفاصيل الحكاية منه فهو عادة يحدث وجوها "اللهم احفظنا" غير مرئية. ينظر كل حين إلى المشربية التى يضج زجاجها بلون أصفر "المرة المفترية بنت التراكوة خربت بيتى." أحيانا يصرخ بصوت قوى كان يقتلع قلوبنا الصغيرة ونبكى على إثره من الخضة الكرباج. حانجورك ومالكيش يا جمان أفندينا غير الكرباج."

قبل أيام من رحيلها، قالت أم صفاء لجدتى "مش حتصدقى ياخالتى أم محمد؟ الدكتور جمال اتقدم لشاهيناز ورفضته." ردت جدتى فى غضب " هى فاكرة نفسها إيه. ... وهو جمال يتعيب؟"

كان الرفض غير متوقع. فأم جمال سكرة البيوت، تعمل فى شغل الإبرة فتصنع مفارش التريكو وصور الكانافاه الجميلة. رغم أن المرحوم أباه مات فى عز شبابه، أصبح الدكتور جمال هو أول أطباء شارعنا . كان ظهوره وهو ذاهب إلى الكلية حاملا البالطو الأبيض يتبعه دائما دعاء لأطفال البيوت أن تصبح مثل الدكتور. وبدأ فى دخول البيوت منذ عامه الأول فى الكلية وفى المرات القليلة التى يزورنا فيها الأطباء كان يرطن معهم بكلمات انجليزية. ولما عمل فى المستشفى العام كان قبلة أهل البيوت. حين تقدم لخطبة شاهيناز أخت أشجان. أصاب ذلك أم صفاء بالقهرة. كان لأهل البيوت رأى آخر فهو ابن أم جمال قد خضع لسلطان التراكوة وكأن التقدم لفتاة شعرها أصفر جريمة حطت من قدره. وشاركها الرأى حتى البيوت التى لم تطمع فيه عريسا ، لكن الأستاذ ناصف صديق المرحوم والده زاره — وهذا حدث خارق — ولامه على ذلك التصرف. أما رفض الخطبة فلقد أحدث جدلا سياسيا واسعا ، فلقد قالت أم صفاء أن بنت التراكوة وأمها جمان أفندينا مازالتا تعتقدان فى أيام الترك ،واستشهدت بحكاية التركى الذى لما افتقر نفح عليه العرق الأزرق، فاشترى قللا ووقف يتحكم فى الشاربين "سيب دى ...واشرب من دى."

وأمنت على كلامها جدتى "آخرة خدمة الغز علقة."

كان الرفض لأسباب مادية فصحيح أن الدكتور جدع حليوة وأبيض، خجول ومتدين، لكنه لايزال فى بدء حياته ولم يمتلك بعد عيادة. وعندما تزوجت شاهيناز بذلك الرائد الذى كان يزورها والمسدس معلق على جنبه. رحل الدكتور جمال إلى السعودية أما أشجان فكانت من نصيب الباشمهندس.

•••

كان أبوه وكيلا لوزارة الرى، مهندسا فى السد العالى، وهذا لم نره قبل الحرب. يسكن فى العمارة المواجهة لشارعنا أمام مخازن الجمل. السكن فى فى عمارة من سبعة أدوار بكل دور شقتين وعلى ناصية الشارع، شىء أقرب ببيت الجبلاوى (إذا كنتم قد قرأتم أولاد حارتنا.)

بالتأكيد، كان ينتظر معها مرور تاكسى للذهاب إلى الجامعة. كانت البنديرة ثمانية قروش وكان كل خمسة طلبة يدفعون بريزة. يحدث هذا على سبيل التوفير وحسن استغلال الظروف من جانب سائق التاكسى.

ترى !هل اقترب منها وتشمم عطرها. هل امتصه اللون الأسود الذى يؤطر وجهها الأبيض، فتردد ألف مرة قبل أن يقول لها صباح الخير؟ أم كان أكثر جراة فأخبرها أن عيونها يحج إليها قلبه والعصافير. هل قال لها لا تقتربى منى كثيرا كى أستطيع التنفس؟

الله أعلم. لكننا نعلم أن جاء يوما إلى شارعنا ووقف تحت عامود النور المواجه للمشربية فى انتظار طلتها، ولم يستغرق الكثير حتى صاحب شبان البيوت. وبدأ يقودنا إلى انتصارات لا تنفض. وصار له معجبون كبار فأبى نفسه صار يطلب كوب الشاى فى الشرفة ليرى الواد خالد وهو يلعب يوميا ساعة العصارى، لكنه بعد أول مباراة قال الباشمهندس وهو لقب اقترن بمهارته فى لعب الكرة .

وبدأت الفرق تزور شارعنا من عزبة الشحاتين وعزبة عقل وكفر البدماص، ومعهم لاعبون كبار بدءا من أيمن بلية وعلى العسال وأحمد عدس، حتى سعد سليط لاعب المنتخب الذى خسر فى شارعنا مباراة بعشرة جنيهات كاملة فى صباح العيد.

بدافع من حبنا لخالد صار فريقنا لا ينهزم. ورغم صياح البعض أن اللعب على فلوس حرام مابعده حرام، إلا أن المكسب كان يغرى شرفات البيوت، وما يكاد الحكم يطلق صافرة النهاية ويمنح النقود لعنتر كابتن الفريق حتى تشعر كل الشرفات بامتلاء جيوبها. لم يكن مهندسنا يحب اللعب خارج الشارع، حيث تحدث الهزائم غالبا، أما تحت بيت أشجان فكانت مهارته فى الترقيص تحمو وتفور. فى ذلك الملعب، تماما تحت مشربيتها، يغدو مستحيلا انتزاع الكرة من قدمه. كان السبيل إلى ذلك ركله بشدة فتشهق الشرفات ويسقط متلويا، لكنه إن نظر بطرف عينه ورأى خيالا خلف الزجاج الأصفر، تحامل على نفسه وقام. بروح رياضية كانت تمنع حدوث اشتباك، يستأنف اللعب بأسرع ما يمكن، ونهتف له "لاعصر لاعصر" فيقول بذكاء لعنتر "أنا اتعورت شيل الماتش بدالى".

وجرت النقود الفضية والورقية فى جيب أبناء النسيرى هذا غير زهوهم بالباشمهندس. بعد اللعب كان يطلب كوبا من الماء، وفى مرة جرى له أخوها الصغير "عاصم القرن" بدورق ماء مثلج رغم صياح أمه لكن خالد شكرها فى جرأة.

كان حديثه ممتعا، فهو يحكى عن السد العالى وأسوان والنوبة. عن سفره فى البعثة مع أبيه إلى روسيا وعن الجامعة. كانت الست أم عنتر تنزل بجلالة قدرها تحمل لهم شاى المساء. وعلى غير العادة لم يكن مجلس الباشمهندس يحتمل كلمة نابية، بل أورث الفريق أدبه فهو ينادى سيدات شارعنا بأبلة ومدام، وإن ارتفع صوتهم وخرج واحد من الشرفة شاكيا كان يعتذر فى أدب ويتراجع "عمو" محرجا.

وبالتأكيد كانت أشجان تذاكر دائما فى مشربيتها وتبتسم للباشمهندس.

ورضينا أن ترتفع قروننا راضية هذا الغريب. فلم يعد الأمر يخفى على البيوت ح
تراه يستأذن منصرفا متعجلا فور خروجها من الشارع ليتبعها. بل صار ذا
يقابل الآن بالتغاضي وغض البصر. وأخيرا فتحت النافذة على مصراعيها هك
عيني عينك. إلا في لحظات الهجوم المفاجيء لأفندينا، بعدها نسمع صفق النافذة فو
عنف على قلب مهندسنا. لكنه في حل سياسي بارع صار لا يبخل على أخيها
عاصم بدقائق لعب حتى في المباريات الحساسة لتنفتح النافذة. وكنت أندهش
وأخبر أبي أن عاصم لاعب " سكة " وقد ننهزم. فيبتسم وهو يقول "لجل الورد ..."
لكنني كنت أهتف له من الشرفة آملا ان يصله صوتي فيسمعني مثل المحظوظين من
الأولاد الذين يشجعونه من الملعب، وأتمنى أن أسابقهم لأجلب له الكرة أو أن ألقي
طوبة على حارس المرمى المنافس. فأنا لا أقل عنهم نخوة وتضحية في سبيل خالد
والبيوت ...وأرفع صوتي معهم "ياباشمهندز هندز هندز."

***

كان رمضان في ذلك العام مختلفا. أولا صارت لنا دورة رمضانية واسمها دورة
شارع البياع وهو الاسم الحقيقي لشارعنا. فلقد كنسوا الشارع ورشوه وجاءوا بالجير
لتخطيطه، وأجروا عوارض وشباك من عم محمود الفلسطيني. هذا غير تطوع
الفريق بتزيين الشارع بأوراق الجلاد الملونة والفوانيس الورقية. ومر الباشمهندس
بنفسه في أدب شديد على البيوت يطلب عشرة قروش أو ربع جنيه. طبعا كانت
فرصة ليدق باب أشجان. وحين صعد إلى شرفتنا لتعليق الزينة، كنت سعيدا
سعادة من قابل أبا زيد وقلت له مثبتا أنني أتابع مبارياته " ازاى ماتتخانقش مع
الحكم دى الكورة كانت بنالتي." ورغم أنه مسح على رأسي، وهو تصرف صار
يضايقني، إلا أنني كنت سعيدا بهذه اللمسة وكأن وليا قد زارنا، بل أحسست من
يومها أن سحره ومهارته في الترقيص قد سريا في قدمي اليسرى. لقد صرت لاعب
كرة وأشول الساق مثله لأنني تعمدت ببركته.

كانت أوامر جدتي ألا أنزل وأن أتابع المباراة دائما من شرفتنا أو من

شباكها . بل أنها رغم رجاءاتى ودموعى رفضت أن أنزل الشارع بعد حصولنا على كأس الدورة الرمضانية لأسير معهم وهم يحملونه على الأعناق ويطوفون الشارع فى زفة مابعدها زفة .

فى اليوم التالى، كنت اتلكأ فى سيرى ربما نادى على. ألم يعرف اسمى؟وفعلا قال " إزيك يا أشرف؟" وحين قالت له جدتى" عايز يبقى دكتور." قلت "لأ عايز أبقى لعيب زيك."

- انت مش شاطر فى المدرسة ؟

- أنا النهارده جبت خمسين فى الإنجليزى.

- انت بتعرف انجليزى؟

أوقفت جدتى وأخرجت كتاب الإنجليزية، جلست على الرصيف متحمسا ورحت أقرأ أمامه ، وكأننى أقرأ أمام مولانا ، فى حين كان أبناء النسيرى ينظرون ناحيتى وأنا أقرأ الحروف وكأننى معجزة رمضانية . ولما قبلنى ، صرت فخورا ومازلت بهذه القبلة، ونظرت إلى جدتى باشمئناط قائلا :" شفت بقى ياست نينة. أمال فاكرانى عيل؟

•••

بتحريض من الست جمان، أرسل السيد الرائد البوكس وكدس فيه أبناء النسيرى والباشمهندس. وطارت الأنباء إلى أحمد بيه الذى نزل بالروب وأوقف البوكس، وقالوا والله أعلم أنه صاح فى الصول:

- انت واخد ابنى على فين ..هو عمل إيه؟

- ازعاج للناس .

وقالوا والله أعلم –وهذه واسعة – أنه رد عليه قائلا :

- نـاس مـين ياكلـب ؟ قـول لى اسـم اللـى اشـتكى وورينـى اذن النيابة.

اهتزت شنبات الصول وارتجف قائلا :

- نيابة إيه ياسعادة البيه ؟ أنا عبـد المأمور . ريـاض بيـه قـال لى ألمهم.

وصرخ البيه ذو السوالف البيضاء :

- ياعلاء اطلب لى مدير الأمن على التليفون .

وتطوع أولاد الحلال بإفهام الصول المسكين أنه يحدث أحمد بيـه الأعصـر وابنـه علاء المحامى ، بل زادوا أنه ابن خال وزيـر الداخليـة خـبط لـزق، وزاد تجمهـر النـاس مأخوذين بجرأة البيه، وهو ينادى صائحا باسم ابنته العروسة وهـو أمـر غـير معمـول به فى شارعنا.

- ياسهير اطلبـى لى المحـافظ علـى التليفـون . قـولى لـه أحمـد بيـه مستنيك فى الشارع عشان تقبض على ابنه.

- ياسعادة البيه أكيد الموضوع فيه غلط . أصل ولامؤاخذه الناس اشتكت .

وصاح الواقفون :

- ماحدش اشتكى.

- أمال بتقبض على ابنى كأنه مجرم ليه؟ عشان لعب كورة . طيـب نستنى مدير الأمن لما ييجى ويفهمنى هى الكـورة بقـت ضـد سياسـة البلـد ولا إيه ؟

ولم يأت مدير الأمن بل جاء بوكس آخر، نزل منه ضابط معتذر.

وعاد خالد وبقية الفريق وسط عاصفة من التصفيق. ويبدو أن جمان أفندينا قد عرفت قدره جيدا ، فتركت النافذة مفتوحة. وفى ثالث أيام العيد سمعنا الزغاريد وعرفنا أن خالد قد قرأ فاتحة أشجان. كان الأمر مجرد دبلة فضية. وعلقت جدتى أن الموضوع لعب عيال فالبيه اكتفى بقراءة فاتحة. لكنها لم تعرف أن خالد ار فى شارعنا مثل عبد الناصر، فلقد ساوى بين أشجان وصفاء وبط . وأمها التى ضت دكتورنا، رضخت وقبلت مهندسنا .

اليوم مرض أبى، وجاء الشيخ حامد لزيارتنا، فلقد انقطع حسن عن صلاتى المغرب والعشاء. وبعد أن عرضوا عليه، بمناسبة الخطوة العزيزة، الدانات التى جعلها أبى مزهريات، وكذلك لوحاته المحتشمة ، عرضونى عليه بالطبع. قال أبى وهو يضع يده فوق رأسى "أشرف يحفظ القرآن ورايح القبول." سقط قلبى لكننى تداركت بسرعة "أقرأ من سورة البقرة؟"

كنت أعرف سطوة السورة وهى التى تقارب أجزاء ثلاثة، لكننى كنت أواظب على قراءتها يوم الجمعة لطرد الشياطين. وكنت أتلذذ دائما بسحرهاروت وماروت ومايعلمان من أحد ... استزادنى الشيخ حتى قطع نفسى. سألنى فى الحركات والغنة وتقاطع الوقف والوصل فى أول السورة حتى قال فى النهاية: " ماشاء الله".

كنت فى سنة خامسة، وشأن كل البيوت كانوا يعدوننى لأم المعارك وهى الشهادة الإبتدائية.وتطوع أن يختبرنى فى الإملاء. جريت سعيدا بهروبى من الآيات فأنا شاطر فى الإملاء. وما إن جلست حتى أملانى تلك الكلمات الملعونة " تلألأت كلؤلؤة متلألئة فلاءت لألأة تتلألأ." ويحمد من الله وفضل تلألأت فى لاءاته ورسبت. نظر لى أبى مغيظا وشرق بعصير الليمون ، فاجتاحته نوبة سعال عنيفة. نظرت له أمى نظرة ذات مغزى، فلقد رفض أن يأتينى بمدرس فى اللغة العربية، وقال فى فخر: "لاخوف عليه ومعه القرآن." هكذا كان الأستاذ إسماعيل درويش يحتكرنى يوميا متابعا أداء عشرات مسائل الحساب، وهو يحكى عن بيارة البرتقال التى تركها فى يافا. لكننى حين سمعت للشيخ موضوعات التعبير الجاهزة، لم يندهش مثل أبلة خلود بل قال متعجبا: "كيف لا يستشهد بالقرآن؟" ولفت نظر حسن أن افتتاح

الموضوع بقل اعملوا بهو بركة وحصن ضد القلم الأحمر، وقال مؤكدا إن تلميذه القديم عبده فلتس (أبونا بطرس حاليا) كان عملا بنصيحة الشيخ يكتب آيات من القرآن فى كل مواضيع الإنشاء فهى تجبر المصححين على إكرام الورقة. كان الشيخ يجرع آخر قطرات الليمون البنزهيرى، حين جاءت أمى سامحها الله بفنجان من القهوة السادة ذات البن المحوج. وبدا أن الشيخ لن ينصرف فى ليلته حين قال: " القرآن والشعر يوسعان المدارك فماذا تحفظ من الشعر؟" وليتك تذكرت أن مايقوله أهل الحضرة هو من الشعر، كنا نسميه فى المدرسة أناشيد ومحفوظات. قلت باستسلام إننى لا أعرف. ومع رشفة جديدة من القهوة سألنى عن الفرق بين ظرفى الزمان والمكان. لم أجب، كنت قد درست الظرف منذ أيام معدودات ولم أراجعه منشغلا بموقعة أخرى مع يوسف، لكننى خفت أن أقول ذلك فباغته مهاجما "يعنى إيه ظرف؟"

هناك تصرفات غبية وأفعال منحوسة نتورط فيها أحيانا ولاندرى عواقبها، ثم نندم عليها حين لايجدى الندم. فلقد طلب الشيخ حامد كراسات العربى لأن الأستاذ متأخر جدا فى المنهج. وقال قبل أن يفتحها: "لكن ياحسن الولد عنده حب استطلاع، وده شيء جميل، واحد تانى كان قال ماأعرفش." كنت قد نسيت أننى نقلت الدرس وراء الأستاذ بطاطا، فكانت أول صفحة يفتحها هى الظرف. من عيون أمى تخيلت أنها قاتلتى لا محالة وبضمير مستريح. أما حسن فقد أمسك الكذاب من أذنه وأطبق عليها حتى دمعت عيناى ألما.

ورغم أن أعمامى بدأوا حياتهم فى المعاهد الدينية وفروا منها إلى التعليم العلمانى- رغم أنف جدى- إلا أنهم احتفظوا لأنفسهم بلقب "أزهريون". فى ذلك الوقت استغل أبى فرصة وجود عمى الموجه بالتربية والتعليم لحضور دورة تدريبية لعشرة أيام فى المنصورة، وقرر الاستعانة بخبرته، حيث عمل لخمس سنوات فى بعثة تعريب الجزائر وحين اطمأن على الجزائر مع بومدين عاد إلى مصر. كان الأستاذ الشربينى على عادة الريفيين يستيقظ بعد الفجر مباشرة ويوقظنى بابتسامة

تفيض بشرا وكأننا سنقوم برحلة مدرسية. فكنت أغادر الفراش فى برد طوبة برأس مترنح وأطراف تثلجت من صلاة الصبح لأمسك بكتاب النحو "الواضح" فتتراقص الحروف أمام عينى وأغالب التثاؤب وأنا أدعو على الفاعل. ورغم جهوده المكثفة فلقد قال لحسن وهو يحزم حقائبه "سيت أمبوسيبل ياأبو على!" ويبدو أن رطانتى كانت تتجاوز رطانة قبائل البربر.

•••

فى اليوم المعلوم، جلست فى بيجامة نظيفة ومكوية فى انتظار تشريف الشيخ حامد. كان أبى متحمسا، فلم يكن يظن أن الشيخ سيقبل. لكن الأستاذ كان قد أحيل إلى المعاش ووافق ليستعيد الزمن الجميل. وبعد صلاة المغرب قال الشيخ "انت ضعيف فى النحو ومش حتتعلم النحو إلا بالشعر. اسمع:" فى هذه اللحظة كانت أناشيد الطريقة تأتى من الحضرة "يارب إن عظمت ذنوبى كثرة" فقال:" اسمع واستطعم." ولم استطعم بل اندفعت مكملا" فلقد علمت بأن عفوك أعظم."

- بداية موفقة بإذن الله-سنحفظ الألفية قل معى:

كلامنا لفظ جميل كاستقم   اسم وفعل ثم حرف الكلم

ورددت ماكينة الحفظ الأبيات فى سرعة..وكأنما صار فى بيتنا عيد. فلقد جاء خالى مهنئا ونزل على أمى السلام وعلى أبى المسرة فقال: "ماشاء الله! بركاتك ياشخ حامد."

احتسى الشيخ حامد رشفة طويلة من القهوة وقال ممتعضا:" ماهكذا يكون الشعر!لو سمع ابن مالك ابنك لمات ألف مرة ياحسن." وعلى طريقة الأزهريين ترنم بالأبيات مرة أخرى مشددا على الميم، ثم صفق بيديه صفقة موزونة طارت ها مسبحته فى الهواء. وأتبعها بالشطر الثانى. اندفع حسن مرددا معه بنفس الطريقة وكأنه أحد مجاذيب الشيخ حسنين أوأتباع سيدى برهام، فلم أستطع رغم مجهوداتى

أن أكتم انفجارى بالضحك. واحمر وجه الشيخ. لكن ضحكى تعالى ودمعت عيناى. كان الشيخ مستدير الثنيات. أشبه بسنو مان فى كتاب الإنجليزى. كرة ثلجية كبيرة، تعلوها رأسه الأصلع كأخرى صغيرة. واتفق أن عرض يومها فيلم "اسماعيل ياسين فى مستشفى المجانين" وكان بالفيلم رجل بدين يقول له "لامؤاخذة يابنى أصل أنا عندى شعرة" فما إن سمعت منه "ها" حتى تخيلته بصاجات تصلصل. وتوقعت أن يقول لحظتها "ساعة تروح وساعة تيجى". صفعنى حسن وأغلق الشيخ أوراقه ووضع الكتاب. وأنقذ حسن من حرجه مكالمة تليفونية استطالها قدر الإمكان وابتلعت الأرض زينب.

اعتذرت للشيخ عارفا أن حسن لن يغفر لى. وأن علقة ساخنة فى انتظارى. وكما يقول سمنون المحب "ليست النائحة الثكلى كالمستأجرة"، كان لزاما على أن أعيش الدور ليرضى عنى الشيخ،فرحت أطوح رأسى ذات اليمين وذات الشمال فى حماس منقطع النظير. أضم شفتى بالميم "ميم المحبة المبذولة فى المحبوب وميم المقام الملازمة لذات المحب." ورحت أرسخها بالمجاهدة. واستمر الشيخ ينطق بالمحبة زهاء الساعة، حتى ارتفع آذان العشاء فختمنا حديثنا بالله أعظم. لكنه انصرف حبورا راضيا عن ماكينة الحفظ. ولم يشفع لى عند حسن صوتى العالى ولا تلك الجذبة الإلهية التى أصابتنى.

***

تطيرت بشيخى فلقد زارنا مرتين نلت خلالهما وبعدهما علقتين. وأثبتت الأيام أنها تخفى لى مصيبة اسمها "أنا البحر..." فسأحفظ أخوات كان وإن، وأنسى دائما تمييز العدد. ستحفظ لسنوات وحتى آخر العمر أبياتا من الألفية تطاردك ولا تعرف معناها

"وصغهما من ذى ثلاث صرفا   قابل فضل ثم غير ذى انتفا"

هذا غير الشعر بمناسبة وبغير مناسبة، ولطالما "خرج الحمار بأم عمر، فلا

رجعت ولا رجع الحمار." وامتلأت الكراسات بالأم مدرسة، وإذا الشعب يوما أراد الحياة.

لكن القيد لم ينكسر. فنظرا لساعات المسرة التى استبدت بحسن وهو يستمع إلى الألفية، معشوقته القديمة التى هى خير دليل على أن الحب أعمى. لم يعد أحد يلتفت إلى ما يقوله الشيخ.هل هو مقرر أم لا ؟ فكان إذا تحدث طربت له قناديل البيت وضيوف البيت، حتى عدلى أفندى كان إذا جاء لزيارتنا قال من الحجرة الأخرى "الله . . .الله ياشيخ حامد" وكان الأستاذ اسماعيل درويش ينتظر فى أناة أن يرفع آذان العشاء ويستزيد الشيخ قبل انصرافه قول الإمام على:

إن أخاك الصدق من كان معك	ومـــن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك	شتت فيك شمله ليجمعك

سيستغل الشيخ زهو أمك وإعجاب السامعين فيقول مباركا وهو يمسح على رأسك "ماشاء الله يحفظ أشياء أكبر من سنه يازينب." وسيكتب، لا أدرى هل لى أم للأخفش؟

الم الم الم الم بدائه	ان ان ان ان لى بدوائه

ثم يطلب من أن أقرأه بعد ضبط الشكل. لن يكتب سامحه الله همزة واحدة. سيتركك فى بحر الظلم والظلمات. أربعة آلام وأربعة أنات .إن أنت أصبت فسيقول بلهجة من نسى أو من لايعرف "أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى". ولو نسيت أن همزة إن بعد القول مكسورة فسيقول بحزن العرجى " أضاعونى وأى فتى أضاعوا !... أضعتنى يافتى. مش الست بتقول يقول الناس إنك خنت عهدى."وإن نسيت حالات اقتران جواب الشرط بالفاء، احمر وجهه غضبا، ولايسكنه إلا أن أتدارك فأردد محموما وكأن براد شاى يغلى فى رأسى"اسمية طلبية وبجامد وما وقد وللتعليل" ... ولعل ماكان ينقصك أن تقول جدتك "لخولة أطلال ببرقة ثهمد."

والبـديع كمـا يقـول أبـى إنـه لايبـدأ الـدرس إلا متأكـدا مـن صـلاتى للمغـرب، وقبـل انصرافه أقـوم لأتوضـأ بمـاء أمشيرى اسـتعدادا للعشـاء. والشـاهد أن أمـى اقتنعـت وحفظت قول الشافعى

شكوت إلى وكيع سوء حفظى　　　　فأرشدنى إلى ترك المعاصى

وأخبرنى بأن العلم نـــور　　　　ونور الله لايهدى لعاصـــى

ويبدو أن معاصى كانت أصعب مـن أن تنمحى، فلقـد حصلت فـى العربيـة على ٩١ من ١٠٠ لكن تلك كارثة أخرى سوف أحكيها فى وقت آخر.

عن داحس والغبراء

"كامل بيتخانق"

" ولاد النسيرى بيتخانقوا "

عبارتان نسمعهما كثيرا فى شارعنا ، فأجرى وورائى جدتى لأتابع الخناقة من الشباك، ما أن أقفز حتى أحس بيد جدتى تكتم اندفاعتى وتمسك بملابسى فى قوة وخوف، وزيادة فى التأكيد تحيط ظهرى بصدرها ، الذى تغرسه بقدر ما تستطيع فى ليونة جسدى.

أما خناقات كامل مع أبيه عم رمضان فكانت تثير الضحك. كنا قد استيقظنا على صوت انفجار هائل، فلقد ألقى بالتليفزيون الجديد ، الذى لم يستكمل أخوه دفع أقساطه من الدور الثالث، واندفع فى سب أبيه واتهمه بأنه حرامى ونصاب وحين اتهمه أبوه أنه ولد "خوَل" رد عليه كامل أنه "خول وعرص وابن قحبة وكمان راجل قليل الأدب ..."

كان مشهورا بالسرقة ، لكنه يعرف حدود الجيرة حتى الجار السابع. السابع فقط. أما أين يقع الجار السابع تحديدا فلم نكن نعرف. لكنه كان يحسب الأمور بطريقة مغايرة. على أية حال كان كامل يكن احتراما عميقا لجدتى رغم أن بيتنا لم يكن السابع أبدا .

سوف يأتى مطاردا ويلوذ بالدور الرابع الأخير فى بيتهم، وسيظل يصرخ ويسب الدين والملة. لن يستطيع الخصم الصعود إلى أعلى. أولا لأنه يغلق بوابة البيت والشقة بالترباس، ثانيا لأنه يدخل كل خناقة برغبة واضحة فى الهزيمة،

يراضونه بعدها بما فيه القسمة. يمكنني من الشباك أن أرى مشهدا ألفناه، وهو أن تغير عائلة بأكملها ومعها الأحباب من شارع غير شارعنا على بيتهم. رجال ونساء ومراهقات حفاة بل حتى مرضعات وأطفال يحملون نباهم ويصوبون على الزجاج بالبلى فنسمع صوت تكسر الزجاج حادا، كلهم يطلبون رأسه.

قد يتدخل أولاد الحلال وقد يتطوع جار مجهول بإبلاغ البوليس، لكن الأمور تنتهي بهروب الجميع وأوهم كامل لأنه هارب من التجنيد. ثم يكمن في مكان ما استعدادا لعلقة قادمة.

كان لسبب ما شديد الخجل أمام نساء البيوت، ولديه حياء غريبا أمام البنات فلا يناديهن إلا بأبلة ويخفض بصره عند مرورهن. لكن الحدث المشهور صادف مرور هالة، فلقد راهن ابن المحنكرة أن يسجل فيه بنالتي. ورغم أن كامل لم يلعب الكرة أبدا في شارعنا، وأن حمودة كان يستعد ليكون خليفة السطوحي حارس مرمى المنصورة، فلقد سدد كامل ومعه كل حظ المبتدئين. ونظرا لمرور هالة — وحمودة كان دائما عينه منها — ارتمى حمودة طائرا مثل فراشة مستعرضا مواهبه أمام عيني هالة. وجاءت الطوبة في المعطوبة فلقد أحرز الهدف. هل كانت الشمس في عينه؟ هل كانت هالة. أم النصيب الأغبر؟ لانعرف. لقد ارتمى في زاوية ودخلت الكرة في زاوية أخرى. صفق الواقفون هدف لا يشاهدونه إلا مع فاروق جعفر. وربت عليه البعض في سخرية قائلين "ما يقع إلا الشاطر" تحديدا لحظة مرور هالة بجانب جسده المكوم.

ورغم أن كامل خسر رهانات أكثر من شعر رأسه فلقد تمسك بحقه. وأقسم حين رفض حمودة الدفع ألا يشوط أي بنالتي، وراح يصرخ فيه "انت وجلال الله عيل" ورغم العلقة الساخنة، فلقد ظل يقسم بفمه المليء بالدم أن " حمودة ابن المحنكرة عيل..وجلال الله عيل." حملوه إلى بيته وهو يردد الجملة كالشهادتين. وظللنا نسمع الجملة نفسها ، متحشرجة وأخيرا مبحوحة لكنها لم تنقطع حتى المساء "حموده وجلال الله عيل."

فى الليل كانت همهماته لا تنقطع، فجاء حموده وبادله الشتائم من تحت بيته وحاول كسر باب البيت ، لكنه لم يقدر وظل يصرخ فى أصحابه ومن حضر من اخوته " سيبونى أنا حأوريه ... لو راجل انزل؟ انزل لى يابن ... "

وكامل يقسم بجلال الله أنه عيل بصوت لم نعد نميزه فهو مجرد هات متتابع . لكن الجملة لشدة ما تكررت، تخيلت البيوت حتى وإن توقف كامل عن الصراخ أنها تسمعها . وراح صوت حمودة يأتينا صاعدا من أسفل كالثور الهائج "لو راجل انزل."

لكن من نزل كان عنتر . وصل إلى بيت كامل فى الوقت الذى كانوا يدقون فيه على الباب الخشبى ذى الجنزير الحديد محاولين اقتلاعه . رغم توقعاتنا أن يهدئه عنتر ويعود به إلى شارعه فلقد صاح فيهم عنتر "جرى إيه ياعرص منك له؟ ورانا أشغال ومش عارفين ننام." صرخ حمودة وخرج من هدومه وزاد زعيقه حتى راح صوته وظل ينتفض ويخرج هو الآخر حشرجة غريبة " ...." ورد عنتر "ماكان قدامك يا روح أمك، جاى دلوقت تدوشنا ليه؟" ولأن المطواة فى يده ، فلقد استطال السلاح وشج وجه عنتر .

وتخيل ما حدث لم يكن متوقعا . فلقد تزفلط منهم فجأة حمودة، بعرقه الدهنى، كالقرموط وعاد إليهم بمصيبة. ودون أن يتحرك عنتر صرخ أولاد المحنكرة فى رعب أن عنتر سيقتل حمودة. وجاء بقية أولاد المحنكرة الحدادون عند سماع اسم عنتر مهرولين لإنقاذ من يمكن إنقاذه من أبناء المحنكرة. لكن بالسرعة نفسها طارت الأنباء إلى أولاد النسيرى.

النسيرى الكبير رحمه الله استشهد فى حرب العدوان الثلاثى، وترك لنا خمسة أبناء فوق رؤوس بعضهم البعض. الحاجة أمهم ذات كلمة مسموعة ومهابة غير عادية، فلقد كانت بيضاء بياضا شاهقا كالتراكوة. ودائما تصلصل أساورها حين تمشى. كانت تحافظ على صبغ شعرها بالحناء وترسم حاجبيها فى استدارة جميلة ذات خط نحيل تبرز عيونا كحيلة واسعة . لملابسها نظافة مباغتة تأسر العين وهى

تنسدل على جسدها الممتلئ دون خضوع لأعوامها التى قاربت الخمسين ولخمسة أولاد صنايعية. خمسة أولاد لا يخسرون خناقة واحدة . بل يكفى القول "ولاد النسيرى بيتخانقوا" حتى نسرع إلى النوافذ مستعدين لفرجة أكثر روعة من الحاوى والأراجوز.

أما عنتر فكانت شهرته بيننا نحن الصغار تفوق عنترة العبسى. جسده قصير عادى. لكن هوهوه . .إنه صاحب القول المأثور "حاموت عليك" وهى تعنى أنه إما قاتل أو قتيل، ويستميت بعدها أبناء النسيرى فى الموقعة .

إن تشاجر أحدهم، تطير الأخبار بسرعة البرق إلى بقية أبناء النسيرى فى ورشهم. فكنت ترى أولادا صغارا يسابقون بعضهم وكأنهم الحمام الزاجل لنقل الخبر. بينما تصرخ امرأة على الحاجة، وفى نفس التوقيت ستجد الأبناء الخمسة ومعهم بعض المريدين قد عادوا، يسبقهم أطفال الشارع الذين يسارعون إلى الأركان متخذين مواقع عالية، وكعصافير مبتلة بالعرق يلتقطون أنفاسهم ليتابعوا المعركة.

عنتر إن فتح مطواته فلن تعود إلا بالدم. لن يهدئهم أحد، وسيلتزم أبناء النسيرى مبدأ "حاموت عليك" فيمكننا أن نرى رأس أحدهم غارقا فى الدم، لكن قدمه ثابتة فى الأرض بجوار اخوته. يتحركون فى كتلة واحدة إلى الأمام. السنج حقيقية والسيوف حقيقة. ستسمع صوتا حقيقيا لكل بوكس فتشعر فورا بتنميل فى عظام وجهك كأن القبضة تدق وجهك أنت. ستحس غصة حين تتشدق مطواة، ويشحذها الهواء قبل أن تعود بالدم. ودم آخر لزج قاتم ملتصق بتراب الشارع. ستجفل من صفق الشبابيك برعب فى المنازل التى تلامس المعركة. ولن ينقطع صراخ حاد، وحقيقى أيضا، ذو نغمة ملتاعة مستغيثة "ياهوى ... ياخرابى ..سترك يارب."

وحين تسمع فى شارعنا سارينة البوكس، لن يهرب أبطال النسيرى.

سيحمل أولاد الحلال عنهم المطاوى ويختفون فى لمح البصر. بينما يظلون هم فى الشارع، وتهرول الحاجة لإحضار البطاقات الشخصية. سيركبون البوكس وسيعودون منتصرين مع زغاريد أمهم وحبيباتها. أى صول هذا بل أى مأمور يعرف أن أباهم الرقيب أول شرطة الشهيد محمد محمد النسيرى الذى استشهد فى بورسعيد ٥٦ ويحتجزهم أكثر من عدة ساعات، بعد تحقيق روتينى ينتهى على أنهم "ضربهم ولاد حرام وهربوا"؟

• • •

ليلتها ظن أهل الشارع أن المولد قد انفض. فلقد نال أولاد المحنكرة ما يستحقون وسالت دماؤهم، وحملوا بعضهم البعض وعادوا إلى شارعهم. وبقى كامل فى الدور الرابع مهمهما بصوت لا يكاد يسمع "حموده ابن المحنكرة ..." ويردد الأولاد تحت البيت "... وجلال الله عيل." كنا نعرف أن أبناء المحنكرة لن يفكروا فى العودة إلى شارعنا. وحين خانه صوته، تطوع الأولاد وأنا معهم من الشباك بترديد ..." وجلال الله عيل."

لكن من أجل عيون هالة قاد حموده وذراعه فى الجبس، ونصف وجهه مغطى بالبلاستر من أثر مطواة عنتر هجوما انتحاريا. خلعوا فيه الباب من مفصلاته، وصعدوا إلى كامل.وكان صوت تكسير العفش يصل إلينا، وكذلك صويت أم كامل.

أخيرا خرج كامل من البيت ببطنه المبقور غارقا فى الدم وأكد شهود ثقات أنه كان بالإمكان رؤية أحشاءه. صاح متحشرجا كأنه فى حشرجة الموت "... وجلال الله عيل" ظل حموده يركله وهو واقع على الأرض. استدعى أولاد الحلال البوليس وقال الشيخ عبد العزيز " رب لا أسألك رد القضاء ..." امتلأ الجو برائحة خانقة من سحابة نشادر قادمة من مصنع السماد فى طلخا، وكان صوت أهل الطريقة خفيضا ليلتها وكأنه يستنزل الرحمة واللطف الربانى "بالأسماء المكتوبة فى جبهة سيدنا إسرافيل وفى جبهة سيدنا جبريل."

فى الصباح، عاد أولاد النسيرى من القسم بغير زفة، وسيطر حزن عميق وغيظ من هذه الخسة على البيوت، وطارت الأخبار إلى الأحباب ولم يصعد أبناء النسيرى إلى أمهم بل قادوا حربا باركتها البيوت جميعا، وكان يمكننا رغم البعد سماع الصراخ والمطاوى. وكان خيالى يشحذه تخيل مايحدث هناك فى أرض السندباد. لكن عودة أبناء النسيرى كان صدمة لنا. مثل كل الجيوش الحقيقية التى لا تقنع بنصف انتصار عادوا يترنحون ويغطيهم الدم. وعرفنا من الصويت الذى لم ينقطع من الشارع الآخر، حتى آخر الليل، أن اليوم يومنا بالتأكيد.

وبعد ثلاثة أيام وقف كامل يلوح بزجاجة بيرة فارغة من الشرفة. فلقد أخفوه فى برميل فوق السطح حتى رحيل البوليس. لم يكن يستطيع النطق فكان الأولاد يرددون عنه فرحين أن ردت إليه الروح "حمودة ابن المحنكرة. والله العظيم، وجلال الله ...عيل."

بلا جدوى، حاول الكبار التدخل مثل عم سعد وعم ناجى شطيفة وعم منير فانوس بل حتى عم خليل المخبر. فصحيح أن أبناء النسيرى قد عادوا، لكن مشهد شارعنا فى صبيحة اليوم التالى كان أشبه بمخيم جرحى الحرب. لم يذهبوا إلى العمل وكذلك الأحباب الجرحى، بل جاء مدد كثير أحباب آخرون. راحت المطاوى تلعب فى أيديهم، بينما كانت الحاجة تتابعهم من البلكونة فقط بنظرات صامتة لا تخفى قلقها. استجمع كامل قوته وقال أخيرا كلمته عالية حتى أمكننا أن نسمعها "حمودة وجلال الله ..." وارتج الشارع بكلمة"عيل" وتبادل معه عنتر وأبناء النسيرى نظرة مباركة ومشجعة.

وبعد أيام نزل كامل إلى الشارع وأفلح -لاندرى كيف؟- فى اصطياد عرسة وراح يردد "حمودة أهه" ويردد الأطفال "أهه أهه" وصاح عنتر دون غضب حقيقى :

- دماغك بقى هو جواز عنزيس من فؤادة ؟

- فيه راجل يرجع فى كلامه ؟ يبقى إيه؟ مرة والله العظيم مرة . الراجل

يتربط من لسانه.

- بس هو مربوط من حته تانية .

وضحك الجميع فقال كامل :

- ياعنتر انت إبن حتتى . تدينى على دماغى حقك . عشان راجل . لكن يرضيك ابن حتتك يتميز فى العشرة جنيه . قول الحق . انت جدع وحتقول الحق . حقى ولا مش حقى؟

ورد عنتر يائسا :

- حقك.

- يبقى مافيش صلح ولا كلام، إلا لو ولاد المحنكرة دفعوا العشرة جنيه.

وأقسم أنه عمل محضرا فى القسم ولن يتنازل. كان المحضر كما قالت جدتى يعنى أنه سيذهب إلى التجنيد، لذا لم يصدقه أحد وعاد إلى عرسته صائحا "حمودة أهه." وكنت أصرخ من الشباك رغم زعيق جدتى " أهه أهه..."

• • •

للأسف تم الصلح. فى وقت كان أبعد ما يكون عن تفكيرنا. فلقد حدثت مناوشة جانبية انتظر فيها البلتاجى فى الظلام عودة النسيرى الصغير، وهاجمه بمطواة. رغم إصابته، أمسك النسيرى به ومزق ظهره بالمطواة نفسها وهو يحاول الفرار. قالوا إن النسيرى تركه يعود إلى أهله زاحفا، وأن الطبيب خيطه باثنتين وثلاثين غرزة. ارتفع هذا الرقم فى الصباح إلى اثنتين وثمانين، وبدا واضحا أن الموت يترصد بالجانبين فالبلتاجى أصيب بعاهة مستديمة لن يستطيع بعدها العمل، وينام ممددا على بطنه فى المستشفى كنومة أهل النار. لم يخل الخبر من تأثير سىء على كل البيوت فالبلتاجى عريس جديد وزوجته على وشك الوضع. كنا نسمع صراخها

البعيد ونتخيل عيونها وهى تصرخ أن ابنها تيتم قبل مولده وأنه ليس وراءها من رجال. حين وضعت، كان الصراخ أعنف وهم يحملون الولد إلى أبيه فى المستشفى الذى بكى أمر من النسوان. ووصلت تلك الأنباء إلى شارعنا فتلقيناها بمزيد من الحزن. أما عنتر فلقد حبس النسيرى فى مكان لايعرفه الجن، وصار أربعة أبناء النسيرى لايتحركون إلا سويا. أربعة فقط الآن. وكانت عيون الحاجة من البلكونة تفتقد خامسهم.

فلما كان يوم السبوع، ذهب عنتر بمفرده ودخل شارعهم . ويمكن بالطبع تخيل الموسيقى التصويرية للمشهد والصمت الذى حل ببيوتهم وبأولاد المحنكرة الذين توقفوا عن دق الحديد ....وتقدم عنتر وألقى السلام على أدهم كبيرهم، وتطوع أولاد الحرام فسدوا عليه طريق الرجوع. خرج كل أولاد المحنكرة، بل منهم من نزل بالفانلة واللباس، ليكون له نصيب من الفتك به. وشهرت المطاوى قرن الغزال ولم ينبس صبى واحد من صبيانهم. قال عنتر :

- السلام لله ياادهم . واجب ترده .

- لاسلام ولا كلام يا ولاد الشرموطة .

وبالطبع لم نصدق أن عنتر سمع هذه الكلمة عن الحاجة ولم يقتله. لكنهم قالوا -والله اعلم- أن ذلك ماحدث. وحين شهرت المطاوى جلس عنتر براحته على أقرب كرسى ثم أشعل سيجارة فلوريدا بكبريت اهلب ،وقال وقتها أولاد الحلال من شرفات بيوتهم:

- اللى بينكم . بينكم وبين نسيرى.

ورفع أدهم مطرقته الكبيرة قائلا :

- جيت لقضاك.

لكنه، عنتر ، نفخ دخانه فى هدوء وقال :

- أنا جاى أراضيا.

وأمسك به أدهم من قفاه وقال :

- وحياة أمك ؟ لأعلقك هناهه.

لكن يد عنترنا الفولاذية أمسكت به، ونظر فى عينيه وقال :

- اختار اللى يعجبك. ياتقتلنى، يااقتلك، يالك عندى حق عرب.

المطاوى لم تتقدم لأكثر من ذلك. لقد جاء إلى موته لكنه قبل أن يموت سيموت لا محالة على قتيل. كانت الشمس واضحة وتصفع الجميع فى الشارع والشرفات، وبيوتنا غير بعيدة، الهروب من عنتر لن يكون إلا بقتله؛ فعنتر لا يصد هجمات. إنه يموت على من يمسك به، وقاتل عنتر هو قتيل أبناء النسيرى الفورى ولن تنفعه مجدعة. أمام هذه العيون الشيطانية صاح أكثر من صوت:

- اخزى الشيطان ياأدهم وصلى على النبى ده جاى يراضيك.

وارتفعت أصوات محنكرية بعيدة، حريصة أن تستجيب لأقل جذبة وتتراخى. ولم تهرع يد لجذب يد عنتر من على رقبة أدهم الذى صاح فى أشباه الرجال وكأنه يريد أن يغيثوه :

- جرى لكم إيه ياخولات ؟

وتركه عنتر قائلا :

- تحت أمرك ياادهم اللى تحكم بيه .

وأخرج أدهم مطواته فلم يهتز لعنترنا رمش. وأمسك أولاد الحلال بأدهم وقالوا :

- استهدى بالله ياادهم ليك حق عرب .

- حق إيه؟... والجدع النايم فى المستشفى وحاله واقف لاشغلة ولامشغلة . وابنه اللى سبوعه النهارده ومش عارف يشيله . أقول إيه لمراته اللى بتندب جنبه فى المستشفى؟

- ميت جنيه لمراته لحد ربنا ماياخد بيده . وابنه ابننا سبوعه علينا .

- تشهد الرجالة؟

واقترب ذوو المطاوى من المفاوضات ، فنفخ عنتر صدره وهو ينظر فى عيون حمودة:

- مش شايف راجل غيرك ياادهم .

استأنست المطاوى ببعضها ، فتحت أخرى جديدة، وضيقوا الخناق على عنترنا ليصبح صوتها أوضح فى أذنيه، وانتظر عنتر أعلى خيلهم ... وأخيرا قال مبتسما :

- ابعت هات لى كباية شاى.

وأخرج من محفظته عشر ورقات حمراء .

تم الصلح فى الجامع، وخطب مولانا الشيخ عبد العزيز خطبة طويلة لم يفهم منها أحد سوى أن الصلح خير . وبالتأكيد لم يفهمها لا أبناء النسيرى ولا أولاد المحنكرة، وأخذ الشيخ علبة سجائر عنتر الروثمان وأشعلها بولاعة أدهم مقسما بالله أنها "ماهى راجعة" وذهب أولاد النسيرى الخمسة وأمهم إلى السبوع.

• • •

وصرخ كامل من الشرفة :

- تبيعنى يا عنتر. اشهدوا ياناس عنتر باعنى ... باعنى ياشيخ عبد العزيز، باعنى ياخواجة منير.

عرفت بما حدث من جدتى، وفشل أبى فى إقناعى أن الرهان حرام. بعد كل هذا الدم كانت الجنيهات العشرة من حق كامل. وكان وقت عودتهم معا من المسجد فصاح كامل :

- مافيش فيكم راجل . لو فيكم راجل كان رجع لى فلوسى.

ونزل كامل فألقى بنفسه على أول من رآه من أولاد المحنكرة. وسمعنا له صرخة هائلة. أوسعوه ضربا، فى الوقت الذى كان فيه أبناء النسيرى يمنعون بتراخ تلك الأيدى التى ألقته على الأرض، وانصرف أبناء النسيرى مع الحلفاء الجدد مهدئين من روعهم وأوصلوهم إلى شارعهم .

هكذا صار كامل قضية منسية، وظل ملقى على الأرض حتى نزل له عم سعد بعد أن استدعى الإسعاف؛ فلقد انفكت الخياطة من بطنه.

ظلت الأمور هادئة لأيام ..حتى سمعنا جملته المحفوظة فرجوت جدتى أن نترك الفراش لنتابع ما يحدث. كالعادة رضخت بعد أن مسحت وجهى بالماء، ورجتنى أن أشرب رشفة كى لا أصاب بالبرد. هذه المرة لم يكن فى الشرفة. كان عاريا كيوم ولدته أم كامل. لف ملابسه على خشبة أغرقها بالسبرتو وأشعل فيها النار بينما أمسك فى اليد الأخرى بسكين مطبخ.

- لو فيكم راجل يرجع لى العشرة جنيه. حتى ولا لأ ياعنتر؟

- ميزوك فى العشرة جنيه ياعنتر؟

وبقيت البيوت على صمتها، فقط همهمت أصوات غير محددة، وتقريبا

مختفية فى الظلام أو من وراء الشرفات، أن عنتر لم يكن رجلا حين ضحى بكامل من أجل أخيه، ونسى أن له حق.

وكأنما أرسلت السماء، فى تلك اللحظة، وفى ليلة الغراب الأسود -كما يقول أهل الطريقة- المرشدى أحد أولاد المحنكرة. كان عائدا يتطوح من السكر والبرشام فصاح كامل ملوحا بالسكين والنار:

- ارمى العشرة جنيه.

ولدهشتنا وجد فى المحفظة الملقاة عشرة جنيهات

- حقى العشرة جنيه بس.

تطايرت الأنباء ، فجاء أولاد المحنكرة إلى الشارع مرة أخرى، لكن كامل صرخ فيهم، وكانت عيونه عيون ابن موت قائلا:

- حقى واللى حيقرب منى حأشرحه.

كان نوم عنتر ثقيلا تلك الليلة، وخاف أولاد المحنكرة من افتعال خناقة ثالثة. فالتالتة تابته، وأضعفتهم المطاوى السابقة فلم يتقدم أحد من دائرة النار التى تحيط بذراع كامل ويلمع على ضوئها السكين. تسلل أحدهم وجاء بعسكرى دورية، ونزل عم خليل المخبر محرجا ولاعنا سلسفيل كامل ،لكنهم حين اقتربوا لم يرتدع كامل بل هجم عليهم . ألقى العسكرى عليه بدراجته وهو مندفع ناحيته فتكعبل وسقط. وظلت العشرة جنيهات فى فمه، بين أسنانه. سحلوه فى ظلام الشارع وهو يردد حشرجات يائسة ومستسلمة: "سيبونى مخبى مسدس فى محاشمى." لكنه صرخ فجأة بكل قوته فى المخبر والعسكرى وأولاد المحنكرة "حينط حينط"

فأسرعوا بعيدا عنه فى فزع وشعفة، لكنهم فجأة استدركوا، وعادوا ليسحلونه من جديد.

واختفى كامل طويلا . وكان الأولاد فى شارعنا يقلدونه وهو يقول "حينط حينط" أخيرا عاد برأس حليق وهو يرتدى زى التجنيد . وجريت أخبر جدتى أن كامل قد عاد وقلدته قائلا : "حينط حينط" ضحكت جدتى حتى دمعت ثم نهرتنى بشدة على ذلك لأنه عيب.

• • •

لم يعد يخرج من السجن إلا لماما . وفى إحدى فترات إقامته القصيرة فى شارعنا فوجئنا ذات صباح أنه كنس أمام بيته وافتتح "المشروع القومى لتحسين الفول" بخط طفولى مضحك، وعرفنا أن ربنا هداه وتزوج؛ فلقد وقفت بجانب قدرة الفول فتاة ذات ملامح مسكينة منكسرة.

وكنت أراه بنظرة حزينة بحق ترجو العابرين شراء فوله، وحين يتجاوزون قدرته، كان يغيد وجهه إلى القدرة حزينا مهزوما . وبعد أيام تجرأ فصاح فى النساء اللاتى طالما أخجلنه "يعنى مش كنت تنفعينا يا أبلة؟! ..ماهو ده فول وده فول!" قال البعض إن فوله مسوس، لكن أمى قالت إنه غلبان وأرسلتنى لشراء بقرش فول كان من نصيب فراخ أم محمد . فى المساء كنا نسمع خناقه مع زوجته وصراخها حين يضربها ، ثم صراخه من الشرفة، فى وجه الشرفات المغلقة:

- أنا عارف إيه اللى بريحكم إنى أخش السجن ومراتى تبقى شرموطة.

وكان صوت عم تحسين مسموعا وهو يقول فى الظلام "سبحانه منع فأعطى وأعطى فمنع."

هل هى ذكرى الجنيهات العشرة المنحوسة التى أخافتنا؟ أم أنه ليس له فى الصنعة لينافس عم إبراهيم بفول مسوس؟

لكن منظره فى الصباح كان يوجع قلب طفل صغير فى طريقه للذهاب إلى المدرسة. آه من هذا المثابر! شتاء بأكمله وهو من النجمة يكنس الشارع وينثر

بشارة الخشب إن سقط المطر. وتحت التندة الصفيح التى أقامها، كانت تقف زوجته وقد امتلأ بطنها تشعل النار تحت صفائح السمن التى أعطاها لها عم غنيم لتحصل على بقايا سمن، ولتصنع بالفوارغ تندة أخرى لقدرتهما.

متدثرا بهلاهيلة وفى بيادة الجيش سينادى راجيا " لوز ..طازة يافول." ثم يعود إلى غفوته. جريت ووضعت قرشا فى الطبق الصاج فأحدث صوتا. كان القرش الوحيد. أمسك بى فمت من الرعب لكنه قال بوجه غضنه النوم: "انت ابن خالتى أم محمد ...؟" وأعاد القرش إلى جيبى.

لم اكره أبدا البيوت ولا أهل البيوت. فلماذا لم تمتد يدكم بقروش قليلة نشترى الفول؟

فى خيالى كنت أرسل له كل صباح طابورا يشترى منه الفول. لقد كبر ابنه أشرف وصار يمكن لأمه أن تنزل به الشارع، وتجلسه متكئا على يدها بأنف محمر.

ماذنبك يا أشرف إن كان الفول مسوسا، وبلا طعم؟

لكنه فى صباح آخر قبض عليه لأنه كسر مقهى. وبدأت زوجته تخدم فى البيوت وأشرف على كتفها.

• • •

فى عودته التالية ...كان قد ازداد نحولا وبرزت عظام وجهه. جاء هذه المرة بعدة الشاى والقهوة وأشعل الوابور من الصباح. راح يجرى حاملا صينية صغيرة عليها كوب شاى وكوب ماء. نصف نظيفة ونصف ممتلئة تدور فيها ملعقة ألومنيوم رخيصة.

كان ذلك فى عهد ارتفاع نجم عائلة فتح الله. فلقد أصبح للست فريال مقاما استثنائيا فى شارعنا، وبدأت جمائلها تطوق شيئا فشيئا معظم البيوت. ومنع النقوط فى أى فرح قبل مجيء عم فتح الله. وبدأت أكثر من امرأة مثل أنيسة زوجة

بائع الجرائد الكفيف، وأحيانا زوجة كامل فى العمل فى خدمتها. كانت الست فريال قد بدأت عمل الكحك من الليلة العاشرة فى رمضان، وأهدت معظم البيوت- إن لم يكن كلها - كحكا وغريبة محشوة بالجوز والفستق الحلبى، تذوب فى السمن البلدى، كما أن ذبح الأضحية وتوزيع الكستور المحلاوى كان يتم فى ضجة كبيرة تحت منزلهم.

وصارت لها عادة غريبة على البيوت، التى طالما عدت الطعام عورة، وهى إلقاء بقايا الطعام من الشرفات. فكنت ترى أحيانا البنت عزيزة تمسك بقشرة جمبرى هائلة أو رأس سمكة بورية أو غطاء كابوريا وتستحلب لذة وهمية. وفى صباح العيد كان قشر الفستق يثير طرقعة تحت أحذيتنا الجديدة، ويدخل فى أقدام أطفال الشارع الحفاة.

فى الصيف، كانت تفتح عشتها لحبيباتها. وعشة كلمة متواضعة لاتصف الأدوار الثلاثة ذات الأربع ملحقات. ويمكن القول إنها أول من أقامت موائد الرحمن أو الجيران كما أسمتها أم صفاء، فكانت تقيم فى رأس البر غداء جماعيا للزائرين، وكانت تزورها عائلات بأكملها من شارعنا بأزواجهن وأولادهن وبناتهن. بعد العودة كنا نفاجأ بتوتر علاقة حميمة بعد عشرة عمر أو نشوء أخرى، كانت فى السابق غير ممكنة، بين أناس جمعتهم على غير توقع مائدة الست فريال وكانت علاقات غير مشروعة تستكمل الآن ما بدأت ولكن تصل فى أحيان أخرى إلى زواج.

أما زوجها فلم يهتم سوى بالورشة والمزاج. ظلت هيئته، رغم الألوف التى سيجمعها فى سنوات تالية -وهى فى الواقع ملايين لكن الكلمة لم تكن ترد فى قاموس شارعنا - هيئة ميكانيكى، بلون أسود يشى بعدم النظافة. كان لا يثير الرهبة بقدر ما يستدر العطف، وحين جاء كامل فى اليوم التالى بشيشة وأجلس عليها أصحاب الطلبات. ارتفعت الشكوى من البيوت، وقالوا -والله أعلم- إن أصحاب المزاج يزورونه فى الليل. وكان إغلاق غرزة كامل أول قرار أخلاقى تتخذه الست فريال؛ ففى المساء هدم البوكس كشك صفائح السمن الغير بلدى ولم نر كامل

فى الصباح.

لم تعد أم أشرف زوجة كامل تظهر كثيرا فى شارعنا. ورفضت الفتاة بإصرار أن تعود لخدمة الست فريال أو قبول مساعداتها أو هداياها. حين عاد كامل، كنت فى طريقى للمنزل عائدا من المدرسة، ورأيته واقفا يصفف شعر أشرف وأخوه الصغير أسامة إلى جانبه. كانت عينا الولد تدمعان وهو يحاول أن ينيم شعره على الجانب مثل هانى شاكر. وقال بصوت قوى وهو يمسك بيد الكبير أشرف، ويضعها على كتف أسامة الذى لم يتكلم بعد "بصوا لبعض ..أنا عايز بصة لأخوك كلها حب وجدعنة ..فاهم ياله؟حب وجدعنة." وابتسم أشرف رغم دموعه وهومستند على جدار المنزل القديم وسمعت صوته ينادينى "استنى عايزك." سقط قلبى رغم أننى كنت كبيرا وقتها وفى سنة سادسة، ودخل بى إلى الحوش وقال:

- مش انت ابن خالتى أم محمد ..أشرف؟

- .....

- جزمتك القديمة ياريت تجيبها لأخوك أشرف.

وتلفت قبل أن يقول:

- والنبى تلفها فى جرنان وماتعرفش حد . أنا عمرى ما أطلب إلا من واحد جدع .

وقال لى وأنا أعطيه الحذاء ملفوفا:

- أنا سميته على اسمك.

هل يذكر...؟

ياإلهى هل سمى ولده أشرف من أجل قرش صاغ واحد يسقط فى طبق صفيح أبيض، بارد ومبلل بالمطر؟ قالها ببساطة وصدق وأدار ظهره، دون أن ينظر فى

عينى.

من يعطينى قرشا أبيض أضعه فى طبقه ولايرتد إلى؟

الآن.. لا أثر لأشرف أو أسامة. لكن يارب البيوت لتبق يد كل أخ على كتف أخيه بحب ...وجدعنة.

٣/٦

قالت أمى وهى على السلم :

- مبروك حتدخل فصل مس إيلين.

حين دخلت، ألقت الحقيبة وراحت تحكى لى عن مساعيها ومرافعاتها لإلحاقى بالفصل. راحت تذكرنى بأمجاد قديمة وتحذرنى من الأفعال إياها، خاصة أننى لم أعد صغيرا بل رجلا فى الحادية عشر. سرت الحماسة بالعدوى فى رأسى. ففصل المس أشبه بدخول كلية الطب لأنها تختار أوائل الفصول وأولاد الناس فى فصلها.

فى أول يوم دق قلبى بعنف لكنه هدأ حين رأى ممدوح، فجريت لأجلس بجانبه. الفصل واسع وأجمل فصول المدرسة، بجوار مكتبها مباشرة. لاعتبارات عرقية كان المسلمون أقل عددا من الأقباط، فلقد فاجأتنا أسماء مسيحية جديدة على آذاننا، واكتشفت أن "أبناء الناس" كلمة فضفاضة فها هو ميخائيل أخيب مخلوقات الرب يزاملنا فى الفصل وكان على "ست ماما" أن تبرر لى ذلك فيما بعد بأن المس سيدة طيبة ورقيقة؟؟!! تجامل الفقراء والبسطاء من جيرانها وخدمها بل أيضا خياطتها وفراشي المدرسة.

ظل كل مدرس ينبه علينا ألا ننصرف فى الحصة السابعة مثل بقية المدرسة. وكنا نعرف أن فصل المس يظل حبيسا حتى الثالثة والنصف أو الرابعة.

ومع الهدوء الغريب الذى ساد الفصل الوحيد بالمدرسة، دخلت علينا بملامحها المحفوظة. كنا نراها لأول مرة خارج مكتبها. نفس الباروكة المضحكة والوجه العجوز والنظارة التى تفتش فيك عن خطيئة. أدارت ظهرها وكتبت كلمة

"حساب" على السبورة .وحين واجهتنا راحت تتأملنا فى صمت وأخيرا قالت:
"قوموا اقفوا."

بدأت على الفور فى تغيير مقاعدنا. حسب الطول وقوة الإبصار وأيضا تاريخ الشقاوة لكل منا. فما إن رأتنى أنا وممدوح حتى قالت: "كمان قاعدين مع بعض؟" وهكذا فرقت بيننا فى المقاعد. جاءت قرعتى مع بنت حلوة ذات ضفائر طويلة بندقية. لسوء الحظ كانت تكتب بيسراها، فظلت تنقرنى بكوعها طوال الحصة. واكتشفت أن خطها جميل جدا. أجمل منى ومن يوسف. وقلت لها صادقا أن خطها حلو، فصرخت فى وجهى قائلة إنها لا تستطيع الكتابة لأن كوعى دائما فى جنبها. أنا ؟

لكننى فى نهاية اليوم سامحتها حين بكت لأنها نيرمين قد فارقت صديقتها جورجيت. وكنت عن نفسى أفتقد ممدوح جدا. بعد أيام اهتدينا لفكرة رائعة وبالمصادفة وهى أن نبدل أماكننا أصبح كوعها طلقا، وعلمتنى أن أعقد الهاء بنفس طريقتها الجميلة، مخالفا خط الأستاذ ناصف الشيوعى. فى الأيام القادمة سيخفف من افتقادنا لممدوح وجورجيت أننا كنا نتبادل، أنا ونيرمين، طرقعة أصابع بعضنا البعض.

• • •

يوم الجمعة، حصة إضافية. اكتفينا بإجازة الأحد. رغم أننى كبرت فلقد أوصلتنى جدتى فى حنطور عم ملاك، قبل أن تذهب إلى سبوع إيمان ابنة خالى محمود. قالت وهى تنظر بحقد ناحية المدرسة وتقول بصوت عالى أضحك عم ملاك وأفزعنى "إيه ده ؟ هو أنتم نصارى؟" وكنت أعرف أن هذا الكلام عيب، فأية تلميحات بخصوص الدين كنا ننال، مسلمين ومسيحيين، على أثرها عقابا رادعا. فلقد نشأت فى ماض قريب فتنة طائفية فى سنة رابعة، على أثر خناقة قال فيها أحمد العنانى لميخائيل صليب "يابتوع الكنيسة والقسيس!" ولما لم يجد ما يضيفه

تحديدا قال بلهجة ذات مغزى "والحاجات التانية..." واستصرخ دم الشهداء والقديسين ميخائيل فقال: "بس يابتوع الجامع والشيخ والحاجات التانية." كيرلس ظل يسألنى بلا انقطاع عن الحاجات التانية، ولما لم أجد ما أخبره به، خاصة أننى كان على طرف لسانى أن أسأله بل كدت أموت لكى أعرف تلك الأشياء الأخرى، فلقد قلت باقتضاب، شاعرا بأهميتى الاستثنائية، ومحاولا أن أغطى على خيبة المسلمين وعدم تميزهم بسر واحد عليه القيمة. "حاجات ... أسرار المسلمين بقى ياكيرلس." وهكذا أضعت على نفسى الفرصة وانطويت على جهلى منتفشا بأسرارنا المزعومة .

سر إيه ياعبيط ؟ أنا اسمى أشرف حسن ومعنا فى الفصل أشرف عبد المسيح. دلنى أنت على مسلم واحد له سر كتابة اسمك، فلقد كنا نكتبه على طريقة العروضيين "كى رول لوس" بل أن اللئيم ترك أبلة المكتبة هناء تكتب اسمه قبرص واحتفظ بكتاب حكايات أندرسون شهرا كاملا .

لكن أية محاولة فضولية اختنقت على الفور حين عاد أحمد وميخائيل من مكتب المس يسندان بعضهما البعض فى بكاء مرعب، وتمخط الاثنان فى منديل ميخائيل. والغريب أن العلقة جمعت بينهما بوشاج غريب من الصداقة. فلقد ظل كل مدرس حين دخوله يسأل عن الاسمين حتى نالا شهرة فائقة، وتكرر النداء عليهما فى الحصص إلى حجرة الوكيل ومكتب الناظرة، وتبادل أبواهما صفعهما أمامنا فى الفصل واحدا وراء الآخر. بل إننا انصرفنا وبقيا فى المدرسة. واستوثقنا منهما فى الصباح التالى عن موضوع حجرة الفئران التى أكدها القديس ميخائيل بقوله إنه اندفع فى الصلاة فصرف الرب عنه الخوف وكيد الفئران، وتراجع أحمد عن أقواله القديمة بعدم وجودها وأكد أنه قاد حربا شرسة ضد فأر بحجم الأرنب .

وكان الموجهون يحفظون الاسمين. وظلا واقفين طوال الحصة يستمعان لحديث مكرر فحواه، أننا جميعا أخوة وأن الدين لله. فى رحلات التحقيق المشتركة بادل أحمد التليفزيون الذى يعرض صور الحجاز، بقلم غريب مكلبظ عليه صورة الأنبا، وكانت بركة الأنبا تقوم بكل عمليات الضرب والقسمة. بل إنهما جلسا فى

درج واحد ليتبادلا الرأى فيما ستسفر عنه التحقيقات وفى مراجعة أقواهما. وفى انتظار دخول حجرة المدرسين كانا يتبادلان أيضا ثمار الحرنكش الممنوعة واللب السورى.

• • •

لكن يوم الجمعة كان رائعا. فعادة ما تتأخر المس فى الإستيقاظ. وعلى هذا كنا نبكر بالذهاب قبل العاشرة فرحين طوال الطريق. كنا نستعد للمناسبة ونشترى الدوم قبلها بيوم. وأحيانا يتجرأ أحدنا ويأتى بكرة بلاستيك كانت منذورة دائما للذبح. لكننا كنا نلعب المنديل أو مباراة كرة على الرايق فى حوش ليس به سوى عشرين عفريتا .الموضوع إذن يستحق. لكن الوقت كان يمر بسرعة وتظهر المس فى الشرفة علامة على أن نغسل وجوهنا ونبردها بالمناديل المبتلة، ونقف واحدا واحدا فى مواجهة الآخر متسائلين "كيرلس .-أنا وشى احمر؟" أما كيرلس فكان يبكى أحيانا ويقول فى يأس مطلق، وكأنه مصاب بسرطان لا شفاء منه "أنا عارف إنى أبيض يعنى وشى أحمر." ونحاول أن نواسيه كاذبين "مش قوى." لكنها كانت تمسك به أولنا فتشده من أذنيه حتى تدمع عيناه. ولأن اليوم جمعة، كانت تقوم بكل واجبات زوجها الأستاذ فؤاد وبنفس مضربه تشوى مؤخرة كيرلس. ثم تعاقبه بأن يقف رافعا يديه إلى أعلى، ومأإن ينخفضا خلسة، حتى يرتفع حاجباها فيعودا إلى أعلى، وإلى ما شاء الرب.

• • •

كنت قد عدت لتوى ململا جراحى بعد غياب طويل عن الفصل. فذات صباح استدعتنى مس إيلين فى حجرتها وهى تقول أن الحرب التى تقودها الوزارة هي ضدها شخصيا. بعدها عرفت أنها اختارتنى فى فريق أوائل الطلبة. بدأ الفريق استعداداته الحربية. أصبحنا نجتمع منذ الصباح، وقبل الطابور فى مكتبها أو فى حجرة المدرسين. وكانت عيونها مثل كشافات لا تغفل عنا فكنا نتبارى أمامها فى

التسميع دون خطأ، حتى فى واو العطف، وحل عشرات المسائل، وهى تباركنا فى قلق. رغم أن الاستعداد للحرب المقدسة كان قد بدأ قبل المسابقة؛ ففى ٢/٦ كان ترتيب المس بعد امتحان الشهر لا يقف كالعادة عند الخامس، ولكن حتى الثامن والأربعين، ولم تكن عقولنا تعى أن تحمل الغبراء أو تظل السماء مخلوقا يصبح الثامن والأربعين. كان من التقاليد الموروثة أن يتم زفافه شهريا حتى تتقطع رئتاه من البكاء، دون أى تدخل مفاجئ من المكتب المغلق. كذلك كانت تتدخل فى الامتحانات، ففى أول امتحانات اللغة العربية قالت إن الدرجات مبالغ فيها. وقف الأستاذ شبارة ووجهه يسح بعرق دهنى يملأ ياقة القميص وإبطى بذلته الرصاصى الكالحة مذنبا مثلنا، ووقف كل طالب بالدور يخبرها بدرجته " ٩٨ من ١٠٠ " فترد " لأ ٨٨ بس" . هكذا كانت تقتطع من لحمنا عشر درجات كنا أحرص عليها من شيلوك. بعدها كان الأستاذ شبارة سباقا فى عرض الامتحانات الصعبة عليها ليصبح أوائل المحافظة وغلاف كتاب سلاح التلميذ مزينا بصور سادسة ثانى.

• • •

عدت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. فلقد أخبرنى مينا بتفاصيل جديدة مذهلة. لقد بدأت الحرب على البنات بعد أن كشف الرب فى الأعالى ألاعيبهن القذرة والدنيئة التى لاتحترم حقوق الصداقة وحسن الجوار.

- إيفا ...؟

- إيفا الطيبة التى تخفى الدوم منذ سنوات فتانة؟!

هز مينا رأسه ذا النظارة الطبية السميكة فى تأكيد ليخبرنى أن البنات يصعدن إلى حجرة المس، فلقد كان بالمدرسة قسما داخليا للمدرسات المغتربات تقيم المس فى المدرسة بصفة دائمة ويدّعين السؤال "فيه حصة ولا لأ يامس؟" وبغضب تخبرهن أنها نازلة حالا. هكذا يتسربن إلى الفصل دون أن نلاحظ لأن المباراة تكون مشتعلة وفريقنا مهزوم بخمسة لواحد. وفجأة ، نفتقد والكرة آوت حجل

البنات وهن يلعبن الأولى وشقشقتهن بالأغانى البناتى " شيكولاتة ..شيكولاتة دو . آى لف يو ." فنعود واحدا واحدا مهرولين دون إخفاء الدومة أو غسل وجوهنا، ونضرب واحدا واحدا قبل أن ننزلق فى الفصل ممسكين بمؤخرات ملتهبة. أما المصيبة الأكبر فهى تحديد صاحب الدومة حيث العقاب مضاعف وتتهمه المس بأنه "عصبجى" ثم تردد كلمات غريبة وهى تنظر بعداء وحقد وكأنها ترى المسيخ الدجال فتتلو صلوات بالسريالية وأخيرا تنفجر بـ "هات ولى أمرك."

أما فى أيام الشتاء حين يمتلئ الحوش ببرك الماء الصغيرة والطين فكنا نلعب بالبرجل. بسن البرجل نرسم مستطيلين ويحاول كل ولد رشق البرجل فى أراضى الآخر حتى تتقلص مساحة الوقوف ويصل به الأمر أن يقف على أرضه المحتلة بقدم واحدة فى انتظار أن يخطئ زميله.

كان البرجل هو اختراع أطفال مساكين حرمتهم السماء من لعب الكرة، ولفظتهم أرض زلقة حين حاولوا لعب المنديل فسقطوا بمرايلهم فى الطين. لكنها المس عرفت به من جواسيسها. صرنا نتعرض لتفتيش دقيق لترى إن كان سن البرجل مقصوفا أو إن نسى أحدنا فى فزعه أن يغسله. رغم عدم شكوى الأهالى وعدم ظهور أعراض توفير النفقات لدى إدارة المدرسة فلقد ظل عقاب البرجل الصبيانى المقصوف أو الطينى رادعا. أما اللعينات فاكتفين بلعب الأولى دون صوت.

وبدأنا حربنا. أصبحنا نلبد لهن حتى نخطف منهن قطعة البلاط المكسورة أو علبة ورنيش الهلب الفارغة متشفين فى قلوبهن وهى كما يقول الأستاذ شبارة أفرغ من فؤاد أم موسى. ورغم اتخاذهن التدابير اللازمة ووقوفهن متحفزات بأياديهن فى وسطهن، فلقد كنا نحوم حولهن كالصقور، وفى أول فرصة مواتية ننفذ فعلتنا. ورغم أن بعض الزميلات القدامى قد أصبن فى سنة سادسة بامتلاء مفاجئ، وبقامات تجاوزتنا كن يقبضن أحيانا على أحدنا فيعجننه بالكلمات، فلم نرتدع ولم نرعو. بل وامتدت المعركة فى كل المدرسة ببركة يسوع ومحمد وأيدى صبيان سادسة ثانى.

هذه المرة كان رداء الدجال من نصيبي، فلقد أقسمت إيفا بالمسيح الحي أنني اشتريت الدومة أمامها. هكذا ألصقت خدي ذلا، ورفعت يدي لتتيبسا على الحائط البارد. وشاء الرب أن يسوق الشاطر حسن إلى سادسة ثاني، ظنا منه أنه سينقذني باحضار كراسة الحساب التي نسيتها في المنزل. طبعا صعق حسن حين رأى قفاي، في الوقت التي كانت فيه المس في منتصف صلاتها تستنزل على رأسي اللعنة. وقبل أن يستكمل "خير ...عمل إيه؟" صاحت: " ابنك يا أستاذ قليل الأدب." دار حسن على عقبيه ولم يعقب. وطوال الطريق كان كيرلس وممدوح يلقنانني دفاعا رائعا وأدلة لا يمكن دحضها على براءتي كالذئب من ...

لكن حسن دون أن يسمع دفاعي صفعني كبداية .

....

....

" أبى ...لماذا تنكرني؟" هكذا صرخ يسوع على الصليب حسب رواية الإنجيل. وبنفس منطق الإنجيل حين قال بموت السيد المسيح. مات يسوعك لكن "أنت لست بأبي ...وأنا أكرهك." انطفأت نار النبوة وضاع الشاطر حسن .

سأحمل صليبي – سير الماكينة – وأقف ساكنا وحدي. لا يؤنسني حتى اللصان، مديرا لك ظهري فتجلدني .

• • •

ظهرت نتيجة القبول. لم أكن الأول على المدرسة. كان مجموعي ٢٨٩من ٣٠٠ضاعت ١١ درجة كاملة. لم ينقطع البكاء من بيتنا لأيام، وتلقت أمي العزاء من البيوت التي ظنت أنني رسبت. وبينما كنت أجهد فكري. أكان لابد من القلم الحبر وبقعة الحبر؟ هل شكوا مثل أبلة خلود في موضوع الإنشاء فضاعت تسع درجات؟ هل خفت فحصلت في الحساب على ٩٨ من ١٠٠ ؟ بينما كانت أمي على

الخط الساخن مع مس إيلين التى تؤكد لها أن كله عند العرب صابون، وأنها حرب ضد الأمريكان. وقتها كانت عيون أمى تترقرق بالدمع وتنظر إلى كمن ابتلاه الله بثقب فى القلب. لكنها فقدت هى والمس كل اهتمام بقضيتى حين علمت أننى لم أحصل فى الحساب إلا على ٩٨ ، ووضعت يدها على فمها مباشرة، وتهاوت على كرسى الصالون متنبئة بأيام نحسات أخر ستجىء .قالت فى لوعة: "يعنى حتدخل أدبى؟!"

بعدها واجهتنى بعيون متهمة جف دمعها. لم أعد أميرها الصغير الذى راهنت عليه . حتى حين خسرت المعركة الأخيرة فى أوائل الطلبة .كنت يومها بشكل ما مسئولا ، فلقد كنت المتحدث الرسمى للفريق الأمريكانى، وأجبت على سؤال إصلاحات محمد على الاقتصادية بحسب ترتيب الكتاب. أولا اهتمام محمد على بالجيش. ثم كان الوقت مناسبا لقتل الأمريكان، فسحب فريق المراقبين الميكروفون لأن إجابتى خارج الموضوع. ورغم احتجاج الأستاذ عوض والوكلاء، عاد جنود محمد على فى موكب صامت، فى حناطير متخاذلة. بل كأننا عدنا من الأوليمبياد إلى ألمانيا الشرقية خاوبى الوفاض ننتظر الحبس وصدمات الكهرباء. لكنها أمى كانت إلى جانبى لتؤكد لى أننى سأفوز فى الحرب القادمة.

* * *

فى ذلك اليوم، مسحت أمى دموعى وقالت :" أشرف أنت كبرت." وقامت إلى الدولاب، فأخرجت صورا وأوراقا قديمة، وراحت تحدثنى عن أحلام بنت صغيرة، سافرت إلى الإسكندرية لدراسة الأدب الإنجليزى فى كلية الآداب. حدث ذلك فى الوقت الذى استغل فيه الخواجة الطليانى ظروف مرض خالى محمد بالسرطان، وفى تكتم وهرولة صفى تجارته وعاد إلى بلاده.غير عابئ بشريكه الذى يدوخ مع ولده البكر على الأطباء. فى الوقت الذى كانت فيه الكلمة أقسى بكثير منها فى ٧٧ .فلم تكن الآلام الرهيبة تسكنها سوى أدوية تأتى من فرنسا . كان المرض فرصة دراسية للأطباء فى القاهرة، فاستبقوا مرجعهم الحى لأطول ما يستطيعون، وتبادلوا تقليب

جسده، كتاجر الأنتيكات حين يتأكد من تحفة تأتيه لقطة من بيت عز مفلس أو من مزاد قليل الأهمية. كان على جدك وجدتك أن يبيعا كل شيء من أجل تخفيف آلامه. وفي الوقت المناسب رحمهما الولد الأكبر العاقل -والأدرى بظروف والديه - من التعرى لأكثر من ذلك، أو سلب مستقبل أخوته الثلاثة البنين الذين يدرسون في الجامعة. ومات ضاربا عرض الحائط بقرار عبد الناصر أخيرا ، بسفره إلى فرنسا للعلاج على حساب الجمهورية العربية المتحدة. وقتها لم يعد مع جدك سوى قلب خاو، ولم يكن لمثله معاش، وانتهى العز القديم ، فلقد باع أرضه وبيته في البلد وتأممت تجارة القطن. وفقد محمد بعد أشهر من زفافه، محمد الذي جاء له بالطهاة الخواجات من مصر يوم فرحه. كان على تلك البنت أن تترك الجامعة، وتعود إلى المنصورة لتعمل مدرسة بالمكافأة. وعاندها مكتب التنسيق فلقد اكتفى المعهد الصناعى "كلية الهندسة حاليا" ولم يتبق أمامها سوى معهد السكرتارية. هذا غير مرض أبيها وبطالته. وحين سألتها ألا يشعر أخوالى بالذنب، اندهشت وقالت : أى ذنب ؟ لقد تكدسوا في الإسكندرية فى شقة ذات حجرة واحدة، ومن إيجار شقة العز القديم التى لم يتخلوا عنها، والتى طالما رأوا من شرفتها الست أم كلثوم، كان على ثلاثتهم العيش والدراسة والنجاح فى تلك الحجرة وبذلك الإيجار . أرتنى أوراقا كثيرة لزميلاتها التى أصبحن الدكتورة فلانة والمهندسة علانة،وصورتها بينهن بعيون أذكى وأجمل بكثير.

أرتنى فيما أرتنى بطاقة جدى الذى كتب فيها "قبانى" واندهشت انه ليس تاجرا، فأفهمتنى أن رخصة الوزان كانت تدر عليه دخلا . سواء عمل أم لم يعمل، وأن جدك كان يظن أنه يتحسب للزمن فاحتفظ بها . وأخيرا ألقت أمامى بورقة بيضاء مصفرة إلى ولى أمرها تخبره فيها إدارة كلية الآداب أنها تأسف لإخطاره بفصل الطالبة لعدم سداد المصروفات. تلك أول مرة أعرف أنها لم تحصل على مؤهل جامعى بل فوق متوسط. كانت تبكى وتقول وهى تحتضننى أننى سأكون دائما الأول من أجلها. كان على ذلك الولد الصغير أن يدخل الحرب، وأن يحرص على الحياة فى جبن

من أجل جدته التى ترتعد إن نزلة برد أصابته. وأن يكفر عن ذنوب الشاطر حسن فيحفظ القرآن، وأن يرفأ أحلاما قديمة لأمه فيصبح دائما الأول.

وخسر الولد هذه الحرب دائما فى الإعدادية ..فى الثانوية... فى الجامعة ..فى الدراسات العليا ..وأخيرا فى الكتابة. رغم أنه كان دائما فى فريق أوائل الطلبة، تسجل صوته فى الراديو ، وصورته فى التليفزيون فى برنامج دورى الجامعات، وتحتفظ باسمه إن ظهر تحت بضعة أسطر فى الجريدة الرسمية.

دائما ... بل أبدا ... معى هذا الشعور بالفشل، حين تواجهنى عيون الأميرة، دامعة ... تتهمنى بالخيانة.

لماذا تسقط الأجنحة ؟

قالت زينب بائعة اللبن لجدتى :

- والنبى دى من غير ملة.

- إزاى يازينب؟

تربعت على الأرض أمام بابنا المفتوح وصبت اللبن من القسط وهى تضيف:

- آهى شيطانى كده يا خالتى أم محمد، احنا صحينا فى يوم لقينا جدع عرش غرزة غاب على الزراعية والناس تناديه عم صليب. كنت بنت أربعتاشر لما سافر يومين بلدهم ورجع ومعاه البت. كانت بتساعده فى القهوة وتقول له آبا صليب. لكن ما شفنهاش راحت معاه الكنيسة.

وكنت مندهشا أن يكون ذلك الحديث عن محضية تلك الفلاحة الطيبة التى لعلها فى السادسة عشر .كنا نضحك دائما على لثغتها بالراء ونعاكسها قائلين: "يبطتين جيىجيى." لكنها لم تفقد ابتسامتها أبدا، وكنا نظن أنها ستتزوج عم إبراهيم الفوال. أذكر أننى سمعتها تترحم على أم أحمد ورأيتها ترفع إصبعها عند مرور الجنازة واعتقدت أنها تقول مثل عم إبراهيم "لا حول الله يارب أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله." لكن لم نرها فى شارعنا تقبل يد أبينا بطرس أو تذهب إلى الكنيسة لتوقر العذراء. فكيف تتزوج عم ملاك المسيحى؟

أحب أنا والبيوت عم ملاك. يذكرون فى شارعنا أن أمه توفيت بعد ولادته. لكن الله جعل عيونه الجميلة الخضراء تأسر القلوب. هكذا لم يصرخ مرة جائعا إلا وأرضعته أم من شارعنا. كان ملاك يدخل البيوت فى طفولته مثل قطط البيت فلقد

كانت البيوت مفتوحة دائما فى شارعنا ولا نغلقها إلا فى وجه الريح. وفى الشارع كان يلعب البلى والكرة مع أطفال البيوت. وكبر ملاك وعمل مع أبيه عم مينا وهذا فى غياب أخ له لم أره فى حياتى ولم يلعب معه لكنه كان السبب فى دخول ملاك الجيش فى الوقت الذى نسى فيه مثل معظم البيوت أخاه غطاس. كان ذلك قبل حرب ٦٧ بقليل. حين عاد ملاك مع من عادوا من سيناء ماشيا، رفض عم مينا أن يفتح له العربخانة ليقضى سواد الليل حتى يعود ويسلم نفسه إلى كتيبته وإلا اعتبروه هاربا. أقسم لى عم ملاك أنه عاد من سيناء وقد نحل نعل جزمته البيادة.

ومثل عمى شعبان لم يخرج من الخدمة إلا بعد انتهاء الحرب.

كان له عود قوى مدكوك، وشارب كث وشعر أسود فاحم. كان عم ملاك أطيب خلق الله. فأم نصر كانت تقول مرة لابنها " لو ما طلعتش حاجيب لك العسكرى." وأبصر نصر أمامه فجأة عم ملاك بزى الصاعقة فجرى مشعوفا ووقع على رأسه. وحمله العسكرى إلى المستشفى، وجلس يبكى أكثر من أم نصر، وعاد متأخرا إلى الجبهة. كان الأولاد فى شارعنا يزعمون أنه تعلم فى الصاعقة أن يشوى الثعابين بل صار يحب طعمها. أذكر أننى رأيته مرة أمام عم إبراهيم يحو بإصبعه الكتابة من على قرش أبيض. ورغم أنه يرفض الرهان فلقد رأيته بانبهار يراهن على قطع طبق من الصاج الأبيض الثقيل، وفعلا قطعه مثلما نقطع أوراق الجريدة.

وعم ملاك لا يجادل أبدا فى أجره فكان يأتى من الموقف القريب. ويصعد أحيانا ليحمل هو حقائب البيوت بكلمة واحدة مبتسمة ولائمة "عيب" وقد ينتظر راضيا عائلة بأكملها حتى تتجهز وتنطلق معه فى مشوار، ويتلهى فى ذلك الوقت بإطعام حصانه السرس ويطبطب عليه فى حنان. كان ينهر الخواجة منير إن ضرب حماره، ويسرع لتقبيل يد أبينا بطرس. وهو يوم الأحد يأتى مهرولا من الكنيسة لاصطحاب أم فضيلة زوجة مولانا إلى المستشفى، وكذلك فى كل مرة تصيبها كريزة الكلى مجانا.

فى عيد الخوص، كان الملاك لا يبخل على مسلمى البيوت بخواتم الخوص الجميلة التى يجيد صنعها. ولعل الشر الوحيد الذى واظب عليه هو أن يمر فى العيد كتفه فى كتف عم أنور المسحراتى ويقول مثله للشرفات "بعودة الأيام" وينال نصيبه من كحك البيوت رغم اعتراض عم أنور :

- ماعادش إلا النصارى. طبق كحك لملاك ليه ياست أم محمد . ولا أنتوا بتصوموا صيام النصارى ؟

وتضحك جدتى وهى تقول:

- قطع لسانك . ملاك لو قعد فى بيته يوصله الكحك لحد عنده ،غيرش هو بيحب يناكفك.

وبعد أيام قليلة من انتهاء الحرب. صعدت روح عم مينا إلى أورشليم السماوية، وأصبح أهل البيوت فى حزن حقيقى على رحيل عم مينا وعلى ملاك الذى صار مقطوعا من شجرة. كانت البيوت دائما تتعجله أن يتزوج. بل إن عم سعد أوقف أبانا بطرس وقال له:

- ياأبونا مش حتفرحنا بقى بالواد ملاك . والنبى محمد لولا الدين لخدناه لبناتنا .

ضحك أبونا بطرس وهو يقول :

- ماينفعش. بنات المسلمين اخواته فى الرضاعة.

كان شعر صدره اللامع يجعل يسرية تربت دائما على صدره، فيحمر وجهه ويفر من أمامها وتقول ممصمصة :

- شوفى ياختى الراجل؟!

حين نشبت حريقة فى فرن عم سعد ، كان ملاك أول من ألقى بنفسه فى

النار . وخرج حاملا أم سنية زوجته، وتركت النيران إلى الآن آثارها على يديه. أما فى الأفراح... فكان يزين الحنطور بأزهار ورقية ملونة وأعلام خضراء من عهد مولانا ويزف العروسين، وفتها يرتدى بذلة ميرى صفراء بأزرار نحاسية، ويدهن شعره وشاربه بالفازلين مثل أنور وجدى. فى المآتم ...كان يستمع إلى قرآن السهرة فى صمت وأدب، ويسرع بجلب ينسون الشيخ عبد العزيز المحلى بالعسل، وكان الشيخ يستند على يده حتى يعود لبيته. وكان يساعد عم منصور فى نصب أو هدم شادره. وكان عم تحسين فى أيام المولد يبحث بعيونه عن ملاك ويمنحه طبقا من الفتة واللحم المسلوق ويقبله بين عينيه وهو يقول: "نصيبك أهه ياملاك." فعم تحسين يعرف أن ملاك عزيز النفس ولن يأكل مع أغراب المولد . لكنه لم يشارك أبدا فى رواية معجزات العذراء أو التحمس للمقدس فرج. وكان أبناء النسيرى. يحملون تقديرا شديدا لملاك الذى كان يتدخل أحيانا لتهدئتهم "عشان خاطرى" وكان الوحيد المسموح له بامتصاص غضب عنتر .

• • •

قال عم منير :

- ده واد ماعندوش أصل. أنا...؟ أنا ما يقوليش؟

وحين سألته يسرية هل البنت مسيحية أم لا . هاج وماج، وأخيرا رفع بنطلونه المربوط بدوبارة مكان الحزام، وقال بعد أن تمخط ومسح يده فى الحائط أن العذراء زارته فى المنام وأوصته عليها ،والعذراء لاتوصيه إلا على مسيحية، وحين نظر عم سعد فى وجهه نظرة مستريبة وصرخت فيه يسرية:

- وقعتك سودة يامنيل . يعنى العدرا عمرها ما وصتك علينا ؟

وهنا ارتبك الخواجة فلقد حمل عشرات التحيات، وأوقد الشموع للعدرا وستنا دميانة

- لأ ..بس ..بس ده جواز يعنى مايرضيش الرب . احنا فى دينا وانتم فى دينكم والعدرا...

ويبدو أن عذراء الخواجة منير كانت لا تحب إثارة المشاكل؛ فهى تحب المسلمين والمسيحيين على حد سواء،ولكن إن وصلت الأمور للزواج فللموضوع اعتبارات أخرى.

• • •

"صباحية مباركة يا عروسة"

وبعدها خرجت محضية وقد تخلت عن تربيعتها . ورغم أن يسرية كانت تسميها أم ضب كانت البنت ذات شفاه لحيمة مكتنزة، تطفو على وجهها مثل وردة نيلية، وردة من لحم، طرية، ودافئة، تتداخل خيوطها الطولية موحية بفتوة وشهوانية، ولحمرتها الهادئة تجاور مكتوم، بينما كان حاجباها الطويلان يتدان كخطين مستقيمين كأنما ليمنعا تلك العيون البندقية أن يتسعا لأكثر من ذلك.

وكان شعرها الأسود، لامعا دائما دون قصد، وكثيفا، دسما مثل طبقات قطيفية متتالية، أصفه الآن ووبرته تشع فى ذاكرتى، ورائحته أقوى من الكلمات.

بعد الزواج بدأت بشرتها تشع بياضا وحلاوة، وامتلأت قليلا فازدادت ملاحة وقالت يسرية بحسد :

- آه يا أبلتى ... مش بطلت سرح فى السوق وبتستحمى كل يوم. ماتبيضش ليه وتربرب؟

كانت قديما . . .متربعة أمام مشنتها فى ملابس سوداء واسعة على عادة أهل السنبلاوين. والحق أن البيوت لم تصدق أن العباءة السوداء والغلب كانا يخفيان ذلك الجسد . لقد انتصبت واقفة مثل تمثال دبت فيه الحياة فجأة. وأية حياة ؟

كان جسدها تحت ملابسها الجديدة، قويا ومراوغا كقط، له حضور خاص رغما عنها. كانت أنوثتها مربكة للبيوت وللبنت نفسها التى بدت تحمل أنوثة ممتلئة إلى حافتها، حريصة عليها، وتكاد تندلق من إنائها مع أقل حركة.

لكن عين الحسود أصابتها فالتاكسيات بدأت تزداد فى المنصورة شيئا فشيئا، وضاق الرزق بملاك. وفى ليلة سوداء مرض حصانه وقضى الدكتور إدوار، وهو شخصية هامة بالتأكيد بسبب طريقته فى نطق اسمه، الليل بطوله يسقيه المحاليل ويحقنه. بل جاء أبونا بطرس بنفسه لملاك فبخره ورسم عليه علامة الصليب.ورش الماء المقدس وظل يردد صلواته حتى الصباح. ظلت عيون ملاك الخضراء مبتلة بالدمع وهو يبكى كالأطفال فلقد مات حصانه.

وبدأ أهل البيوت فى جمع قروشهم لملاك. وقال عم زكريا الترزى لأبى :

- مايتحمقوش قوى ..هم القبط حيسيبوه؟
- برضه واجب، دى مراته على وش ولادة.
- ياأستاذ القبط دول مش سهلين.
- مش كلهم فيهم وفيهم.
- لأ اسألنى أنا. حاكم مراتى منهم . ميرى ودلوقت اسمها مريم لكن لسه بتود أهلها وبرضه بيزوروها .

لكن قروش البيوت لم تكن لتشترى جحشا. وحين اشترى حصانا جديدا، لم نعرف هل هو منحة كنيسية أم دينا فى عنقه؟ كانت مسألة مسيحية بحتة .

• • •

وبدأت محضية تخدم فى بيت البيوت. وكانت كما تناديها نساء البيوت "فرسة ملاك" فهى إن أمسكت بسجادة لتنظيفها فى البلكونة. اشتكت البيوت من

حوها من التراب وكأنه رياح الخماسين أو كأن بيتا عجوزا قد سقط. وإن دعكت البلاط التهمته فرشاتها التهاما حتى يسقط شعر الفرشاة فى يدها. أمينة وفى طيبة ملاك. لا تجادل فى أجر، تحمل نقودها راضية وتقول:

- يعافيكى بالخيى ياأبلتى.

قبل أن تعيد لشعرها التربيعة السوداء. وتدخل فى العباءة السوداء الواسعة التى عادت لارتدائها وتنصرف.

كانت جدتى تحبها وتحب ملامح فادى الجميلة.

- ماشاء الله. اللهم صلى على النبى وشه أحمر زى الإنجليز كله ملاك الصغير.

وكان وجه محضية يشرق بابتسامة، وحبات العرق تلمع على جبهتها وتنحدر على رقبتها لكن خدودها تتورد باللون الأحمر. وترفع الآن البنطلون الكستور المبلل بأثر المسح فتبدو ساقاها جميلتين قويتين، تتحديان برد عز طوبة وكأنها لا تحس الماء أو برودته، وتضع أقدامها فى حذاء بلاستيك ثقيل أسود كانت علاماته على أقدامها.

- يبنا يخليكى ياخايتى أم محمد ويفيحك بشيف

وحين ترانى أضحك تقول زعلانة:

- بقى كده بيضه !؟ ...طيب مخاصماك.

كانت جدتى تعاتبنى بعد انصرافها وتخبرنى أنها عكس الغسالات والخدم "نفسها عزيزة" يكفى أنها لا تطلب لقمة وتأكل فقط إن وضع الطعام أمامها وتترك بعضه قائلة: "الحمد لله."

- دى ياشرف عينها مليانة ...أم بكر بتلف السبع بيوت وتقول

لكل واحدة أنا ماأطلبش غير منك.. إشى جلابية لأ شوية رز لأ شاى. واللتة بتاعتها دى يعنى كانت مدلعة وهى صغيرة.

وكانت لا تتحدث كثيرا فى سيرة البيوت التى تدخلها ولم تجد يسرية سوى أن تقول:

- البنت دى عفية وزى البحر ماتشبعش ..والنبى دى حلت الجدع.

هل كانت هى السبب فى انطفاء عيون ملاك ؟ أم ضيق الرزق ؟ أم الدين ؟ أم فادى الذى خرجت به للخدمة فى البيوت وهو ابن أربعين يوما ، بعد تعميده بيوم واحد ودحضها للشيطان بكل قواته الشريرة. كان عم منير يوقفها كثيرا ويستفسر عن أحوالهم، وكانت تتهامس معه قليلا وتنصرف. كان الملاك يراوغه فى الوقت الذى قالوا فيه أنه يشرب الحشيش، وخاصمه أبونا بطرس لأنه لم يعد يذهب إلى الكنيسة بانتظام وقال لأبى:

- مسكين الخطية جرته ياحسن.

أما عم بهلول فكان يقول: " مسكين !؟ بقى اللى يتجوز محضية يبقى مسكين؟"

وعم بهلول هو من كبار مدخنى الجوزة. يجتمع فى قعدة أنس بالليل مع. . . - ويجد الراوى نفسه مضطرا لسرد شهادته كاملة – مع مولانا الشيخ عبد العزيز وعم فتح الله وملاك. وكان عم فتح الله قد اشترى ورشة خراطة ثانية وثالثة وقالوا – والله أعلم- أنه كان يعمل "بيزنس" مع سيدة مصر الأولى مرة واحدة. لكنه كان زبونا دائما للكيف. ولأنه مثل الست فريال زوجته لا يستمتع باللقمة والنفس إلا مع أحباب. فلقد ضم مجلسه، حول جمر الهبو عم بهلول ومولانا وملاك وأناس آخرين. كان يستمتع بنقار مولانا مع عم بهلول الذى قال فى أول جلسات الأنس إن

هذه قطعة من حشيش الجنة وانزعج مولانا وهدد "كده وكده" بالانصراف ، وقال بهلول لمولانا أن يجلس وإلا سيطرده من مجلس الأنس فى الآخرة. قال مولانا :

- بلاش كده يابهلول. اقعد باحترامك ياأخى قال حشيش من الجنة قال؟

- وحياتك الجنة يامولانا فيها حشيش . والملايكة حيخدموا على العبد لله بحتة هبو ماحصلتش . وبرضه مش حاأشوفك بربع قرش.

- أعوذ بالله . إنت حتعك ياحشاش؟

- ليه يا مولانا ؟ خليك معايا واحدة واحدة . لو قلنا الجنة فيها نسوان نبقى كفرنا ؟ فيها ولا لأ؟

ورفع مولانا حاجبيه من تحت النظارة وسحب نفسا فى تفكير عميق:

- إى نعم ، فيها.

- طيب ولو قلنا فيها خمرة ..نبقى كفرنا؟

- لأ.

- طيب جت علينا احنا ؟ النسوانجى والخمورجى يرزقوا والحشاش لأ. كخة ؟!

- الله يلعنك ياشيخ. دى خمر لذة للشاربين مش زى خمر الدنيا ، وحور عين مش نسوان

- وأنا قلت غير كده ؟ ربنا يسمع منك ويجعل حشيش الجنة غير حشيش الدنيا ..دى تبقى أجدع حاجة فى الجنة.

وضج المجلس بالضحك سوى ملاك. فلماذا ضمه عم فتح الله إلى مجلسه وهو لايقول نكتة واحدة؟ اختفت ضحكته فائقا ومسطولا ، ونسى أحد الشعانين وخواتم

الخوص، وتهدل حاجباه الأسودان وأكمل عم بهلول:

- أنا سألت عم تحسين وقال لى إن الحشيش نبات صالح .

وأكد عم فتح الله على كلامه:

- مرة خرج الشيخ حسنين ، وكان معاه الأتباع فى سفر. ولما بعدوا عن العمار جاعوا واشتد الجوع بالشيخ والأحباب، ولما لم يكن أوان الصيام وعضهم الجوع بنابه، ساقهم ربنا إلى شجرة الخشخاش. أكلوا ورق الشجر . القصد شعشع النافوخ بالتجليات وفاض اللسان بالذكر وسبحت الروح فى الملكوت، وقبل مايموت وصاهم الشيخ بالشجرة المباركة.

- قصدك الشجرة الملعونة يابهلول.

- ليه بقى هو أنت مش من زباينها يامولانا؟

ورد الشيخ عبد الصبور الحانوتى:

- قصدك ملعونة من الحكومة مش من المولى . ماهى الحكومة لازم تحارب المزاج هى مش مانعة الرز؟

كان عم بهلول زوج أبلة يسرية يسرب إليها دائما أخبار القعدة فى محاولة لإلهائها ، فلا تضربه بالشبشب أو قبل أن تندفع فى الردح فتضيع الحجرين من دماغه. وكانت يسرية تنقل غالبا إلى الشارع وبالتفصيل وقائع قعدات الأنس. كانت بين الحديث تتندر على فادى النحيل حتى أنها قالت فى قلة حياء:

- بت يامحضية الواد ده رفيع كده ليه ،يكونش ملاك جابه ببوسة بس ؟

وضحكت أم فضيلة وهى عائدة من السوق وقالت :

- قد القول ده ابنى وأنا اللى مربياه. ولا فاكراه زى جماعة ؟

وطبعا كانت تقصد البهلول زوجها، لكن بسرية تراجعت وشككت فى ذلك بقولها :

- دى البت لونها مكبى ماعرفش ليه؟ والنبى لو بينام معاها، كانت الدموية جريت فى وشها. لأ والأكادة سألتنى على شريط حبوب. وأنا ياأختى مالى بالحاجات دى؟

ونهرتنى جدتى فأغلقت الشباك ولم أعد أسمع شيئا.

• • •

استيقظنا ليلتها على صراخ الست فريال وهى تلعن زوجها أبا أولادها. واستغربت جدتى قائلة :

- غريبة طول عمرك عاقلة يافريال. إيه جرى لك؟

وكنت قد استمعت إلى حديث ممنوع بأن أبلة فريال — البدينة جدا لدرجة أنها لا تغادر بيتها إلا إلى رأس البر - كانت دائما تصون بيتها، حتى أن مزاج زوجها عم فتح الله كان لا ينعدل إلا بأم فلانة، فكانت هى بنفسها من تبعث بها إلى عشة رأس البر لتدلك له ظهره عند استيقاظه حتى يزول عنه النقح ، وفريال راضية. لكن زينب بائعة اللبن قالت وبصوت هامس جدا لجدتى أن الست فريال ضبطته مع محضية. وأن البنت قد عدمته العافية فلقد دفعت عم فتح الله فسقط من على السلم وقام بذراع مكسور وعرض عليها ورقة بعشرة من أجل بوسة ، لكنها رفضت وآخر ماسمعته الست فريال " أنا خدامك ياجميل بس تحن."

قالت جدتى إن فريال "مش سهلة" وأن عيونها فى رأسها جيدا فكيف لا تفهم نظراته لمحضية وكيف لا تعرف المستور وهو دائما يسأها عن محضية بالذات. لكننى أشفقت على محضية ...بالتأكيد لا هى نهرته ولا ضربته. وفى خيالى بعد ذلك

بسنوات كنت أتخيلها، بذلك الضعف، ضعف هو كل ماتملكه. لكن ضعفها يجعلها مباحة. ضعف ينتصر على قوتك ومع ذلك يحفزها ويشحذها لتحاول من جديد. ضعف يؤجل الأشياء ربما إلى وقت غير معلوم. ضعف يستصرخك أن هيا ومتى ولماذا لم يحدث. كنت أرى عيونها لا تعرض نفسها بقدر ماتخافك وتبحث عن الهواء والستر. ويدها لا تقاوم ولا تدفع لكنها تراوغ وعلى رغبتك أنت تسقطك على أسنانك.

قالت يسرية :

- لو كانت ريحته كان الموضوع خد له يوم ولا يومين. لكن سابت الراجل يحتن فى نفسه وينزل هاتك على الحشيش وماعدش بيقرب الست فريال وعلى طول متزهقن. دى لولا الملامة كانت قالت ها ريحيه وخلصينى .

وكانت تغمز بحاجبيها وهى تقول :

- حاكم جنس الرجالة أنا عارفاه. طول ما الواحد ينط بره. تلاقى يا أختى لسانه حلو تقوليش بينقط شهد ومايعزش جنس شئ على بيته.

كان الخواجه منير قد تدخل حين بدأت محضية تخدم فى شقق العزاب، وبمساعدة أبينا بطرس نقلت أعمالها إلى خارج الشارع عند عائلات قبطية فى الحسينية. وكانت يسرية تقول له وقتها فى قلة أدب:

- ياعم منير ماتسيب البت جنبنا وفى عينينا. دى لو مسلمة كنت أخاف منها لكن ده جواز نصارى ...يعنى الراجل حيطفش على فين ؟

- عيب يايسرية.

وضحكت وهى تتقصع فى قميص النوم :

- عجايب !ولا يكن القبط ماهمش فى النسوان؟

وبعد رحيلها عن شارعنا قالت تيتة تريزا إن أم فادى – وتقصد محضية – كانت نعم الزوجة الصابرة المطيعة فهى لم تنم يوما قبل عودته حتى وهو يتطوح مسطولا. كان فراشه وملابسه زى الفل ولم تسمعها البيوت تقول فى حقه كلمة ردية.

حين اعتزل عم ملاك مجلس عم فتح الله كان يعود أحيانا فى الليل ومعه أغراب وكانت محضية تقول إنهم أقارب ملاك بينما البيوت تعرف أنه مقطوع من شجرة وليس له سوى أخيه غطاس. وظنت البيوت أنه نقل مجلس الأنس إلى العربخانة.

ذات ظهيرة حارة وساخنة سخونة جهنم. وقتما كانت بطون القطط فى شارعنا ممتلئة وتمشى مثقلة ومنهكة من الحر. خرج جدع غريب عن شارعنا سابا ولاعنا وممزق الملابس. كانت يسرية قد استمعت إلى صوت أنات مكتومة واستغاثات خفيضة وانية. ومن مسقط بيتها الملاصق للعربخانة أمكنها أن تسمع أصوات تميزها جيدا لم تكن لملاك. حين دخلت وجدت ذلك الجدع يضربها، فرقعت بالصوت، وجاء على الفور أولاد الحلال فخلصوها منه بالعافية. لكن محضية قالت وشفتاها اللحيمتان تنزان دما أن هناك حسابا بينه وبين أبو فادى وأنه كان يطالب بنقوده. لكن أهل البيوت ضربوه على هتكه حرمة بيوتنا فقالت محضية :

- خلاص أبوس ايديكم . عشان خاطيى ده قيبب ملاك.

ولم يكن الخواجة منير بالشارع لكن يسرية تدخلت وقد أحست بغريزتها ما لم يحسه الآخرون فقالت بسرعة منهية الموقف:

- يقطعنى كان بيتهيأ لى إنه بيضربها.

وبسرعة، ربتت كتف الجدع ومرقت به من الشارع بل أدخلته إلى بيتها فجأة. واعتقد الواقفون أن يسرية ربما وجدته نافعا لأشياء أخرى، وقبل أن تغلق باب بيتها نادت على عنتر.

فى بيت يسرية تحدث الجدع فقال كلاما غريبا وهو يشرب الشاى .

أقسمت يسرية وهى تلف السبع بيوت أن الجدع كان مسلما . فلقد سمعته بأذنها يقسم بالمصحف أن يقطعها واندفعت فى حكاية غريبة لم تستطع معظم البيوت أن تصدقها بل طردتها بسببها جدتى. لكن يسرية ظلت تقسم على صدق كلامها . وظلت بعض البيوت منكرة . كيف تصدق البيوت أن محضية العفية تركته يضربها ويهينها وتدعى أنه قريب ملاك؟ فمحضية طالما رفضت النقود بشهادة يسرية وذراع عم فتح الله المكسور ...لكن هل يعقل ما حكاه الجدع أمام عنتر : أنه فى ليلة بعيدة وباردة كان يبحث عن مواصلة ليعود إلى دمياط، ولما لم يجد أقسم عليه الملاك بالإنجيل أن ينام الليلة فى بيته. ولأن الجدع كان طولا وعرضا، وليس معه من شيء يخاف عليه سوى أجرة السفر وملابس وسخة، وافق.

هل نصدق أن ملاك دخل معه فى الحجرة الوحيدة وأيتظ محضية نصف النائمة لتعد لهم الشاى والعشاء . وأنها هى...هى محضية أعدت لهم بيدها الجوزة. وجلست معهم يتناولون العشاء . بل قدمت زجاجة نبيذ اشتراها ملاك فى الطريق من عند الخواجه باولو . وربت ملاك على ساق الجدع وقال:

- ماتنكسفش . محضية زى أختك.

كيف كانت محضية لاترتدى سوى قميص نوم لا يستر صدرها . صدرها الذى أقسمت يسرية حين لمسته يوم جلوتها، أن يدها جفلت منه، وأصابتها رعدة أخافتها . قالت "والنبى محمد كان بيجرى فيه كهربا ." وساقها ...كانت تتكئ عليها وهى مشلوحة عن عمد . تبتسم وتلقى نارها فى قلب الجدع، الذى كان يطمئنه، قليلا ، عيون الملاك نصف المغمضة. وظلت تقول له "ماتخافش ... ماتخافش." وأنه رغم ذعره كانت تسوقه يده. فتمتد على ساقها المشلوحة وصدرها العارى الذى هدأت شرارته مدعيا ملاعبة فادى النائم.

هل نصدق أنها أخذت يده واستبقتها على دفء ردفيها حتى صعدت إلى

السرير العجوز، وتعلقت برقبته وراحت تقول وهى تقبله فى جوع "أنا خدامة سيبيك." كان ها رغم صوتها الواني ألف يد تحتضنه وألف يد تطوقه وتلقيه في غيبوبة، بعيدا عن سحائب الدخان الأزرق. هل صحيح أنها كانت تتأوه وترتجف وتعرض عليها بضاعتها بصوت مبلل بالرغبة حتى طار النبيذ من رأسه. وأصبح في بلاد بعيدة ... (بلاد تصبح فيها غريبا عن نفسك، وبرغم خوفك وغربتك لا تملك سوى أن توغل فى السفر. يصبح الرجوع أبعد من أحلامك، وتوقن أن السفر ماض إلى نهايته بقوة أكبر منك. بقوة خوفك نفسها.) ...حتى نقرت العصافير قلبه وهى تشقشق. وأن الفجر كان على النافذة أبيض وعاريا، مثلها. صحيح أن يسرية كان ريقها يجف وهى تحكى، وأن رؤوس الرجال حين استمعوا لشرح نسوانهم قد أخذتها بالتأكيد دوخة، وهم يستعيدون مشهد الثمرة المحرمة. كانوا مشغولين، فمنهم من لام نفسه على حسن ظنه بها، ومن لام نفسه أنه لم يملك شجاعة المحاولة، أو اختيار اللحظة المناسبة. لقد خرجت من البيوت دون أن يعتصرها أحد.

ليلتها كانت البيوت تضج بخارا وسخونة وصهدا. كانت مثل إوزة عراقية، ترفرف فوق كل البيوت وتختار اللحظة التي تهبط فيها. كان الهواء نفسه في تلك الليلة يتسلل تحت بطنها الأبيض أو ينام تحت جناحيها في شبق. ليلتها، كانت تخلع قميصها في حجرات نوم البيوت. تخلعه، فيتضوأ في الظلام، بشرارات حمراء وصفراء من التصاقه بكهرباء ذلك الجسد ...والمؤكد أن النساء في شارعنا قد استحممن جميعهن في الصباح.

• • •

إن عنتر ويسرية كانا مع الجدع، وأكدا التفاصيل وكان صوت الخواجه منير فانوس يصرخ طوال الليل فى أذن ملاك: "امسك الصليب. حط ايدك ياملاك وقول يايسوع ...يامخلص - خلصني من الخطية. حس بيسوع وقول أنا ضعيف يايسوع. ساعدنى وخلصنى .لازم تروح لأبونا وتعترف ياملاك."

هل نصدق أيضا أن الجدع لم يلج غابتها المسحورة. وأن السهم قد انحبس فى قوسه. وأن المطر قد نزل بعيدا عن الأرض المرصودة. كان يلملم عريه وأنفاسه وتبعثره، حين ألقته يد ملاك القوية فجأة بعيدا عنها. وأنه كان مرعوبا، خاويا ...وغير فاهم. يسمع ملاك يخور كالثور يحمل الدنيا فوق قرنيه وأن محضية كانت...

لقد فعلاها حتى الصباح وتركا الجدع مثل النار تأكل نفسها. زارهما بعد ذلك أكثر من مرة، لكنها كانت إذا جاءها بمفرده سكتت صامتة كالموتى وقالت: "يا بيجى أبو فادى."

كانت تقاومه بنفس الصمت والعناد والقوة المكتومة حتى يعود ملاك. ساعتها تصير أبرع من الساحرات ترسل الصواعق والبرق وتطفأها على حافة قوسه، ثم تجذبه يد ملاك، فلا ينطلق السهم أبدا.

لكنه هذه المرة لم يستطع تأجيلا، فعلا صوته. وكانت كلما ضربها، قبلت يده وأقدامه ألا يفضحها.

قدر الرجال أن يهدموا المعبد على رؤوسهم ورأس الملائكة والمحظيات. رحل الملاك عنا بعد أن باع كل شىء للسامرى "عم عوض أبو سمرة" وحملت محضية صليبها وتبعته.

وآن لعم فتح الله، الذى كان يؤجل الحج دائما للعام القادم، أن يسافر للحجاز. كانت عيونها دائما تحمل وعدا بالتحقق. كانت نصف ذنب ونصف خطيئة، وعلى هذا لم يستغفروا منها ربهم ورب البيوت. أجلوا توبتهم حتى يتحقق ذنبهم. كيف تتوب من ذنب يحاصرك؟ ذنب مازلت تهفو إلى ناره وحلاوته. لقد تلمظوا الذنب حتى يطلبوا المغفرة. بل أتخيل الآن عم فتح الله وهو يستعجل أن يواقعها ليذهب إلى حجه نادما، صافى القلب.

وكنت أتمنى أن أصدق حكاية عم منير؛ أن خطيئة ملاك فقط هى أنه أراد نقودا للحشيش فاخترع خدعة نصب محكمة. فبعد أن يصطاد فريسته كان يستأذن دائما فى جلب قوالح الذرة لزوم الجوزة ويتباطأ،وحين يعود ويرى الجدع يحاول معها إلا ويأخذه "هيلا بيلا" ويفرغ مافى جيوبه. لكنه كما قال أبونا بطرس لأبى فتح ثقبا ضئيلا للخطية، راح يتسع ويتسع ويصبح شاروقة تبتلع ملاك، وتقبت روحه بذلك الشذوذ الغريب، فلم يعد ينال حلاله إلا بعد أن يراها دانية لغيره.

الحكاية إذن صحيحة. لقد صرخت الست تيريزا "كرياليسون!" وراحت أصابعها المرتعشة تبحث عن إجابة فى حبات مسبحتها، وماتت فى صباح قريب. كانت الليلة راكدة سوى من صوت عم تحسين باكيا وحده، من العربخانة الخالية وليس من الحضرة "لئن طالبتنى بذنوبى لأطالبنك بكرمك، ولئن ناقشتنى فى الحساب لأطالبنك بعفوك، ولئن حبستنى فى النار...لأخبرن أهل النار بحبى لك."

أما زينب فلقد انسكب منها كل قسط اللبن وصرخت وهى تضرب صدرها بيدها فى جزع "ياحومتى من الوعد! سترك يارب...سترك." ولم تقرب بعدها شارعنا أبدا.

لكن ألم يسافر السادات لليهود بعدها بأيام؟ كرياليسون ... رب ارحم.

" لا تصالح ولو منحوك الذهب "

بعد الحرب بدأ الأولاد فى شارعنا يلعبون بكرات غير الكرة الشراب. اختفت البيجامات وحل محلها (ترنجات) أديداس. كانوا يبدون فيها مثل عصافير الكناريا وأسماك الزينة.

سوف تتسول من جدتك دقائقك، وتسأل من أين فيردون بفخر أنها من ليبيا ...، السعودية ...، من الكويت. لن تبكى وتقول "عايز زيها" لكن أمك سوف تلاحظ عيونك المعلقة من الشرفة، تتابع الأولاد وتقول لك: "طيب انزل العب شوية" ترد بحسم " لأ. " حتى أبوك حين يجلس فى الشرفة ليشرب الشاى ويدخن سيجارته المعتادة يسألك "مالك؟" لاترد ، ثم تفاجئه بالسؤال لماذا لايذهب إلى الكويت أو ليبيا؟ سيقول أشياء كثيرة لكنك لن تفهم، سوف تخبره فقط أن السعودية بها ترنجات أديداس وكرات كفر.

فى المساء، ستخرج معه إلى القناوى المحل الوحيد لبيع الأدوات الرياضية. سيعرض عليك ملابس عديمة الذوق وتبهت فى الغسيل. تتعزى بثلاث كرات كبيرة معلقة فى الهواء ثمن الواحدة ستة جنيهات. يقول أبوك أنك أصغر من أن تلعب بها ويسأل عن أخرى، خفيفة وملونة فيرد البائع معتذرا "دى بتيجى من الدول العربية." تعود خائبا ولاتحدث أباك طوال الطريق. فيما ينسحب النور، ويقع المساء ثقيلا على قلبك.

لكن خالك أحمد سيسافر إلى ليبيا. أرض الترنجات الأديداس. جاء من الإسكندرية لاستكمال أوراقه فى المنصورة. تتابع بشغف كل العائلة وهى تجتمع يوميا فى منزل جدتك، متحمسين لأن مندوبا من عائلتنا سيذهب إلى الجنة .

ويسجل الخال طلبات الأسرة. سيسألك هل تريد شيئا وترد عنك أمك "هات له ترنج أديداس." ستحبها أكثر من أى لحظة لأنها نطقت بالكلمة، وسيوافق خالك.

"هى أشياء لاتشترى" لكنها تتحقق مثل ليلة القدر، مثل خاتم سليمان ومصباح علاء الدين. ومن الآن ستتابع الأولاد مطمئنا. عام ...عام فقط ويصبح لديك الترنج. سوف تلعب معهم فى خيالك بالترنج، وفى حضن جدتك تقرأ الفاتحة لخالك أحمد. تندهش العجوز الطيبة ولا تقرأ الفاتحة بل تدعو له أن يعود بالسلامة. ساعتها ستفتح عينيك فى الظلام. القمر يضيء الغرفة مثل كرة. قمر أبيض ينحك تيقظا، سترى نفسك. تنزل إلى الأولاد. لقد نلت الأديداس. وصار لك الحق أن تقود فريقهم. فعلامتها المميزة على أكتافك. ثلاثة خطوط وعلى صدرك وردتها ذات الأوراق الثلاثة.

عام واحد فقط. لماذا لا تروح فى النوم عاما كاملا مثل أميرة الحواديت وتستيقظ لتجد الترنج.

هذا الليل، هل يدرى كم كان جميلا وطويلا لا ينتهى؟ هل يعرف كم مرة ارتديت فى أحلامك ترنج أديداس؟ سوف تتلهف مثلهم على خطاباته، ويدق قلبك مع كل مكالمة. لماذا ظل السؤال على شفتيك؟ لماذا لم تبك ولم تقل له فى التليفون أن يترك السماعة الآن وينزل ليشتريه. لماذا لم تطلب من جدتك أن تقاطعه أو تضربه أو حتى يا أخى أن تطرده من المنزل إن جاء بدونه.

عااام كامل.

تلك الليلة لم تنم. لأول مرة فى حياتك تظل متيقظا حتى الفجر. تكتم ضحكتك فى الظلام. تقول لفرحتك "زمى زمى". وتقوم لتصلى أول فجر لك. تتحسس حتى تصل الحمام ولا تفتح الصنبور عن آخره خوفا أن توقظ أحدا. ومع أول حركة فى البيت ستغمض عينيك وكأنك نائم .

لكنـك مـت وأيقظـوك فـى عـز المبـاراة، وحـين عـرض عليـك خالـك محمـود الذهاب معهم ، تذهب . السفر للقاهرة لأول مـرة. رؤيـة المطـار، الخواجـات، الجرائـد الإنجليزيـة الملونـة، المضـيفات، الطيـارين. الميكروفـون ذى الصـوت اللذيـذ الأنثـوى، الكافيتريا وقطعة المارون جلاسيه، الطائرات حين تقلع وتهبط . هـل يسـتحق ذلـك كله الحكى؟ سأحكى عن صلاة الظهر فى المسـجد وسـط فلاحـين وصـعايدة طيـبين. يدعون فترفع يديك مثلهم. وعن السندوتش الـذى لم تأكلـه، عـن نومـك فـى حضـن خالك محمـود الـذى أيقظك وقـال: "اصحى ياشـرف" فتصحو مـتعجلا . وتسـتكمل دعواتك عند السياج الحديدى الذى يتكئ عليه خدك فى تبتل. وعلـى بـرودة الحديـد رددت شفاهك الملتصقة بـه ألـف دعـوة، كأنـك تقبـل حروفـك. خالـك محمـود يقـوس ظهره ليمنع عنك الزحام فلا يفعصون جسـدك الصـغير. لكـن روحـك تطـير الآن. آه من أصابع هائلة ..من يسحق قلبك حتى يتبعثر؟ يـارب مـن أخـذ أنفاسـى وهـرب ؟ ومن ألقى هذه الغصة كالموس فى حلقى ؟

يظهر خالك أحمد، تحتضنه وأنت ميت. لقد عادت إليـك روحـك ودخلـت فـى شرنقتها . كلمة واحدة منه طوال الطريق ستعيدك إلى الحياة. لكن الكلمة لم تخرج مـن فمه. أنت غبى. لماذا لم تعرف نعم أم لا؟ لماذا لم تحصل على هـذه الـلا وتصـرخ وتبكـى فى حضن أمك مثل أى طفل صغير، ألم تكن طفلا وصغيرا؟

أقول لك الآن أنت حمار . خسرت حلما جمـيلا ، فلمـاذا لم تـدافع عنـه بالبكـاء؟ حتى لو لوحدك فـى الليـل . ظلـت دموعـك فـى صـدرك، وطفـا قلبـك عليهـا عطنـا كجثة. لماذا لم تكرهه؟ كل هذا الأدب والاحترام فى طفولتك للناس والجيران والأقارب، حتى مع الأولاد قليلى الأدب. فلماذا لم تبد بعض الأدب وبعض الاحترام وتبكـى علـى حلم صغير مات؟

اطلع من نافوخى. أنت لم تبك فهذا شأنك وهذا غباؤك. كنت مازلـت تعتقـد أنك الأمير الصغير، فلم تبك مثل رعاياك من الفقراء، وممن لم يسـافر أبـوهم إلى أرض الأديداس. كما أنك لا تذكر الحجة بالضبط.

وكيف تذكر؟ ما إن سألته أمك حتى نقر البوم قلبك وعرفت أن لا. هل لأذنيك ساعتها أن تسمع؟ هل لذاكرتك أن تحتضن الشوك ؟ وهل لقلبك أن يعى دق المسامير؟

أنت غبى لماذا لم تهرب إلى الشارع ولم ترجع؟ أيها الولد الصغير... كان من الأفضل لك ألف مرة أن تكره من أن تتكسر روحك وتقع فى الأسر.

لقد تعلمت الهزيمة. أول هزائم القلب ولم تكن أبدا آخرها. عشت بعدها طوال عمرك تتعثر فى أحلامك الميتة، ولا تبدى بعض الشفقة فتبكى عليها.

ستظل بجوار خالك. ساكنا كصنم. كنت بالتأكيد فى نظره شيئا مزعجا يلتصق بملابسه كبرغوث. لكن هل يعلم أنه كان إلهك؟ هو يعرف أنه عند أقل رغبة فى شراء شيء، سجائر السوبر أو الطعمية والعيش البلدى الذى افتقده، ستهب من أجله. هل يرضى عنك ويذكرك؟ هذا الطفل الذى وعى جيدا أصول الرق... إنه الآن عبدك. انظر فى عينيه، وستعرف صدقه وإخلاصه ومثابرته على طاعتك. فلماذا نسينى؟

وحتى العام القادم ...

يا ربنا الحقيقى لماذا لم تطهرنى من هذا الشرك، وتلقى فى قلبى كراهيته، أو تنعم على بالنسيان؟ نسيان ترنج أديداس. تركته يسمنى بالرق. فعندما اشتريت له علبة سجائر، جعلنى احتفظ بالباقى. أنا والله العظيم لم أكن أريد هذه النقود الفضية. ماذا أفعل بها؟ لكن إن رددتها إليه هل يغضب علىّ وينسانى؟

يا ربنا الحقيقى... أنت وحدك تعلم أننى ...تماما مثل اليوم الذى سرقت فيه عشرة قروش من حصالتى. صرفت قرشا واحدا، وعدت إلى جدتى بيد مبللة بالذنب. أنت تعلم أننى ألقيت القروش التسعة الباقية فى بركة ماء. تماما كما ألقيت بقية الترومان.

عام ..فعام ..فعام.

شاخ فيها العصفور الصغير فى سجن ثلاثة قضبان قماشية . قضبان الأديداس. وفى العام الرابع، حين لم يعد هنالك من سفر. مشيت ورائه كعبد. واعيا أن صك الرق مفقود، ولن تناله أبدا، واشترى لك ولابنه نفس الترنجات القطنية تشجيعا لصناعتنا المصرية الوليدة ..الخالية من عطر الأحلام. كم مرة قلت إنك لن ترتديه. لكن أمك أجبرتك أن تفعل.

رغم كل شىء صرخ كونتا كينتى أن اسمه توبى، ولن تهرب فلقد كسروا ساقه وقلبك .

هل يهم الآن أن تذكر أنك وجدت فى الحقائب ترنج. ترنج أزرق أديداس لابنه وليد؟ ما يهم أن رب الأطفال منع وليدا من تسجيل هدف واحد. هل يهم أنك قد تتسبب الآن فى مشكلة عائلية، وإحراج أخيك الذى تزوج بابنته؟ ما يهم أنك حين سمعت الخبر قلت: أنا لن أصالح... "أترى حين تفقأ عينى ثم تثبت جوهرتين مكانهما. هل أرى؟ هى أشياء لا تشترى."

ولن أسامح .

الطلوع في التنظيم

سرت شائعة قوية أن نصف الشارع "طالع فى التنظيم". كان البعض يستكثر أن يقع هذا البلاء فكان الحديث يغلق فى التو بـ "فال الله ولا فالك" ونام الموضوع.

لكننا تأكدنا حين بدأ الصويت يندفع من قلب البيوت. كانت أوامر الإخلاء والإزالة يحملها البريد الحكومى الأصفر المثقل بالأختام. تأكد الأمر حين بدأت عائلة الأسيوطى وبتوع الزيتون فى جمع عفشهم والرحيل. كانت عربات الكارو تمتلئ، وقد وقف فوزى الأسيوطى يرص ملة السرير والدولاب ويتأكد من ربطها بالحبل. كان المشهد إلى حد ما كريها، فلقد فضح فقر البيوت. كنت ترى المخدات والمراتب بعلامات عرق صفراء. بل كانت المخدات تتجشأ قطنا ملبدا قذرا .كذلك الحلل النحاسية المجنزرة أو الطاسات التى تحول لونها للأسود. وأشياء أخرى غريبة: سحاحير وكراتين وكافة أنواع الكراكيب.

كان أول خروج لزوجته أم شاكر وهى مغمى عليها وقد فرشحت ساقيها فى تشنج. وكان كل طفل يحمل شيئا من العفش لم يستأمن عليه العربجى. فكانت مياء الصغيرة تمسك بعروستها القماش القذرة متهدلة مثل قطة مخنوقة، وفى اليد الأخرى وابور الجاز. بل إن حموقة الصغير وهو اسم محمود محموق حموقة كان يمسك بقصريته فى اعتزاز. أما فوزى الأسيوطى فجلس أخيرا بجوار العربجى وقد وضع الراديو الكبير على حجره. مشى الحمار وئيدا يئن تحت حمله، وتذكرت البيوت المهجرين فراحت النساء من الشرفات تطل صارخة أو باكية صدقا أو مجاملة. واندفع عبد الحليم يغنى متعمدا هذه المرة من جهاز تسجيل بسرية بصوت نائح

بعد رحيل بتوع الزيتون راحت بيوت أول شارعنا تخلو فى ضجيج أقل. واندفع مقاولو الهدم كالنسور التى طالما راقبت فرسا عاصيا محتضرا، وفى صبيحة اليوم التالى انقضوا على فريستهم. كانت جدتى تتابع ما يحدث فى حزن وخاصة حين جاءت أم عطيات لتسلم عليها. لم تقرأ لها الفنجان بل راحت تبكى لأنها ستغادر حتتها وبيوتها. لم أتابع كل ما يحدث، لكنهم قالوا بعد عودتى من المدرسة أن أبلة فتونة، والتى لم تخرج من بيتها منذ أكثر من عشرين سنة وهى أكثر بدانه من الست فريال بل ومن عم أحمد لكومادس، فلقد كانت عجيزتها مثل برميلين اختبأ فيهما طفلان وغطا رأسيهما بالسواد، اضطر زوجها أن يستعين بالمطافى لتخرجها من البيت. وكنت أتمنى أن أشاهد ذلك.

• • •

بدا بيت الأسيوطى فارغا ومهجورا كأنها منذ دهر. بل صار يصعب تصديق أنه منذ أيام فقط كان عم فوزى يقف فى شرفته، وأن الأولاد كانوا يمرحون على السلم مثل العصافير، جلبتهم وصراخهم كأن لم تكن. وافتقدت البيوت ألوان غسيلهم على المناشر، وافتقدتهم القطط التى كانت تدخل بابهم المفتوح، وكنت أفتقد حموقة لأننى حضرت سبوعه ورأيت لونه البنى وعيونه المغمضة ونحن ندق الهون بينما هو فى سابع نومة. ولما بدأ يحبو بخطو صغير كنت أراه ولدا جميلا وأحس أنه عزيز علىّ لسبب لم أفهمه.

كذلك أصبح التراب لا ينقطع، وسد أول الشارع ببقايا الحجارة والأبواب الخشبية والمواسير وكسر الزجاج والبلاط المخلوع وأحواض صينى نصف مبتورة وألواح خشب متآكلة لكثرة ما هرستها الأقدام. حتى الطوب حملوه طوبة طوبة فى عربات الكارو، وأحيانا كان الأطفال برغبة شريرة مشئومة يتابعون سقوط نصف جدار فى فرح. هكذا بدأت البيوت تخلو شيئا فشيئا.

كان الأمر مثل سكين يقتطع نصف البيوت. تزايدت حمى الهدد وأصبح شارعنا محاصرا ، فكنا نلف من شارع آخر لنصل إلى الشارع العمومى . وامتلأ الشارع بأغراب من عمال "التوضيبة" الصعايدة بسراويلهم وجلابيبهم، والألوان الفاقعة لنسائهم الناشفات الممشوقات القوام ذوات الصدور الكبيرة النافرة. افتقدت غنائهم الجميل القديم مثل "هون يامهون" و "سلم علاى" وكنت فى كل مرة أجتهد أن أحفظ أغنيتهم الأصلية. وجدتى تشرح وتحكى لى ركوبهم النيل فى مركب مكدس بالقلل القناوى وكيف أنهم حين يفتقدون على ظهر النيل صعيدهم يغنون: " فايتين على كوبرى قويسنا... خدنا الهوى قمنا نعسنا... واللى شبكنا يخلصنا... حبيبى." وكذلك دهشتهم من بنات مصر وجرأتهن فيغنى ولد أعزب متبادلا نظرات مع بنت صبوح "فايتين على كوبرى زمالك... وأنا نفسى بوسة ولم مالك... ده شغل يودى المهالك... حبيبى." بدا لى أن تراب الهدم قد شقق ألسنتهم وأسكت حناجرهم.

* * *

ولم يكن فى المشهد شىء جميل واحد، فالعربات الكارو تمتلئ بنهم وتأكل نصف شارعنا. وجاءت الأخبار عن شراء الحاج بهنس ربيع مرة واحدة لأربعة بيوت وجدت نفسها فجأة قد أصبحت على ناصية الشارع، وذلك لبناء عمارة واحدة ضخمة فى أسفلها مخزن للأدوات الصحية. كان الهدم يتم من ناحية والبناء من ناحية أخرى، لكنه استعان هذه المرة ببريمات وخلاطات أسمنت وبراميل معلقة على بكر تصعد إلى أعلى. وارتفع سعر الأرض ارتفاعا محموما، وقال البعض إن الموضوع لا صلة له بشارعنا، فالعائدون من الخليج زايدوا على سعر الأرض ولم يكن شارعنا قد دخل اللعبة ليعرف الأسعار الجديدة. فلقد باعت أبلة سعاد البيت القديم بخمسة آلاف جنيه ،وكان الرقم يمثل ثروة فى شارعنا. تناقلت البيوت الرقم بلهجة لا تخلو من الحسد وقالوا إنها طيبة وأن هذا رزق أولاد أخيها الأيتام. لكن التفريط فى المنزل هكذا لرجل غريب بدا فيه خيانة للبيوت. فالبيوت التى خرجت فى

التنظيم كانت مقهورة ونالت تعويضات متواضعة. وأحيانا تكتشف أوامر تنكيس وإزالة كانت قابعة فى الأدراج مثل دودة تنتظر الخروج للنور، فتقلص التعويض إلى جنيهات قليلة. ولم يجد أهلها أمامهم سوى مساكن الإيواء. كانت بعض البيوت بدءا من شارع البحر وحتى الجمعية الشرعية قد تحدد لها مهلة أخيرة إلى شهر مايو، بعدها سيزال البيت سواء انتهى العمل فيه أم لا. وزادت سرعة الهدم فالمحافظ وقتها كان سعد الشربينى ابن المنصورة البار، الذى كان يستيقظ فى الفجر للمرور على الأفران، لمتابعة أزمة الخبز، وكان له مجهود فى فك اختناق الزحام على أنابيب الغاز، ونفد صبره. وعلى هذا زادت سرعة العمل. وفى أيام معدودات لم يتبق من البيوت سوى أطلال وكثبان ترابية، أو مجرد نصف أسوار ترتفع إلى متر بالكاد وتنتظر البلدوزر.

بدا الموضوع كنذير شؤم، فلقد اصطاد الولد ماهر خفاشا ذات مرة، فصرنا نخاف الذهاب إلى تلك الأطلال. ونشط عم سعد الرفاعى فى صيد الثعابين. بل إن صقرا حقيقيا خرج من بيت العزونى المهجور الذى لم يكن أحد يدخله من سنوات. توقفت مباريات كرة القدم، وبسبب نقرة مشئومة مات عم محفوظ واختفى البربرى. حتى أبو صلاح لم يعد يظهر مهددا بالكرباج، الذى لم يحمله أبدا، جمان أفندينا، وكأنه يأس مرة واحدة من الزواج.

واستمر العمل وجاءت الكراكات والبلدوزرات والجرارات وكذلك عربات النقل. من الناحية الأخرى من الشارع، كانت تأتى عربات القمامة القديمة الرمادية وهى محملة بردم، تنتظرها وابورات الزلط واللودرات لكبسها ودكها فى الأرض، وكانت تخلخل الهواء وتئز بصفارة غريبة ليل نهار.

كانت الحركة غير مألوفة على شارعنا الذى استسلم طويلا لغفوته، وبدأ الشارع الجديد يتسع شيئا فشيئا مثل ميدان حرب رغم أنه كان فى السابق شريانا ضيقا. وأصبح الشارع أيضا يكشف عوراتنا. فمن جهة صارت بعض البيوت مكشوفة تجرحها نظرات بيوت أخرى اكتشفنا وجودها، وكأنها قد قامت بفعل

التنظيم. ورغم بعد المسافة النسبي فلقد صرنا مباحين لأغراب ليسوا من لحم البيوت فبدأت الشرفات تغلق. وتوارت القلل وصينية الماء التى يسبح فيها الليمون. وبدأت السيدات فى تغطية شعرهن أمام عيون الأغراب الفضوليين. وكان عم غنيم البقال، رغم ازدهار عمل البقالة لبيع العسل والطحينة والجبنة والحلاوة والسجائر الفرط للعمال، ضائقا هو الآخر لأن التراب يكاد يخنق دكانه. وعض كلب أجرب "البهلول" زوج أبلة بسرية. وسقط الشيخ عبد العزيز فى ذهابه لصلاة الفجر ودعى عليهم لكن السماء لم تستجب له.

ولم تتوقف الأنباء السيئة فعلى أطلال البيوت قامت غرز تبيع فيها سحن اجرامية الشاى والقهوة والجوزة للعمال. وجاءت كبسة من البوكس ذات ليلة فأخرجت الكشافات القوية بنات وأولاد قيل إنهم "بيعملوا قلة أدب!" وامتعض الكثيرون قائلين: " الله يلعنكم ياأنجاس يأولادا الكلب" خاصة أن بعض البنات كانت صدورهن مفتوحة، وأن الأولاد لم يمهلهم الوقت فخرجوا يتعثرون فى بناطيلهم الساقطة. وخرج معهم الولد مبروك، وهو طفل متخلف قيل أن أحد أولاد الحرام استغل أنه مبروك وفعل به الفاحشة، فألقى أبوه على أمه يمين الطلاق. لكن البيوت لم تكن كلها من الأولياء والقديسين فالولد بدر، خرج مع من خرجوا مع بنت فلاحة "عينها كريمة" ممن يعملون فى الهدم. وبعد أيام قالوا إن أولاد ليل من اللصوص يسكنون تلك الخرائب، فلقد ألقى البوليس القبض على خمسة سرقوا محل صائغ وأخفوا الخزانة فى الخرابة.

• • •

صرنا كل صباح نستعد لسماع نشرة جديدة عما يجلبه هذا الوباء. وبدأ الناس فى التحسر على الدنيا التى قل خيرها. وبأسرع مما توقعنا بدأت عمارة الحاج بهنس ربيع ترتفع على ثلاث نواصي وتمنع الهواء والشمس عن البيوت المجاورة. لم يعد بيت الأعصر هو منارة البيوت. وصارت البيوت مهترئة ومباحة، ففى الليل كان عمال الحاج لايتوقفون عن تحميل عربات النقل بكرتونات السيراميك والبانيوهات

والأحواض والمقاعد الصحية فى إزعاج مستمر. كانت الوجوه دائما تتغير وتصيح فى جفاء دون أن تتوقف عن العمل "أكل عيش". ولم تجد البيوت من تشكو إليه فلا أحد يعرف بالضبط من هو الحاج بهنس ربيع الذى أنسى البيوت النوم.

ومع الردم والهدم تصاعد التراب أكثر، وكانت السماء سوداء، قريبة، مطبقة فوق رؤوسنا. كأننا صرنا بنى إسرائيل وكأن يهوه يعاقبنا فنتق الجبل فوق رؤوسنا.

كنت أرى أبى يغض بصره إن وقف فى الشرفة، وكأنما كانت عيناه تقعان على حرمة، فأن تتلصص عيناه فى صالة بيت عم فهمى أبونازل أو أن يعرف أن هذه الغرفة كانت غرفة بنات أم صفاء وكذلك أن الحمام البلدى القذر كان لعائلة أم عطيات، كان أشبه بمن يأكل لحم أخيه ميتا .

وكان مشهد سقوط سقف متهاو، أو جدار وقف جنبه الصعايدة فى إهمال ولامبالاة، ينتفض له قلب جدتى، وأحس بها تجفل وتحتضننى فى الشباك وهى تغمغم "ياحول الله يارب".

كنت ترى حيرة الكلاب والقطط لضياع هذه البيوت التى كانت عمارا، ولم تضن عليها بلقمة أو ببعض العظام أو سفايا السمك، ولم يكن يكلفها ذلك سوى شلوت أو بسة لطيفة. بل أستطيع القول أن حمار الخواجة منير نفسه افتقد ظل تكعيبة الياسمين الجميلة لأم محمود. وأعلن عم لكومادس الحداد العميق على شجرته الكبيرة التى اجتثوها، وحملوا أغصانها الخضراء ولحائها على أكثر من عربة زبالة. كان لحاء الشجر وأعواد القش وأوراق خضراء وأغصان رقيقة قد سقطت، وكذلك أعشاش بها فراخ عصافير لاتزال مناقيرها صفراء تغطى أرض الشارع. كانت عيونه تودع عصافيره لآخر مرة. وبدا عم أحمد لكومادس ونحن نراه من شرفاتنا هو وابنته مجرد نقطتين دسمتين قليلا على الشارع العارى. صحيح أنه عمل مظلة. لكن الأغراب والأطلال الخراب والغزاة جعلوا الرجل يفقد وزنه سريعا ولم أصدق أن هذا بسبب السكر. اختفت ابتسامته وصار نزقا معتل المزاج، خاصة أن مصنع البسكوت الملون

لجاره عم زقزوق رحل هو الآخر. لم نعد نشترى منه ساندويتشات الجيلاتى وصار يتخانق مع الغبار الذى يضر بجيلاتته. ومع سقوط المطر فى أول الشتاء وقف مبلولا هو وابنته. وصارت الكثبان، الطينية الآن، أماكن زلقة يسقط من عليها الأولاد ويسيل العسل على أيديهم ممتزجا بالطين، فراحت القروش القليلة تتمنع عليه.

وكانت جدتى تنظر من وراء الزجاج، وتسرح أحيانا مع قطرات المطر. هل كانت بخيالها تدخل غرف البيوت ؟ أم تعيد تخيل أهلها وصباحات الفل فتبتسم؟ أم تتذكر لحظة الفراق حين تحتضننى وتقول: "مادايم إلا وجهه."

* * *

بدأت مواسير المياه والمجارى والتليفونات تصل لكل البيوت، وأدخل عم سعد الرفاعى الكهرباء أخيرا. كانت بيوتنا وهى بعيدة نسبيا عن حنك الوحش قد تأثرت أيضا؛ فلقد أصبحت حجارة الشارع بثورا تنتشر وتشوه ذلك الشكل الجميل القديم. وامتنعت الحناطير عن دخول شارعنا كان الشارع قديما معبدا كله بحجارة سوداء ملساء، صارت الآن مكعبات منهارة. لا نأمل فى عودتها كما كانت، ولم يكن هنالك من أمل قريب فى أن ترصف البلدية شارعنا.

وافتقدنا لمعة تلك الحجارة الملساء حين يسقط عليها المطر ويخب عليها حصان عم ملاك، ففى ذلك الشتاء أصيب شارعنا بوحلة شديدة جعلت خروج سيدات البيوت نادرا. كان الشارع يبدو فى أعيننا وكأنه تعرض لصيد غير مشروع بتفجير الديناميت. وحجارته التى غاصت لسنوات فى القاع تطفو الآن مثل أسماك ميتة على نهر الشارع، راحت تصيب الشيوخ بالتعثر وأقدام الأطفال الحافية بالدم.

وكنت أتمنى أن أعيدها، أنا الذى احفظ تاريخها، مثل مكعباتى بيدى الصغيرة إلى مكانها. لكن انهيار البيوت كان عنيفا وسريعا فى ذاكرتى.

* * *

كذلك ارتبط سقوط البيوت بحوادث أليمة فلقد قالت لى جارتنا الطيبة أبلة سناء على السلم إن ليمو قد أصابه قراد. كنا فى الأيام الأخيرة نطأ أحيانا على السلم حشرة غريبة تشبه حبة الفول، ذات لون اخضر يضرب إلى الزرقة، تنفجر بدم غزير وقان وتثير القرف. المشكلة أن حبة الفول كانت تدخل أحيانا إلى شقتنا، فنهرتنا أمى أن نربت عليه. وبدأ القراد يتغذى على فرائه الذى راح يتساقط على سلمنا المغبر كالشعر الأبيض. وأصيب ليمو ببقع حمراء تبدو واضحة على جسمه وقد شح فراؤه، والتصقت بها حبات الفول. ورغم أرجلها الصغيرة لم تكن تستجيب لحمامات دعاء أو لحكة ظهره فى الحائط أو نفضه لجسمه. وكانت دعاء تصرخ عليه أن هذا هو آخر لعبه فى الشارع.

وشيئا فشيئا فقد معظم شعره وصار جسده صغيرا أكثر مما تعودناه. بدا لونه ورديا مغبرا، تنقره حبات الفول كأزرار الثوب. فى أيامه الأخيرة، كان يحن للخروج بشدة، ويقف بقدميه الأماميتين على الباب، وينبح نباحا ضعيفا يائسا، فيما تتشبث دعاء بالبوابة وتقول:

- والله ماإنت خارج الشارع شوف انت عيان ازاى؟

وحين يخمش قضبان البوابة محاولا بلا جدوى تصرخ فى حدة بين دموعها:

- عايز تروح لها ياجربان ؟

ويبدو أنها ضبطته فى إحدى الخرابات فى فعل فاضح، وأنها تعرف كل شيء. لكن ليمو كان يسهيها، ويخرج من بين أقدام تدخل أو ترحل عن بيتنا.

وفى أيامه الأخيرة جدا، بدا هادئا مستكينا. وبدت دماؤه التى جفت ملتصقة بالسلالم فى بقع متناثرة الحواف. والقليل الذى تبقى كانت تمصه بلا توقف تلك الحشرات العنيدة. عاف ليمو الطعام وقنع بلحس القليل من ماء مسح السلم. وفى محاولة أخيرة من حسن، رش ظهره ببودرة الكفروبيد وصرخت فيه دعاء، لكنه أكد

أنهم فعلوا ذلك أيام الحرب فى الملابس الميرى .

فى اليوم التالى، استيقظت البيوت على وفاة عبد الحليم وصراخ يسرية "ياحبيبى يا عبده" واشترت عددا تذكاريا بخمسة جنيهات يحمل صورته، وارتدت عليه السواد لأيام. وانتحرت خادمة فى الحسينية لوفاة العندليب . اختفى ليمو فى الوقت الذى صدح فيه بيت يسرية، وسيستمر ذلك لأسبوع كامل، بالقرآن و "على قد الشوق" . ذهبت يسرية إلى مولانا تطلب أن يقرأ ها ماتيسر على روحه، فرفض الشيخ بعناد . لكنها أجزلت العطاء للشيخة آمنة، وهى مقرئة كانت تقرأ للنساء فى المآتم بدون ميكرفون. هكذا النساء ناقصات عقل ودين، قالها مولانا فى حسرة حين عرف أنه أضاع على نفسه عشرة جنيهات كاملة.

وفى الصباح استيقظنا على خبط شديد على الباب، وقالت دعاء وهى تنشج وتشير بإصبعها الصغير لصدر أبى :

- قتلته ياعم حسن ؟!

ودافع حسن عن نفسه كثيرا ، لكننا لم نسامحه. ولم يقدم من جانبه بعد القتل الخطأ كلبا آخر ، كدية مسلمة إلى أطفال البيت، وسألته بعد خصام طويل :

- هو ليمو حيخش الجنة ولا النار؟

- الجنة.

- مولانا قال مافيش كلب حيدخل الجنة غير كلب أهل الكهف.

وألهم الله حسن فقال :

- اللى يدخل الجنة يطلب من ربنا اللى هو عايزه ..ادخل انت الجنة واطلب من الملايكة يبعتوا لك ليمو . بس الناس فى الجنة بتنسى كلابها .

لكننى كنت متأكدا أننى لن أنساه أبدا ، وجريت لأخبر دعاء فقالت فى فرح:

[illegible] اول كلب فى الجنة وحيقعد معايا أنا .

وخفت أن أخبرها بغير ذلك. على أى حال هى لا تصلى الجمعة ولاتحفظ القرآن و جدول الضرب فلن تدخل الجنة أبدا . لكننى خشيت أن أخبرها فتجرجر حسن فى المحاكم ولا تلعب معى.

• • •

ظهر فى شارعنا يوم وفاة ليمو عم عوض. وتذكرته البيوت. فلقد عاد هو وزوجته من السعودية، حيث كان يعمل كسائق أتوبيس، واصطدم أثناء عمله فى بلاد الحجاز بجمل شارد أكبر من جمل المحمل قلب به الأتوبيس. عاد لنا على كرسى متحرك يرتدى ملابسا ثقيلة وكوفية وقفازا من الصوف الأسود . يهمهم بكلمات متألمة، بطيئة، ونصف مفهومة. وعلى من يريد التفاهم أن يكتب له فى الكراس الذى يحمله دوما .

فى ذلك الوقت كان الدبش الأبيض الذى يملأ الشارع الجديد "شارع بورسعيد" غير ثابت تحت أقدامنا ويذهب بلمعة أحذيتنا . فى صباح العيد كان الأسفلت والقار يغطيان الشارع .وافتقد الأطفال مراجيح أبلة زوزو وطبوها الملونة ونظاراتها ومسدساتها البلاستيك الرخيصة فلقد انقضت السيارات مارقة فى الشارع فدفعت مرجيحتها ونصبت فرشتها بعيدا عن البيوت .

أما عم عوض فكان أكثرنا استمتاعا بالعيد، فلقد ارتفع بسرعة جنونية بثلاثة أدوار مخالفة وارتفع بيت الكمان بيت، أبلة سعاد قديما، حتى صار سبعة طوابق مرة واحدة.

صار البيت يجرحنا، لكنه وبمهارة غريبة سوى الموضوع مع مجلس المدينة رغم تحذير الناس له أنه خرج مترا كاملا إلى الشارع، وأن البلكونات الصغيرة خرجت هى الأخرى مترا آخر بعد الدور الأول. وكادت تلك البلكونات أن تلامس عن اليمين

والشمال عم غنيم وعائلة النسيرى. قامت خناقة صغيرة، بعدها عمل قضبانا حديدية على جانبى الشرفات وارتفع بسورها الأمامى بشكل مضحك، فكنا نرى فقط رؤوس سكانها تبدو منها كأنها نوع جديد من القلل.

بدا شكل الشارع كله نشازا بهذا البيت بالذات، ففكرشه يكاد يلامس بيتنا. كما أن ارتفاعه الخازوقى لم يمنحه وقار العمارات البدينة الرصينة. كان أشبه برجل طويل جدا، نحيل جدا، أصيب بطنه بالاستسقاء، وكنا فى قرارتنا نتمنى أن يموت فى القريب العاجل.

ولم يكن الخناق مع رجل مثل عم عوض أبو سمرة سهلا. فهو صاحب علة ومرض، لن يسمع ما تقول، سيعطيك الكراس، والغضب لا يخط حروفا ولا يضع نقاطا. وهو مهاود دائما، فلقد قبل رأس عنتر وأبناء النسيرى الذين استنجدت بهم خالتهم وقال بلسان حلو، رغم أنه كان يبذل مجهودا ويمط كلماته "شوية زيادة" ويلتوى فمه ولسانه فى حركات كانت تتعجلنا إسكاته " احنا... أأهل يا....عنتر ..وانت ..زى ابنى حققفك.. على رررراسى."

المدهش أن رأسه الصغير حمل حقوقا كثيرة ولم يسقط. فلقد حصل على خلوات وأسكن العمارة كلها لمحامى، لطبيب ، لعائلات. ولم يسكن هو فيها. رغم أن السكن فى الدور السابع بدا مستحيلا ولو بدون خلو رجل، فلقد أسكنه لمحاسب قانونى بخلو رجل ٥٠٠ جنيه وإيجار خمسة عشر جنيها. كان هذا رقما فلكيا وقبل أن يرفع يده عن البيت، أجر الدور الأرضى كمخزن للخواجة منير فانوس بألف جنيه خلو، وثلاثين جنيها إيجار. واستعان الخواجة منير بجانب حماره بعربتى نقل، وشهدت تجارته الغازية ازدهارا ملحوظا. فلقد ظهر فى ذلك العيد زجاجات السفن أب والأسبورت كولا بطعم الصودا الحقيقى والقوى الذى نسته البيوت مع الكوكاكولا، تحت رعاية شركة النصر الوطنية لتعبئة الزجاجات. وأصبح موردا لأحمد أمين الذى يبيعها بسعر ستة قروش.

كان يوم ظهورها حدثا، فلقد ظهرت فى مدينتنا فى شارع العباسى لأول مرة فى آخر رمضان، وأفطر الكثيرون عليها. شربوها مثلجة على بطون خاوية. قال الشيخ حامد بعد الدرس لجدتى: "كلامك صح ياست أم محمد الدنيا اتقل بركتها" وأصبحت عربات عم منير تمنع نهائيا لعب الكرة ومط شفتيه هو الآخر بـ "آكل عيش" فتوقفت دورتنا الرمضانية وانزوى خالد ورفاقه .

وظل عم عوض يتنقل من بيت إلى آخر. كان يجلس بالقفاز الصوفى والجورب الصوفى وعباءته السوداء وفى يده مسبحة راكدة لا تستطيع أصابعه تحريكها. ليتابع العمال ويشرف منذ الصباح الباكر على العمل ويجادل بلسانه الثقيل فى كل مليم وثمن كل بكرة شيكرتون، حتى قامت عمارة أخرى. وبصفقة رابحة خرج بشقة لأولاده، وملكية بيت آخر، وإيجار شهرى وصل مع الشقة المفروشة التى أجرّها لطلبة عرب إلى ١٥٠ جنيه فى الشهر، ولم تتوقف بيوته. وامتلأ الشارع بطلبة ريفيين لا نعرفهم، كذلك بطلبة خليجيين بدأت تفوح منهم رائحة الخمر، وأشياء أخرى مثل صعود ونزول بنات غير فقيرات المظهر أبدا وغريبات تماما عن شارعنا. ولم تسلم البيوت من رذالتهم، فلقد تعرض أحدهم لأبلة أزهار زوجة الأستاذ ناصف وأنقذها عم سعد.

• • •

لكنه كان دائما يستلقى فى الشمس على كرسى بحر. ظل مواظبا على ذلك بعد انتهاء بناء البيت. ولأنه لا يتابع أحدا أو ينفق نقودا، كان بوسعه الآن أن ينام. تكرر ذلك مع كل عمارة خالية يحرسها حتى تغيب الشمس وكأنه يجد أمنه فى النوم فى ظلالها أو بجانبها، مثل حارس أمين.

ولم نفرح بافتتاح الشارع، فليلتها اندفع صراخ عنيف من بيت أم أشجان جمان أفنديا، وعرفنا أن خالد أصيب فى حادثة ويرقد الآن فى المستشفى.

حشائش البحر

بعد رحيل المجدلية "محضية" ، قفزت يسرية إلى أدوار البطولة، والحديث عن يسرية يجرنا للحديث عن المهجرين. فلقد استقرت عائلتا أبو العربى فى أول شارعنا، وقبل حرب أكتوبر كان التعاطف الذى أبدته البيوت أول مجيئهم فى سبيله إلى الزوال. فجدتى تحكى لى فى حزن عن ذلك الحدث المرعب أن تضرب مدنهم بالقنابل وأن تندك البيوت فوق رؤوسهم فيفرون منها كالعصافير. ما إن ينتهى القصف حتى يعد الأب أبناءه، ومن تحت الأنقاض يحاول أن يحمل أقصى ما تناله يداه، ويتجه إلى البحيرة ليلحق المعدية. بعد ذلك ينتظرون السيارات النقل لتفريقهم فى المحافظات. كانوا يتشبثون بأشياء بسيطة هى كل ما يمتلكونه الآن، مرتبة أو حصيرة، وهناك من تشبث بأوراق ومفاتيح كأنه متأكد أنه لا محالة عائد وأنه حتما سيحتاجها ...يوما ما. كان عم العزونى يخرج هذه الأوراق مؤكدا عزا قديما ومجدا رهن الإيقاف. مثل حجة البيت وأوراق شخصية وشهادات ميلاد. أما عم سيد فكان لا يحمل، وفى فخر، سوى القادوم أى الشاكوش.

كانت العربات تلفظهم فى مدرسة المعلمين القديمة حيث أخليت الفصول، وتشاركت عائلات كاملة فى الإقامة فى فصل واحد، متكدسين بجوار بعضهم البعض. كانت توزع عليهم بطاطين الجيش الرمادية ذات الوبرة الخشنة، ويصرف لهم عن كل رأس عشرة قروش كاملة. كان مشهدهم فى الصباح أمام دورة المياه مقبضا، وصار منظر امرأة أو حتى بنت بنوت تحمل ملابسها وصفيحة ماء خالية وفى اليد الأخرى وابورا وهى تقف فى الصف للاستحمام مشهدا عاديا.

كان البعض يجلسون فى الحوش بنظرات فارغة فى الشمس، تحت حروف

كانت حمراء يوما تقول "جونسون جونسون يامسكين ..بكره حندخل فلسطين" وقد حال لونها إلى بنى محروق. وفى الشارع بدأ الشيخ حامد قيادة حملة تبرعات. وحين استقر عم سيد والعزونى لم يكن لديهما أى عفش اللهم قادوم عم سيد .

قالت جدتى إنهم صيادون. لكن عم سيد كان نجارا فالقادوم يؤكد ذلك. أما عم العزونى فلقد قام بتأجير عربة فول وبدأ فى بيع البكلاويز المطبوخ. كان سر صنعته البورسعيدى لا يجتذب أهل البيوت ، لكنه استطاع أن يقف أخيرا بعربته فى ميت حدر وهناك استقرت أوضاعه. على ذلك فلقد نظر إلى أهل شارعنا نظرة معادية معتبرا أننا من اللئام الذين لم يقدروا صنعته حق قدرها .

كان عم سيد قويجى يعمل طوال النهار فى الحفر على الخشب بالأزميل فى صبر وفن. وجعلت الظروف التقارب بين العائلتين حميميا ، فهم معظم الوقت، مثل السمن والعسل. تخالهم عائلة واحدة. وتجاوزت علاقاتهم العائلية حدود الدور الأرضى الذى سكنوه فى بيتين متقابلين. فكانت تخرج مدام العزونى ومدام سيد للشارع بقمصان النوم، وكانت هم زيارات لا تنقطع وعلاقة خاصة بيسرية بلدياتهم، والزوجة الجديدة وقتها لعم بهلول. كانت نساؤهم يرتدين قمصان نوم مكشوفة. تلتصق بها أرداف رجراجة، ويبدو من تحتها مثلث حميم يفصح عن نفسه فى لون غامق.

كان أمرا عاديا أن يفترشوا الحصر عند العصر على أول الشارع. فتجلس النساء والأطفال فى حلقة كبيرة، و يتبادل الرجال تدخين الشيشة. أحيانا أمام السبرتة كانت النساء يقرأن الفنجال أو يفتحن الكوتشينة، فيما يلعب الرجال الطاولة. كان شباك الحجرة مفتوحا دائما عن بنت تغسل الغسيل أو تقف فوق الشباك لنشر . وكانت نساؤهم يحملن فوطة حائلة اللون. تثير الغضب أكثر مما تدعو إلى الأدب. فالفوطة القصيرة تتبادل وضعها على ساقيها وصدرها نصف المكشوف. لم ترتد واحدة منهن ملاءة أبدا ، رغم أن يسرية نفسها تعلمت لبس الملاءة فى شارعنا . ولم تغط واحدة شعرها . بل كانت بنات عم العزونى، وهن عرائس

فى سن الزواج، يمشين حافيات دائما بشعر طويل مفرود أسود يصل إلى آخر ظهورهن، وكن يقابلن نظرات الضيق باندهاش، ويعدوننا فلاحين. قالت جدتى إن البحر وعشرة الخواجات قد عودتهن ذلك، لكن البيوت لم تقنع أبدا أن شارعنا هو بلاج عائلتى أبى العربى .

• • •

الخناقة تقوم بين العائلتين بلا سبب. ويتعذر التدخل لفض النزاع بين امرأة وأخرى ، فليس هناك عادة ما تجذبها منه. تبدأ الخناقة دائما بأن يخرج عم سيد فى عز القيالة أو عز طوبة بالفانلة واللباس(وهو الزى الرسمى للخناق) وبعد الخناقة، تبدأ طقوس مدهشة ومتعمدة: مثل تبادل قذف الطوب فى الشباك المغلق. وما إن تعود العائلة تلك الخطوات المعدودة إلى بيتها. حتى ترد العائلة الأخرى بنفس الأسلوب .

وأوضح المحاربون فى شارعنا أن هذا أسلوب من أساليب استعراض القوة، حتى لا نظن بأنهم ماداموا مهجرين فهم لقمة سائغة. أما ما كان يدهشنا فهو الأسلوب الحربى فى الخناق، حيث يبدأن المعركة وينهينها. صار شارعنا مسرحا لنزوات جديدة فما إن نظن أن الخناقة انفضت إلا ونجدهن فى الصباح قد وقفن فى مواجهة بعضهن البعض وقد حملت كل واحدة صفيحة الغسيل الفارغة. وراحت تدق عليها فى كلمات موزونة: "ياوسخة ..تربت تت تت" إلى آخره من ألفاظ فاحشة، فيما وقف الأطفال بغطيان الحلل مستخدمينها كصنوج بل كان بعض أولادهم يزمرون بمزامير المولد. ورغم أن هذه الألفاظ كانت بالطبع واردة فى شارعنا لكن بحدود وفى تباعد. ولكن أن تستمر بمصاحبة الطبل والتار فهو شيء جديد على البيوت.عدا ذلك كانت هم حكاياهم وأسرارهم التى خاف الكثيرون من الاقتراب منها. وفى الليل يعود امتزاج السمن بالعسل فيسهرون مع الشيشة وأغانى الراديو.

كان وجودهم على مدخل شارعنا يثير كثيرا من الضيق. فلقد بذلوا مجهودا هائلا ليصبحوا من لحم البيوت، ولما تحفظت البيوت، صاروا يتفرسون دائما في العابر أو الغريب. يبدأونه بالسؤال "عايز مين؟" كان ذلك يعد تطفلا وكأن ضيف البيوت طابور خامس وكأنهم — رغم أنف البيوت -عيون بصاصة ساهرة على أمن الشارع.

وكان أولادهم ينفرطون على سلالم كل البيوت في السبوع والطهور والأفراح والمآتم. بل حتى في الأوقات العادية، بذاكرة حديدية مذهلة، تحفظ أسرار البيوت وتنقلها بأمانة وبالحديث المباشر، ويبنى الفعل دائما للمعلوم فما حاجتهم لنصيحة الشيخ حامد "يبنى الفعل للمجهول خوفا من الفاعل أو عليه" وهم لم يخافوا منا أو علينا. لم نكن سوى محطة في سكتهم. وهم قد رأوا الموت، وماذا بعد الموت؟ ولا يملكون الآن ما يخافون عليه.

على هذا كانت زيارات عائلات السيد والعزوني تدهش أهل البيوت حين تكشف مع أول فنجال قهوة عن حفظ عميق لتاريخ الأسرة القريب والبعيد وكأنهم مندوبي التعداد. فكانت قلوب البيوت تجفل، وكانت الصدور واجفة وضائقة أبدا، تتعجل رحيلهم ولا ترد الزيارة. أما أن يسرية من أقاربهم فكان كفيلا بأن يستمطر اللعنات فوق رؤوسهم.

حين غربت شمس آخر نهارات غربتهم، وجاءت ليلة العودة إلى بورسعيد، أقاموا الزينات وسهروا حتى الصباح. يغنون ويرقصون مثل قبيلة إفريقية. فحتى ذلك الوقت لم ترقص بنات في الشارع إلا الغوازي، وجاءوا -لا نعلم من أين- بسمسمية، أثبتت أصابع عم السيد أنها تجيد العزف بنفس مهارة الإزميل، ورقصوا بالملاعق، وغنوا للحمام ..حتى أنقذنا الفجر. جاءت العربات، فحملوا القليل الذي جمعته غربتهم، وانصرفوا. ورغم مبادلة البيوت لهم الزغاريد عند رحيلهم، فإن كسر قلة، بل وأكثر من قلة، ورائهم كان حقيقيا. تماما كما شاركتهم البيوت فرح ليلة العودة بفرحة عميقة على أمل أن يعود الشارع إلى سابق عهده. وعلى طريقة

اذكروا محاسن موتاكم صارت البيوت تذكرهم بالخير، ناسية وقائع إقامتهم. ذاكرة فقط مشهد مجيئهم إلى الشارع. أما الدموع الحارة فكانت ليسرية التى ظلت تجرى وراء العربة النقل التى حملتهم ووراء أيدى العائدين التى تلوح وتمتد ها مشجعة أن تقفز، وكأنها مربوطة بخيط إلى بيوتنا، لم تكد تصل إلى أول الشارع، حتى تسمرت وجلست تبكى وجاءها ما جاءها.

• • •

لم تكن يسرية قد جاءت معهم، فلقد تزوجها الأسطى بهلول، وهو سائق نقل كسيب، وجاء بها إلى شارعنا. ولأن عم بهلول كان دائما على سفر، لم تترك بيتا إلا ودخلته بحجة أو بدونها. جاملت البيوت فرقصت فى الأفراح حتى انخلع وسطها، بل وقبلت عرسان البيوت فرحا بوجه مكشوف. ناحت فى كل مأتم، وشاركت فى كل جلسة زار، وهرولت إلى مشايخ النسيرى تستكتبهم الأحجبة. ومع وقوع أية خناقة أو الصراخ على مريض، كانت تخرج ملهوفة بقميص النوم لتعرف ما حدث. وكانت "تحت رجلين" عم تحسين وأول من صنع الفتة فى زيارة الخليفة سيدى برهام، كذلك كانت تقبل يد أبينا بطرس، وترسل الدعوات مع الخواجة منير إلى مولد الست دميانة. بل كان مولانا يقرأ ها راتبا معلوما. وزغردت لفريقنا حين حصلنا على الدورة الرمضانية.

لم تكن بالجميلة، لكنها قصدت المراهقين فى قضاء حاجات غريبة ها. ولم تنهر إلا بدلال وغضب مصطنع من تجرأ وقرصها. لم تخجل أن تمشى مع شاب أنجاجيه. ولم يجد أحدا عم بهلول ليطلب منه أن يلم زوجته، فهو دائما على الطريق ولا يعود إلا ليلا وقد ذهب الحشيش برأسه. كان صوتها مألوفا آخر الليل، وهى تصرخ متهمة إياه بخيانتها مع "بنت اللى واللى..." ولم نسمع صوت عم بهلول أبدا يفند التهم، أو يرفع أصداغها " قلمين". كانت تشكو دائما أنه يضربها، لكن ما رأيناه أنها كانت تطارده أحيانا بسكين، ومع مرور الأيام وثقل رأسه من الحشيش، وتنامى سلطاتها، اكتفت أن تطارده بشبشب بوردة.

أما موضوع أنها فى بداية خناقاتها كانت تحتمى من زوجها بأولاد الحلال فكانت النساء يقلن: "دى قلة أدب. نازلة تتحك فى كل واحد شوية."

ولأن "جتتها مش خالصة " وأن "اللى بيجيها يجيها" كان يغمى عليها وتسقط مسورقة على أرض الشارع، وتنكشف ساقيها، حتى يحملها عنتر إلى بيتها. تحت شباكها كان ملتقى الفريق، وكانت دائما من الشباك تلقى كلمات مكشوفة مثل صدرها.

• • •

كان أول مجىء لخالد، وهو يستند بل الأقرب يكاد يحمله عنتر، إلى شارعنا بعد الحادث، يوما حزينا. أخرجت له يسرية كرسى بحر من عندها. كان شكله غريبا فى الجلباب البيض حتى ظننت أنه "مطاهر" ، وكنت أتساءل كيف طاهروا شابا نبتت لحيته؟ كان شعره البندقى وهو أجمل مافيه لم يصفف إلى الخلف بعناية كعادته. بل سقط فى إهمال على جبهته. لعيونه العسلية هالات زرقاء ولأجفانه لون محمر. ولم يكن قد تعود لبس الجلباب فوقع أكثر من مرة. فى اليوم التالى، ارتدى بنطلون جينز مشقوق حتى أعلى الفخذ يخرج منه الجبس الذى هالنا شكله وهو يمتد من أسفل ساقه إلى إليته. وبدأ أعضاء الفريق فى كتابة أمنياتهم عليه بالشفاء. يوما فيوما، طالت لحيته أكثر. راح اللون الأبيض يفقد بياضه ، وتعود الاستناد على الحائط فى مواجهة بيت أفندينا، وبدأ يدخن، وخرجت له يسرية بكوب شاى والغريب أنه شربه.

وألحت يسرية تدعو خالد للدخول، وعرضت عليه أن يجلس فى الشباك على الكنبة بدلا من الوقوف فى الشارع:

-ياخويا تتدارى وتشاور إشارة للأبلة . وانت وأصحابك وحبايبك على راسى.

وسمعنا أنها تطوعت بحمل الرسائل إلى أشجان التى كانت ترتجف إن استوقفتها يسرية. ربما عاتبت خالد على ذلك، لكن الأكيد أن أم أشجان طردتها من بيتها. لكنها واظبت على تملق أشجان وأن تشهق قائلة "اللهم صلى على النبى" كلما نظرت إلى ساقيها. لم يعد مسموحا بدخوله البيت عمال على بطال لمجرد قراءة الفاتحة. ولأن موقع بيت يسرية استراتيجى، فلقد ظل الطريقة الوحيدة لاستقبال قبلته. وبذل المهندس مجهودا فى الهروب من مناوشاتها، وبدا معها متحشما ومتحفظا جدا.

لكن سرت شائعة قوية أن البنات ممن يصعدن الآن إلى شقق الطلبة، يمررن أيضا على يسرية. كانت قد تكفلت بتوريد الخادمات لتنظيف الشقق أو طبخ لقمة للطلبة العرب. لكن بنات أخريات فى بناطيل F . U . S شوهدن فى بيتها أولا. رغم مافى الأمر من أسى فلقد عرف بوليس الآداب الطريق إلى شارعنا. كان السبب فى ذلك عم سعد الذى أوقف إحداهن وسألها عن أصلها وفصلها، ولما لم تبد البنت فى عينها حصوة ملح وصعدت، عاد بعد ساعة ومعه بوليس الآداب.

على هذا قالت الإشاعات إن اللقاءات الأولى كانت تتم فى بيت يسرية. صحيح أن البوليس لم يقبض عليها أو يستدعيها لتحقيق، ولا جاءت سيرتها فى الموضوع لأن خدماتها كانت بلا مقابل، سوى أن ينالها من الحب جانب. والحب هنا بمعناه الحقيقى لا المجازى. لأن جريها فى الأعمال على المشايخ والزارات كان سببه لا يخفى على البيوت. ولم يخف على البيوت أيضا أن الحشيش قد ضعضع عم بهلول نهائيا. نظرت إليها البيوت باحتقار وغضب. وحرم دخولها على البيوت بأيمان مغلظة. لم تكن سيدات البيوت فى حاجة إليها، بل ربما جاءت فى وقت احتجنها لحفظ ماء الوجه، وردها كريمة من على الباب. كان أول يمين طلاق من عم سعد الذى حكى أنه دخل فوجد البنت إياها بلبوصا، وفى يدها سيجارة فصرخ فيها: "وكمان بتشربى سجاير؟"

وحين علمت البيوت أن الفاتحة قد راحت لحالها، وراح أشجان وخالد كل إلى

حال سبيله، راحت النظرات النارية الغاضبة اللاعنة تمسح يسرية في "الراحة والجاية" ولم يرد أحد على صباحاتها الفللي وكانت تصرخ من شباكها في النوافذ المغلقة :

- الله يجازي ولاد الحرام .

وحين توجهت بالحديث إلى خالد قائلة :

- وأنا ذنبي إيه ياباشمهندس؟ ده انت والأبلة في نن عيني من جوه.

توعدها عنتر بكسر دماغها إن نطقت اسمه مرة أخرى ورد خالد:

- هي ماها ياعنتر. خلاص ياست يسرية.

لاتحفظ ذاكرة البيوت متى تحديدا عادت إلى تجميع الرؤوس في كل شيء. لكن الثابت أن بوليس الآداب توقف عن الحضور إلى شارعنا. ربما خوفا على العلاقات العربية. أو لأن الموضوع صار فيه إحراج لسيادة المقدم إن جاءت فيه سيرته. لكن السبب الحقيقي كما عرفنا بعد ذلك بسنوات، كان نقله وسفره هو وزوجته شاهيناز إلى الصعيد الجواني.

سعيد فى اللعب

كيف سقط فى فخ القمار؟

وما هذه الرغبة الغريبة فى منع أصحابه من لعب الكرة ؟

كنت أختلس الذهاب إلى حلقتهم، وتستثيرنى اللعبة فلا أشعر بمرور الوقت. تعلمت أن أتابع بعيون مفتوحة على آخرها أرقام خالد. كنت أتمنى أن تصبح عيونى مثل زرقاء اليمامة فأقرأ له الأوراق المغطاة. أو أن أهتف به مثل ابن الخطاب "يا سارية ..الجبل" فيفهم أن عنتر ينام على ٣٠. وحين يقول "بره" ويلقى أوراقه كان قلبى يتبعثر معها، وأحس خدرا فى ساقى فلا أستطيع العودة إلى المنزل كأننى خسرت نقودى. حين يزايد على كارت مغطى بقرش تروح روحى، وحين يكسب فى النهاية كنت أتنفس الصعداء، وأقول له قبل انصرافى "سلامتك ياباشمهندس "

- الله يسلمك يا أشرف روح بقى أحسن بابا يزعق لك.

أسمعها وأنصرف راضيا، وإن كنت أذكر فى خجل أن أبى رآنى مرة وضربنى لأن القمار حرام.

• • •

"أنت بتقول له الورق ياروح أمك!؟"

صفعنى أحد أولاد المحنكرة لأننى صرخت رغما عنى "لأ" حين كاد خالد أن يقول "نايم". رأيته هذه المرة ينام على ٣٠. لم أكن أعرف رقم الباشمهندس لكنن تعلمت أنه حتى ولو نام على نفس الرقم يخسر ساعتها لكزه خالد فى عنف وقسوة

وقال   أنت بتتشطر على عيل؟" كنت أختنق بغصتى. وأكتم دموعا تكوى عيونى. بينما .نت جفونى ترف وأرى صورا هلامية أمامى. أخذنى فى حضنه وربت على كتفى ن أخبر جدتى بشىء حتى لا تعرف أننى خالفت كلامها ورحت أتفرج على "القمار نية" لكننى خجلت من نفسى، وأفلتّ من حضن خالد.

دافع عنك . لكنه قال إنك "عيّل"

• • •

لم يعد يذهب إلى الجامعة. فهو من الصبح على الأرض يوزع الأوراق. وفى الليل تخرج زجاجات البيرة الإستلا من ثلاجة يسرية بلا انقطاع. ويعلو فى الكاسيت صوت أحمد عدوية ملحا على البيوت أن تعطى الواد لأبيه. وكذلك معلنا للرائح والغادى عن مرض أم حسن وحرقها للشبة والفاسوخة بلا جدوى وضاع صوت غناء أهل الطريقة فى التوسلات الجديدة لعدوية بسلامتها سلامتها سلامتها سلامتها أم حسن.

جاء البوكس أكثر من مرة وأصبح خالد يختفى فى بيت يسرية حتى يمر. بدأ اللعب يثير أحقادا وعدوات بين أفراد فريق الكرة المعتزل. وراح عنتر يتصيد بعض الزبائن من شوارع أخرى عملا بالقول المأثور أنا وابن عمى على الغريب. وقالوا بهتانا وزورا أنه هو والباشمهندس يغشون فى اللعب . لكننى لم أضبط الباشمهندس يغش أبدا. إنه ذكى وشاطر وبارد فى اللعب مثل نصل سكين. وكنت أحسده على مهارته الورقية، وشاركنى عنتر الرأى حين قال:

- سعيد فى اللعب ...تعيس فى الحب ياعم خالد.

- أنا مايهمنيش ، العب يا " ..."

ساعتها ألقى عنتر الأوراق فى وجهه، وضرب زجاجة البيرة فى الحائط فتهشم زجاجها العسلى الغامق فى صوت حاد مبتور. وبرقبة الزجاجة دس

الشظايا فى عنق خالد وقال :

- لولا رجلك أنا كنت قطعتك. أنت أخويا لكن بأدبك. أنا عارف إنك محترم وبتحبها، ومن يومها قلت أنا مش بقرون. خالد أخويا وطالب الحلال.

كان الجو مكهربا، وسكنت النسمة وركدت عيون الصحاب كالبرك. لم يصدر صوت أو نأمة وأمكننا أن نسمع طنين ذبابة كبيرة زرقاء تحوم حولنا.

ظهر حز أحمر يضرب إلى الزرقة فى رقبة خالد، أعلى تفاحة آدم بقليل. ونز دما فى نقطة بطيئة ثقيلة على نهاية شعيرات ذقنه النابتة. انفض اللعب. وظل خالد وحده يعب البيرة ولا يحس وجودى.

كانت تلك أول مرة أسمع عنتر يناديه دون لقب الباشمهندس. كانت لأنفاسه رائحة حمضية، وعيونه التى طالما طوقتنى براحة عجيبة عذبة، فقدت الكثير من طيبتها وأصبح بياضها مصفرا. جفونه ذابلة على أطرافها احمرار دائم وخدوده منتفخة. يداه غير نظيفة يكاد وسخها يخفى شعر أصابعه الكثيف الأملس، وفى نهاية أظافره التى كنت أعشق استدارتها أهلة سوداء.

لحظتها كنت تكرهه. كنت تؤمن أنه يمثل، وأنه أحب هذه التمثيلية السخيفة. مقهورا كنت تجرجر ساقيك وأحزانك. فى عينيك دموع. ومطبات شارعنا الجديدة صارت بحرا غادرا، سوداء. سوداء مثل ليلتك وأنت تقف فى الشرفة وتسمع صوت يسرية وهى تسرع لتلبية طلباته وكأنها زوجة الباشمهندس "حاضر ياأخويا ...كفاية بقى ...ارحم نفسك" وحين قالت: "بكره تبقى زى الفل." صفعها وقال: "ادخلى يامرة يابنت القحبة " !!!!!!

لم تصدق البيوت أنه قالها، وفتحت نافذة أخرى رغم البرد من بيت أم أشجان لتتأكد أنه هو هو وأنها هى هى.

ياسيدى ... أنت شيخى وإمامى فى السراء والضراء، فى الصحة والعجز، فى الفوز والخسارة، فى الحلال والحرام. اثبت وتجلد، لكن لا تتخلى عن العرش. قليلا من المجاهدة، سيضيع أبناء طريقتك. سيطلبون ثأرا يطول، فلا تتهاوى. وقال لى الشيخ حامد يومها أن الحجاج هاجم الكعبة بالمنجنيق لينال عبد الله بن الزبير. كان هذا ليلة فك الجبس ولعله أدرك أن الحادث قد تسبب له فى عرج دائم. وصارت له ساق أقصر من الأخرى فظل العكاز فى يده.

• • •

فى ذلك الوقت بدأ خالد يدخن الرونمان وبدأ أيضا تجارته.

كانت بورسعيد قد أصبحت منطقة حرة. وفى زيارة فسحة. أجَر الباشمهندس على حسابه سيارة بيجو وسافر بالفريق. عادوا بحكايات طريفة عما فعلوه فى الجمرك. بعد أيام سافر الفريق بدونه فى نفس السيارة. وفى الليل عادوا بزفة وكلاكس بيجو لا ينقطع، ذكرنا بعودة عم مصطفى من لبنان و عودة الحاجة أمينة من الحجاز. توقفت السيارة فخرج من بطنها عشرات القمصان الشارلى وقماش التويد والديولين السادة والمشجر وعلب الكمبوت وثمار جوز الهند وحتى أقلام الرصاص. وأمسك الباشمهندس بورقة وقلم ودون أشياء وحسب حسابات، وأخيرا نامت البضاعة فى بيت يسرية.

فى اليوم التالى، كانت العربة البيجو تقف منذ الصباح الباكر أمام بيت يسرية، وودعتها عيون خالد التى لم تنم وقيل أن مكسبهم فى تلك الليلة كان خمسين جنيها صافية، وبعدها ...

عدل الأولاد عن لعب الكرة إلى السفر إلى بورسعيد. وصارت العربة اثنتين وثلاث يوميا، ولم يسافر الباشمهندس أبدا. وبدأت بنات يسرية من سن الإعدادى والثانوى أو الخادمات، وكذلك كل أعضاء الفريق المعتزل فى السفر يوميا إلى بورسعيد.

كانت البضائع تصطف كلها عند يسرية، وشرع خالد فى إرسال عنتر واخوته إلى البوتيكات بعد لحظات من حسب الحسابات فمن حسب الحسابات نام فى التبات. ولم تخف الحسابات على البيوت فصارت تعرف هى الأخرى سعر تسليم دستة الشرابات والقمصان والبناطيل الجينز والبلوزات الحريمى وأقلام الرصاص الملونة. شهد العمل فى بداياته إقبالا غير عادى، وقبولا من الباشمهندس لشراء أى شئ. فالقميص الواحد يدفع فيه ثلاثة جنيهات، رغم أنه معروف أن ثمنه الحقيقى اثنان وربع فى الدستة.

تكدست البضائع وزادت كراساته، فتحول العمل من شراء أى شئ وكل شئ إلى تحديد مسبق للبضاعة. كان عنتر يحمل سلامات تجار شارع التجارى إلى الباشمهندس الذى لم يغادر شارعنا والذى راح وزنه يزداد بطريقة غريبة، وكنا أحيانا نعرف أن زجاجة الأولد سبايس هذه هى هدية أبى العربى. كان من المثير للدهشة أن ترى من لا ناقة له ولا جمل فى موضوع بورسعيد يسأل عن الأسعار، وكأنه يطمئن على سعر البورصة. أمسي أمرا عاديا أن ترى أناسا لا نعرفهم يخلعون ملابسهم قبل المغرب أمام منزل يسرية لتكتشف تحتها أكثر من قميص أو بلوزة أو بنطلون. وكذلك الملابس الحريمى الصغيرة وقد تكورت فى صدر بنات لم يخرطهن خراط الصبايا بعد. كانت البضائع الآن تتكدس وقتا أقل، قبل أن تتخاطفها يد أبناء النسيرى والفريق، وتتحرك مرة أخرى ومعها خالد فى جولة قصيرة إلى البوتيكات لتسليم البضاعة، بعد أن أحيط سور نادى الشعب بحزام ملون من البوتيكات.

اجتذبت التجارة الجديدة الآخذة فى الازدهار خادمات وبنات فقيرات. وبدأت تدر ربحا على خالد وعنتر الذى صار هو الآخر يدخن المارلبورو وتتدلى سلسلة ذهبية من صدره، ويقود سيارة فردة لم نعرف هل هو صاحبها أم خالد. بدأ البيع بعيدا عن البوتيكات ولكن دون توسع عند يسرية، والحق أنه لم يمانع فى البيع لأهل البيوت بإكرامية خاصة. فغضت البيوت أبصارها عن دخول وخروج شبان وبنات فى

الثانوى والدبلوم لتغيير ملابسهم عندها. كان خالد يجلس بعصاه تلازمه أو ينقر بها على البلاط العارى. كانت أسعار شارعنا واقترابه الحميم من بوتيكات نادى الشعب قد أكسبته سمعة واكتظاظا بالأغراب. وقامت خناقة رهيبة، فلم تجرؤ يومها نوافذ البيوت أن تنفتح. ولم تثر الفضول أو حب الاستطلاع، خاصة أنها بدأت بإطلاق الرصاص ولم أر تفاصيلها، أو أعرفها من شاهد عدل. فقد لبد أهل البيوت يحتضنون صغارهم وقام الآباء فى مجهود يائس وسريع بإحكام إغلاق شيش النوافذ والشرفات. أما من كان فى الشارع، فكان مشغولا بالنجاة، وكانت الأقدام تطأ أجسادا فزعة لم تستسلم للصراخ والبكاء بل تزحف على بطنها ومؤخراتها، كأنها فرت من الطوفان، وسمعنا صوت البوكس وسارينة الإسعاف.

بعدها، امتنع خالد عن البيع العلنى، وعقد صلحا مع أصحاب البوتيكات، قرأ فيه خالد وعنتر الفاتحة على الخائن وابن الحرام .

• • •

لما كانت اللعبة تبدو سهلة، ظهرت بوادر التمرد على الصبيان الذين جرى القرش فى أيديهم، وأصبحوا الآن يملكون رأس مال. فطالب الدبلوم الذى يمتلك خمسين جنيها صار بإمكانه أن يزيدها إلى مائة فى أقل من أسبوع، وقد تعلم الدخول والخروج ، ويسلم للبوتيكات بسعر أقل من الباشمهندس. لكن خالد وأبناء النسيرى أمسكوا تجارتهم بقبضة حديدية، وعقدت اتفاقات جديدة مع أصحاب البوتيكات على سعر تسليم أقل وحين اعترض عنتر أفهمه الكابتن القديم:

- دى أزمة. لازم نبقى يد واحدة ونطاطى لحد ما نوقف ولاد القحبة دول.

وبأسعار مثيرة للعجب عرفنا أنه يسلم القميص الشارلى بجنيهين والبنطلون الـ F . U . S بستة جنيهات ودستة الشرابات بثلاثة. وبمساندة رأس المال ومهارة أبناء النسيرى وبسرية فى تجنيد مهربين جدد. أفلحت الخطة على المدى الطويل.

وتغيرت الاتفاقات مع العربات البيجو. فهى الآن تنتظر على بعد كيلو مترات من الجمرك ويدخل الأولاد إلى بورسعيد حيث يلبد عنتر بقائمة مشتروات أعدها الباشمهندس فى دقة شديدة. وأصبحوا الآن يدخلون ويخرجون أكثر من مرة ولإثارة شهيتهم، صار الربح مناصفة. النصف من فرق سعر الشراء والتسليم.

أما المتمردون من أولاد الـ.. فكانوا يعودون ببضاعة لا تجتذب البوتيكات. فلقد استكفوا من الباشمهندس. ولأن رؤوس أمواهم قليلة اضطروا لبيعها بأسعار أقل من الباشمهندس. أو اضطروا لبيعها فى دمياط فى يأس وبنفس سعرها البورسعيدى أو وقفوا بها أياما بعيدا عن شارعنا على أول شارع البحر أو العجمى أو السكة الجديدة. أحيانا كانت تحدث المصيبة وتضع العائلة يدها عليها للاستعمال الشخصى، بدا العمل مع الباشمهندس أكثر ربحية، وأبدى سعة صدر غير متوقعة فلقد قبل عودتهم جميعا وعفى عن كل المتآمرين مخالفا عنتر فى الرأى. واشترى محل أم زوزو صانعة الطراطير الورقية والطبول الملونة. وصار له سجل تجاري، مكتوب على لافتة خضراء بلا اسم. فى محل صغير ليس به سوى مكتب وخزانة، ودون أرفف لأن البضاعة لم تكن تظل به سوى للحظات.

وراح معظم الطلبة بعد الإعدادية تذهب بهم أمهاتهم إلى الباشمهندس، الذى يسلم لأمه فى يدها، مع ندى الصبح، جنيهات ثلاثة. باتت قلوب الأمهات، التى كانت فيما مضى لا تتحمل النسمة على أولادها، تجمد شيئا فشيئا أمام سحر الجنيهات الثلاثة وباكوات اللبان والشيكولاته وثمار جوز الهند أو قطعة قماش صغيرة يسلكها الولد فى الخياثة. وعلقة تفوت ولاحد يموت. هكذا أصبحت عصا الجمرك شرفا ورجولة. وأصبحت كسوة أهل البيوت مختلفة فهى الآن من البالة بعشرة قروش وربع جنيه لكنها فى حالة جيدة، وعلق الأستاذ إسماعيل على ذلك، وهو يرى السعيد يرتدى قبعة قش مكسيكية، أن شارعنا صار أشبه بمخيم فلسطينى تلقى لتوه مساعدات الكويكرز.

وتغير الحديث عن تلك المدينة وصارت كعبة دانية يشتهيها من لم يسعده

السفر. فحتى مولانا قال يوما لخالد إنه يريد نسبة أو على الأقل قماشا جديدا للكاكولا من بورسعيد وحين ضحك خالد قال مؤكدا :

- يعنى مايشترطش السفر ياباشمهندس. أنا معاكم بقلبى وبأدعى لك دايما فى صلاة الفجر.

وأكد من شهد الجماعة أن الشيخ لم يرفع يده يوما بالدعاء. لكنه حين نال الكاكولا صار يدعو فى قنوته مخلصا " اللهم رد إلينا أبناءنا سالمين غانمين". كانت الكلمة تحتمل التأويل وعابه عليها البعض، خاصة على غانمين تلك، فخالد صار وحشا، وفى الليل لا ينقطع عن لعب القمار ليس بقروش بيضاء ولكن بالجنيهات. صار شرب البيرة والحشيش الآن عينى عينك. وجعل غفر العمارات الجديدة فى أول الشارع ومخازن الحاج بهنس ربيع "ناضورجية" هم راتب معلوم. ولم يكن ذلك بمستغرب وقد اكتسب خبرة من الجمرك وأصبح يدفع رواتب للدوريات وله فيها أحباب يسلكون الأمور. واتضح أن عنتر ليس شريكه ، فبعد خناقة فى اللعب، وأغلب الظن أن سيرة أشجان قد فتحت ، تركه عنتر وتحكم فى الأولاد.

• • •

لأن العناد يورث الكفر. بات المهندس تلك الليلة عند يسرية. بات ولم ينم والفرق كبير بين الحالتين. فى الصباح جاءت العربات فلم تجد روادها وقيل "لاحول ولاقوة إلا بالله." جلس السائقون فى صمت مرتبك يحتسون القهوة، وتدور حسابات أخرى فى رؤوسهم. لكنه بعد القهوة فك أزرار قميصه وقال: "استنوا عايزكم" ودخل مرة أخرى عند يسرية فاستحم وحلق لحيته وفك أغلفة قميص لورنزو وبنطلون روزيرى، بوبرة طازجة مشدودة، صفف شعره وأغرق وجهه بالأولد سبايس، وخرج مناديا "ورايا يااسطوات" وتبعته أربع سيارات خالية فى موكب بطىء متردد.

عاد قبل المغرب، وسط دهشة البيوت، بالسيارات مكتظة عن آخرها حتى

أن صناديقها لم تغلق جيدا، وأطلت الأكياس البلاستيكية وكأنها ركاب من السيارات وتدلت أذيالها الملونة من على الشبكة. مستعينا هذه المرة بآلة حاسبة بدأ حساباته وهم فى انتظاره حتى قال: "على بركة الله" .

وعلمنا أنه اشترى بكل نقود الأيام الماضية بضاعة من دمياط. اندهشنا أكثر لأن أسعار التسليم كانت نفسها أسعار القنطرة فى دمياط. لكنه بوصوله مبكرا باع كل بضاعته للتجار بما هم من طلبيات يعرفها جيدا، وكان التعامل بالطبع مع الباشمهندس ابن وكيل الوزارة مختلفا عن عنتر بل إنه لأول مرة باع بالأجل. اشترت البوتيكات مستغلة الفرصة ما فوق طاقتها لاعنة عنتر وأخوته "الصيع" الذين زايدوا فى السعر جاهلين أن من سبق أكل النبق.

وفى الصباح التالى انطلق مرة أخرى إلى دمياط وعاد فى الظهيرة. ولم تقبل البوتيكات بضاعة عنتر إما لاكتفائهم من جهة، أو للأسعار التى فرضوها فى خبث وبالطبع كانت أقل من أسعار الباشمهندس نفسه. فلقد فاوضوه على خمسة وعشرين قرشا فى كل دستة قمصان.

لم يصدق عنتر أن يكون مكسب خالد فى الدستة خمسة وعشرين قرشا. وأجهد أبناء النسيرى عقوهم فى محاولة فهم ما يحدث، فخالد كان بهذه الطريقة يدفع أجرة السائقين من جيبه بل ولم يجمع نقوده من السوق.

كاد عنتر أن يجن وفى محاولات يائسة وزع أولاده مثل الغربان فى شارع البحر والسكة الجديدة، واستماتوا فى النداء على بضاعتهم. بل إن منهم من تركه باكيا خجلا أن يراه زملاء المدرسة وهو يبيع فى الشارع ومعظمهم من أولاد الموظفين.

بعد عناء شديد دبر عنتر نفقات رحلة أخرى. وكان يخسر فى كل طلعة مايقرب من ٢٠٠ جنيه، لكنه أكد أن خالد باع مصاغ اخوته البنات ومد يده إلى أمه وحتى إلى يسرية. قلت الحركة مع أصحاب الباشمهندس فى بورسعيد، فجاء أبو

العربى وعم العزونى نفسه جار البيوت القديم للسؤال عن صحة الباشمهندس لأن العيش والملح لا ينقطعان بسهولة. لكن السبب هو أن عنتر لا يملك قوة خالد الشرائية وأصبحت مشاكله كثيرة مع الجمرك، هذا غير المحاضر والمصادرات. ورفض خالد الصلح . وبقى عم العزونى ضيفا كريما على البيوت، وخالد راكب دماغه. جاء أكثر من أبى العربى سعياً فى الصلح بلا جدوى، وازداد سعار الباشمهندس. وأصبح كما يقولون "واخد السكة قياسة" . القصد عقد مجلس عرب فى بيت عم سعد قبل فيه عنتر رأس الباشمهندس وقرأت الفاتحة مرة أخرى على الخائن وابن الحرام.

• • •

لكن الأمور لم تعد إلى سابق عهدها . اخترع خالد نظاما إداريا عجيبا وعنكبوتيا لم يفهمه كل العائدين. فسره البعض أنه بسبب الزهق من البقاء فى المحل بمفرده. راح يغير كل أسبوع ثلاثة عاملين يمنعهم من السفر ويستبقيهم معه. يقومون كما قال الأستاذ ناصف بكتابة تقارير فى بعضهم البعض، وكأنهم فى الاتحاد الاشتراكى أو التنظيم الطليعى. أما يسرية فكانت ترفع حاجبيها قائلة إن "الفاضى يعمل قاضى" لأن ما يكتبه الناسخون لم يكن سوى أشياء غير هامة ومحفوظة. فلقد بدأت اللجان بكتابة أسماء العاملين وعناوينهم. وكتابة الأصناف المشتراة رغم أن البضاعة لم تكن تبقى فى المحل سوى لدقائق. وقوائم بأسماء التجار الذين يتم الشراء منهم يوميا وعناوين بيوتهم و كذلك نوعية البضاعة المسلمة لكل بوتيك وثمنها تفصيلا . واشترى تليفون عم سعد رغم أن الرجل لم يهنأ به سوى لأيام وتنازل عنه رسميا بألف جنيه. أخذ عنتر يبدى تذمره لأن هذا سيؤلب عليه الضرائب وفيه تقليص للبركة قائلا : " ياعم خالد سيبها تسبح" وكان عنتر يضحك حين يقع اثنان فى حيص بيص، وينجو واحد فيفهم ويسجل ما يريده الباشمهندس. وما إن يفهموا حتى يعودوا إلى الخط ويأتى آخرون. كان ذلك التناوب يتم بطريقة لم يفهمها عنتر أبدا، فهم مجرد ثلاث بهائم ارتاحوا أسبوعا من العمل.

• • •

ما إن خطب عنتر ابنة الحلال، إلا وأراحه خالد من اللف على البوتيكات بعد العودة ليتفرغ لكتكوتته. وترك يسرى ليقوم بالتسليم في المنصورة. كان يسرى وهو يجيد القراءة يظل وحيدا في الدكان، يقرأ الجرائد والمجلات حتى عودة القادمين. وبعد زفاف عنتر عين أخاه النسيرى للإشراف الداخلى فى بورسعيد، وبعد أسبوع العسل، لم يخطف عنتر اللقمة الجديدة من أخيه إكراما لأمه ولأن الأمور فى بيتها. وعقد خالد اتفاقا غريبا مع السلامونى، وهو من أبناء سلامون واسمه الحقيقى رياض، بجلب أولاد ريفيين راحوا يحملون بضاعة فى حقائب مثل الدلالات ويبيعونها فى القرى على الخط.

ورغم أن العمل لا يحتمل هذا التكدس إلا أنه صار أمرا واقعا. ووجد عنتر نفسه فجأة محاطا بثلاثة أعوان آخرين يقتسمون العمل مع صديقه القديم. ومع ازدياد العمل صار من المستحيل على عنتر أن يتابع أيا منهم حتى أخيه. ومهما بدت تفاهة عملهم وما يتقاضونه فلقد بدأ الموضوع يقلقه. لكن خالد أفهمه أن هؤلاء مجرد موصلاتية، أما موضوع الفلوس والأمور الجد فهى فى يد عنتر والنسيرى. وكانت مكافآت خالد السخية تسكت شكوكه .لكنه لم يسكت حين جعل يسرى، بحجة أنه لا شغلة له فى الصباح، يورد أولادا جددا. وجأر عنتر بالضيق والشكوى فهذا الموضوع كان يكسبه حظوة بين أهل البيوت. كذلك حين استغنى خالد عن بعض الأولاد وقصده أهلهم أقنعه خالد بعناء أن وجوههم صارت معروفة فى الجمرك ومصدر مشاكل "دى كروت خسرانه" وبدأت الأرقام تظهر. فالأولاد يدفعون جمارك أكثر مما يجب مما يجعل الأمور مثل قلتها. أما الجديد فهو افتتاحه بوتيك مشاركا فيه يسرية، التزمت فيه بأسعار البوتيكات والإغلاق مثلهم يوم الجمعة. وبدأت تخرج فى الصباح وهى تلبس باروكة صفراء وتضع مكياجا ثقيلا فاقعا، هكذا أصبحت، كما قال الأستاذ ناصف، الليدى يسرية.

وحسب كلام الأستاذ ناصف صار خالد يقرأ الآن الأمير لميكيافيللى، فبعد قليل أصبح الأولاد فى قبضته. وأصبح يجد متعة بالتأكيد حين يسلم للأولاد، بيده

هو . النقود التى رصت فى رزم على المكتب. مع نهاية الأجازة الصيفية وهو موعد الركود القديم وعودة الأولاد لمدارسهم وقصر النهار . كثف خالد من حملته على الخط بمساعدة السلامونى. أصبح خط طناح لمصطفى وخط دكرنس لصفوان وبلقاس لعبد اللطيف. وتقلصت الجنيهات الثلاثة إلى جنيهان غير خمسة بالمائة من الربح. هكذا أفل نجم عنتر وصار تائها فى فلك إمبراطورية الأعصر .

كيف يفهم فائدة المندوب الدائم الذى عينه خالد للمراقبة فى دمياط والعودة له كل ليلة بالأسعار وكأنه بورصة لندن، خاصة أن باب دمياط قد أغلق نهائيا . ويبدو أن قراءة الأمير قد أثرت عليه؛ فلقد خصص الخميس من كل أسبوع لزيارة أصحاب البوتيكات، وامتلأت معدته بفناجيل القهوة والبيرة المستوردة. وهبط الأمير من البرج العاجى وزار بورسعيد كل سبت. وحين بدأ الفتور يجتاح علاقته بعنتر ، فاجأ خالد الجميع بإهدائه شقة ثلاث حجرات لعنتر فى توريل الجديدة بمناسبة حمل زوجته. احتضنه عنتر وبكى بالدموع. ووقف الباشمهندس بنفسه مع بعض أولاد لم يسافروا إلى بورسعيد لنقل العفش، وابتسم ابتسامة غريبة مودعا . فلقد غادر عنتر الشارع وصار ضيفا فى زيارته لأمه وأخوته فى البيت القديم. كذلك جعل النسيرى المجنون بالسواقة سائقه الخاص ليكون بجانب أمه بل ودفع له مقدم سيارة وفرح النسيرى بقيادة البيجو ، وهز مفاتيحها فى الهواء . ولأن النسيرى نجمه خفيف وسريع الزهق، فلقد ترك العربة لسائق واشترى تاكسيا ، وحين عرض على خالد فى مجلس صفا أن يشاركه فى مشروع التاكسيات، وافق خالد عن طيب خاطر . ورفع ضلع هام من عائلة النسيرى يده عن تجارة بورسعيد نهائيا ، كذلك وسّط والده أحمد بيه لقبول مكرم فى العمل بشركة المقاولين العرب، وفرحت زوجته حين غادرت الحى إلى الإسماعيلية. وهكذا تفرق آل النسيرى .

***

وكنت أحيانا أفتقده. أتوقف أثناء عودتى لأطل عليه فيقابلنى بابتسامة. وحين طلبت من أبى بنطلون سونتى، رفض المهندس بشدة نقود أبى. وحين ألح

حسن وأقسم أغلظ الأيمان. لم يرد يمينه وأهدانى فوق البنطلون قميصا أزرق شارلى. كنت سعيدا ومرت بخاطرى ذكريات قديمة وهو يقول بأدب:

- أشرف أخويا -مش كفاية حضرتك كسفتنى ودفعت؟

لكنى ارتددت بسرعة إلى المحل الخانق ولعيون الباشمهندس.

كان فى عيونه نظرة شاردة. زائغة بملل وقرف. لا تعرف هل ذهنه معك أم فى واد آخر. حين يقاطعه شخص كان يحسب بلا مبالاة وفى ثوان. كنت أتعجل حسن أن ينهى قهوته، فخالد الآن يرتب العمل لصباح ومساء الغد. عدا ذلك فهو قابع فى دكان أبلة زوزو الخالى، سوى من ظله على الحائط، ينظر إلى نافذة أشجان التى لم تفتح حتى فى عز شرد الصيف، وكأن المروحة السانيو تكفى لإذابة صهد الجدران.

ولم يعد خالد يخضع كثيرا لسلطة أحمد بيه. فلقد تضخمت نقوده، وصارت له عربة بسائق لم يملك أبوه مثلها. وبعد إحالة الرجل إلى المعاش ظلت سيارة خالد هى سيارة العائلة، رغم خلافاته الشديدة مع أبيه، لأن خالد واظب فى امتحانات كلية الهندسة على كتابة حسابات عملائه فى أوراق الإجابة ففصل نهائيا من الكلية، وحول أبوه بائسا أوراقه إلى كلية التجارة، لكن عصا خالد لم تدق لمرة واحدة بلاط الكلية. مع ذلك احتفظ فى شارعنا بلقب الباشمهندس.

كان طبيعيا أن ترفض أم أشجان إعادة حبال الود مرة أخرى. خاصة مع تقدم مختار فتح الله وعزت خفاجة إليها. وتأزمت الأمور مع الأب فاشترى خالد شقة تمليك فى بيت عم عوض وأقام فيها بمفرده. وقاطعه أبوه نهائيا لكنه لم يقاطع سيارته، ولم يمنع البنات من خير أخيهم.

وأصابت المهندس شراهة الخصيان فكان يرسل يوميا إلى الحاج رمضان، لشراء كيلوين كاملين من الكباب أو الريش يأكلهما وحده ويعب البيرة بعيون ميتة. وراح وزنه يزداد أكثر فأكثر حتى صار يلهث إن تحدث.

أما الليدى يسرية فلم تنقطع عن توفيق رأسين فى أى شئ، ومازالت رغم السيولة المادية وبعد الطلاق من زوجها تبحث عن جانب من الحب، الحب الحقيقى إياه. قيل أن الباشمهندس نام مع كل بنت عملت عندها أو عنده. كان البعض يقسم أنه كان شيئا عاديا أن يقرص بنتا من صدرها أو أردافها. بل أقسم القاسمون أنهم كانوا يدخلون أحيانا شقة يسرية المفتوحة الأبواب للريح والأغراب فيرون بنتا تسوى شعرها وملابسها فى ارتباك بينما يعيد الباشمهندس سوستة بنطلونه إلى أعلى فى بطء ولا مبالاة.

وحين قال حمودة ابن المحنكرة أنه رآه بعينى رأسه ينام على صدر فتاة عارى وكأنه طفل يمص الحليب. سرت شائعة قوية بأن هذا كذب، وأن الباشمهندس لم يتجاوز أبدا القبلات والملامسات غير البريئة على الناشف. أما الجد فهو أن عنتر فى خناقته الشهيرة قال كلمته التى لو مزجت بماء البحر لمزجته، أن الباشمهندس ليس له فى النسوان. دارت الإشاعة على البيوت كنحلة محمومة. لكن يسرية خرجت وقبلت مهندسنا وملست بيدها على شعر صدره العارى قائلة: "مين ده !؟ ..والنبى ده سيد الرجالة." ولأن زوج يسرية عم بهلول لم يعد الآن على ذمتها بعد أن طلقته بالثلاثة، فلقد بات وشيكا أنها مستعدة للقسم أنه يضاجعها كل ليلة ، وأنه صاغ سليم. لولا تدخل عم خليل بصوت جهورى "ادخلى يامرة يالبوة ..آهو ده اللى ناقص." وحين دخلت قال ممازحا: "ماتقفل صدرك ياعم خالد . دى البت ناقص تنط عليك قدامنا."

كان فى وجهه شحوب الموتى، وظننته أنا قد خجل من وقاحتها.

• • •

عن نفسى كنت أكثر من فرح بعودة حبال الود بين خالد وأشجان. فبعد أيام من ذلك التاريخ، حمل عصاه ودق على بابها فى جرأة حاملا الشبكة. العجيب أن جمان أفندينا وافقت على ذلك "الصايع" كما صارت تدعوه. فلقد صار له سجل

تجارى وملف ضريبى وبوتيك محترم ولم يكن سيادة المقدم يستطيع أن يخدمها فى شئ؛ فلايمكن التصدى للتهريب خارج بورسعيد، ومسألة البيرة والقمار شئ يصعب إثباته .

هكذا تبين لها فجأة أن هذا كله كان طيش شباب!! وقالوا إنه أقسم على كتاب الله أن يمتنع عن الحشيش والقمار. وأقيم الحفل فى نادى التجديف، وغنت فيه مطربة "الطشت قال لى" بشحمها ولحمها، واتضح أنها من المنصورة وجارة قديمة للبيوت ، وكذلك التلبانى وعبد العزيز حمودة، والمنولوجست الأشهر فكرى الجيزاوى الذى رسخت نكاته وحركاته وهو يقلد الريس متقال فى أذهان البيوت. حين رقصت يسرية غنى لها "ياكريمة فى هز الوسط ومشرفة الأرتيست." ولم يبال بمدير الأمن وسكرتير عام المحافظة والكرسى القطيفى الأحمر الخاوى للسيد المحافظ، الذى ظللنا وحتى آخر الحفل فى انتظار تشريفه، وقال: " يامغطية الضهر ..والشعر ..والرجل ..والوسط لأ..والوسط لأ..والوسط لأ." امتعضت أشجان لكن عنتر غطى على الموقف بأن نقطه بعشرين جنيها، ورقة واحدة خضراء كبيرة ظهرت لأول مرة ولم تكن الأيدى قد تداولتها بعد، وراح يرقص على الواحدة، وقبل أن ينزل تساءل عنتر "بس..الوسط لأ ليه يافنان؟"

فصاح الجيزاوى مؤكدا "دى أصول الشغل بقى!"

الأستاذ ناصف حكمت

هذا البيت موبوء. لايذكر إلا ويقال بيت الأستاذ ناصف الشيوعى. وكنت أعتقد أن هذا اسمه. وفى أول زيارة للبيت كنت مع جدتى التى قبلته وقالت:

- الحمد لله على السلامة ياناصف. نورت بيتك

كنت معجبا بجدتى التى تنادى الأستاذ ناصف بناصف. خاصة أنه رجل عجوز ذو وجه قمحى وشعر أبيض. رغم الفقر والخواء فى المنزل فلقد كانت أزهار زوجته الجميلة تملأ فراغ الشقة بابتسامة سعيدة. كان الأستاذ يرتدى روبا أخضر وبيجامة مكوية، وظل إصبعه على صفحة من كتاب وفى اليد الأخرى كان يلهو بذراع نظارته.

- انت اللى نورتينا ياست أم محمد.

أذكر اعتراض أمى على تلك الزيارة. لكن جدتى قالت فى حسم إن هذا واجب وإنها تجد فى ناصف رائحة المرحوم محمد. كان صديقه الحميم وكانت أخته على وشك أن تخطب إلى خالى محمد لكن جدى وبقية الأخوال عارضوا بشدة. تقول أمى أن نينة تشعر بالذنب لأن زواجه من غيرها عجل بنهايته. لكن خالى محمود تدخل فى الحديث قائلا إن جدى معذور فالأستاذ من "بتوع السياسة " وكانوا يهاجمون البيت قبل الثورة وبعدها، وينزلون حاملين المنشورات والكتب التى تنتهى بكلمة "أوف". والأستاذ تلطم فى السجون: الأوردى والقناطر والواحات. علق أبى قائلا إن الأستاذ، صديق قديم لعمى الأكبر عبد الرحمن المحامى، وكان ثورجيا من يومه. بل شارك بالشورت فى مظاهرات ٤٦ التى بلغ من شدتها أن المأمور استعان بقوات الجيش - وأنه كان يصيح صيحة مشهورة "اليوم حرام فيه العلم"

ليتركوا مدارسهم. ضحك حسن وهو يخبرنى أنهم والأستاذ أدمنوا السياسة فحين أرادوا حجة للتزويغ من المدرسة حملوه وصاح الأستاذ " اليوم ..." ولما لم يجد ما يقول صاح "اليوم يوم الخميس" وخرجت المظاهرات من المنصورة الثانوية والصنايع.

يومها لم تتكلم كثيرا أم محمد، كانت فقط تبحلق فى وجه الأستاذ الذى فرت عيناه من أمامها مرة أو مرتين، أخيرا استقرا كعصفورين، هادئين فى وجهه. كانت نظراته تنقر وجه أم محمد الطيب على مهل. وكنت أرى عينى جدتى تتسعان كفنجانى قهوة، يملأهما الدمع، ويلمعان بحساب، ومثل قهوتها لا تنسكب أبدا، بينما كانت ابتسامتها الهادئة تربت على كتفه. وكان هما، جدتى والأستاذ، سطوة غريبة على الوقت الذى تمدد بينهما هادئا كقط منزلى لا تحس وجوده. مع ذلك كنت أمتلى أنا وأبلة أزهار، دون كلمة، منكمشين، حريصين على ألا نصدر أى صوت، يفزع ذلك القط الذى تداعبه أنفاسنا.

وحين باغتنا وقفز. كان موعدنا لننصرف. كنت مازلت منكمشا ومسروقا وبداخلى لم يتحرك سؤال واحد، سحبتنى جدتى وتبعتها أبلة أزهار ملهوفة على السلم. منحتها أم محمد شيئا يشبه الحجاب. ألقت به فى صدرها متلفتة وشاكرة وقالت أم محمد:

- ناصف ابنى وانا عارفاه صاغ سليم، بس معذور اللى شافه مش شويه... الصبر ياأزهار.

• • •

يحلو لعم غنيم وهو يستحلب سيرة البيوت أن يحكى قصة مكررة. وهى أن عم خليل المخبر، جاءه يوما وطلب منه أن يذهب لتناول فنجال قهوة مع رياض بيه الغمراوى المقدم بالمباحث. رغم ارتباكه، حاول أن يعرف الموضوع وبكل دلاله على عم خليل لم يحصل على إجابة شافية. فى المساء قبع عم غنيم فى قاعة مظلمة، مقطوع عنها النور خصيصا. كان الجالسون يتبادلون حديثا هامسا لا يستأنس به،

رغم الضوء القليل الذى يندفع من الصالة البعيدة كان يرى الجالسين مشغولون عنه كل بهمه. ظن أن الموضوع يتعلق ببطاقات التموين. لكنه لعب الفأر فى عبه منذ أنكر الجندى فى الاستعلامات معرفته باسم البك وتأكد من عسكرى آخر. فلم يعرف شخصاً بذلك الاسم. قبل أن يتخذ عم غنيم قراره بالانصراف، مطمئنا للمزاح السخيف لعم خليل أو هذه الغلطة غير المقصودة، أشار أفندى بإصبعه، وهو يقف على ساق واحدة ثانيا الأخرى، ناظرا نظرة ذات مغزى للعساكر وقال:

- أيوه موجود استناه جوه.

تهدل البالطو الكاكى بعم غنيم، وقاده العسكرى إلى غرفة الانتظار. وعندما دقت الساعة الثانية عشر خرج عم غنيم ليتأكد مرة أخرى فلم يجد لا الأفندى ولا الجنديين. استجمع شجاعته وانصرف دون أن يخبر أحدا.

لكن عم خليل المخبر جاءه فى الصباح وجعل صباحه أسود من قرن الخروب لأنه لم يحترم الحكومة وانصرف. وأنه لولا الجيرة والعيش والملح لكانت وقعته سوداء. قال عم خليل فى لهجة مزمجرة لم يتعودها منه عم غنيم "تستناه، يوم .. اتنين .. عشرة .. تستناه. هو لعب عيال؟!"

وفعلا مر يوم واثنان وعشرة، حتى قاده عسكرى أخيرا، بعد ليال لم ينم فيها، بل ووقفت زوجته لأول مرة لصرف بطاقات التموين، لرياض بيه.

حين دخل المكتب كانت عيونه زائغة فزعة، ومثانته تؤلمه وعلى وشك الانفجار. كان أزيز مروحة خضراء قديمة كالحة اللون تجفف عرقه أولا بأول ويصيبه بتوتر متزايد. أخيرا دخل ضابط طويل فى ملابس مدنية، وبدأ حديثا غير مترابط من هنا وهناك مثقه بمعلومات عنه وعن أخوته وأقاربه فى البلد وأشياء كثيرة أخرى دون أن يتطرق إلى موضوع التموين، وفى النهاية سأله:

- قلت إيه ؟

- في إيه يابيه ولا مؤاخذة ؟

- تتعاون معانا .

عادت إليه روحه حين عرف أن البك يريد منه أن يكون مرشدا يخبرهم بتحركات الأستاذ . أبدى عم غنيم دهشته، فالأستاذ بعد خروجه من السجن، ظل تحت المراقبة لخمس سنوات أخرى، لا يخرج من بيته بعد المغرب، بشهادة عم خليل نفسه. أحيانا كان ضابط بدبورتين يدق حجارة شارعنا الملساء قديما بسنابك حصانه ليوقع له شخصيا فى دفتر المراقبة. بدأ عم غنيم فى ادعاء العبط لأنه فى حاله، لكن البيه ظل يرشف القهوة ويفهمه أن الأشخاص زائلون لكن النظام والبلد مستمرون ولابد من التعاون. وأخيرا قال بصراحة بدون تلميح إنهم يقدرون تعاون الوطنيين الشرفاء ووعده بتسهيلات تموينية يسيل لها اللعاب.

- انتم، ولامؤاخذة ، بتشكوا فى عم خليل ؟ ده راجل طيب والله.

وارتفع إصبع البك منذراً. وقال وهو يودعه إنه ينتظر الرد. حاول عم غنيم الفكاك، بل واستشار المهدى المحامى، وفى النهاية أغلق دكانه، وأخذ زوجته وابنته وذهب إلى مصر، إلى لواء كبير من بلدياته فى الداخلية، أنقذه من الموضوع بأسره. ولم يتحدث عم غنيم فى الموضوع إلا بعد الحربين وملأ بالحكاية دكانه:

- هو أنا عيل صغير؟ وأنا مالى بالسياسة. قلت له ماأعرفش غير إن مراته بتصرف من عندى التموين.

وتتندر عليه ضحكة طرية نواعمى:

- صحيح أنت مالك بالرجالة؟ أنت تعز النسوان بس.

لكن حقيقة ماحدث كما تقول جدتى إنهم لاحقوه فى رذالة. ولفقت له قضية تموين، ساعده محام آخر كان صديقا للأستاذ على الخروج منها . كما أن زيارة زوجته وبكائها على أقدام زوجة اللواء قد سوت الموضوع نهائيا .

قالت أمى :

- معقولة ناصف كان طلقها ؟

- أزهار أصيلة . واللى فى القلب فى القلب.

وأجبرتنى أمى على ترك الغرفة. لكننى سمعت أم محمد تحكى ضائقة بفتح موضوع قديم. عرفت أن أبلة أزهار هى ابنة خاله وتزوجته صغيرة. لما جاءت إلى المنصورة علمها الأستاذ حتى نالت الإعدادية وهو فى السجن. كانت فى ذلك الوقت ترتدى الأسود وترفض أن تغادر بيت زوجها رغم أنه معتقل. وطال لبس الأسود بأبلة أزهار فلقد مات جيفارا ابنها وأول فرحتها فى السادسة بالحمى الشوكية ولم يكن أبوه معها. ورغم أن أبلة أزهار ظلت شهورا لا تعرف له طريقا وهل هو حى أم ميت، فلقد تمسكت بعدم إغلاق بيته ولم تسافر إلى أهلها. بل جاء إخوتها من البلد، وحاولوا استعادتها عنوة، لكنها تمسكت بباب الشقة حتى كاد ينخلع، وجاء البوليس فأقسم إخوتها - رغم تدخل أهل البيوت وقولهم أن الدم عمره ما يبقى ميه- ألا يدخلون لها بيتا.

قالت جدتى أن المباحث أجبرتها على أن تكتب خطابات إليه، فعاندت قلبها وأجبرت يدها التى علمها الأستاذ كل الحروف أن تكتب. كتبت أزهار لتخبره بموت جيفارا وتؤكد له أن أباه قد مات بسببه، وأنها باعت كل شىء ولم يبق لديها ماتبيعه سوى ... اللهم استرنا. لم يساعدها الرفاق الشيوعيون لأن حملة أوائل الستينات كانت واسعة فلمتهم وسافر الآخرون هربا. لكن الحقيقة أنها استطاعت أن تعمل فى مديرية التربية والتعليم. وأعمى الله عيون المباحث فمر ذلك عليهم. أما الطلاق فكان حين أخذوها فى أول زيارة له لتقنعه أن يوقع على مايريدون.

كان التعذيب شديدا متعمدا وزادوا له الكيل قبل مجيئها. وحين دخلت عليه - يبدو والله أعلم أن كلام الأفلام كان حقيقيا - هيأ له رأسه الذى شبع صفعا واحتراقا بالكهرباء، أنهم إما سيكسرون نفسه أمامها أو سيغتصبونها فى الغرفة.

فما إن رآها تضع يدها على فمها وعينيها لتمنع صرختها لرؤية شبحه، فاجأ الأستاذ أصحابنا إياهم أنها طالق ثلاثا. حصلت وقتها أم محمد على فتوى من الشيخ حامد بأنها طلقة واحدة. وهذا سبب موقف أهلها وأخوته الأخساء، الذين سمع الأستاذ صوتهم على التسجيلات يتبرأون منه ويقسمون أن بيوتهم حرام عليه وعلى ذريته.

ولما خرج من السجن كان على أزهار أن تحمل عبء البيت وهو بلا عمل، كذلك مصاريف علاج الروماتيزم الذى عاد به ولم تطلب منه الأصيلة مرة واحدة أن يرحمها ويرحمهم، ويوقع الورقة التى يريدونها ليعود إلى عمله.

• • •

استغلت جدتى موضوع الخط وقالت:

- ناصف خطه أجمل منك ياحسن. أنت مش عارف تعلمه.

ولأن رأس أم محمد لا يلين فلقد قالت له فى النهاية:

- مالكش دعوة بابنى ياحسن. أنت مش حتخاف عليه قدى.

وهكذا صرت أذهب إلى بيت الأستاذ لأتعلم منه الخط، ولسبب آخر فلقد تأخر شهدى فى الكلام، رغم أن جدتى دقت له الماء فى الهون، واصطفتنى أبلة أزهار من بين كل البيوت لألعب مع شهدى، رغم أنه يصغرنى بكثير ...وفى غرفة المكتب كنت أجد الأستاذ يبرى بحرص أقلام البوص، وكنت أتابع خطه الرائع الذى يتحدى الروماتيزم، فيكتب لى بالنسخ حروفا واضحة "وقال الأرنب الغضبان ...كل يوم خس وجزر"

وكنت أسأله بين إنما الأمم ...وإذا الشعب ...

- أنت قريت كل الكتب دى يا أستاذ؟

فرفع رأسه وابتسم، بل أحسست أن عينيه تبتسمان تحت النظارة السميكة.

- أيوه ولما تكبر حاخليك تقراهم كلهم.

وكنت أرى الجانب الاخر من الحجرة الشاحة الفقر. على الحائط صورة له مع شخص آخر بابتسامة جميلة واسعة. وتشككت أن يكون ذلك العجوز هو صاحب الصورة فقال لى:

- دى أيام الشباب من ١٥ سنة مع المرحوم شهدى.

رفع نظارته وأخفى وجهه كأنه يبكى، ووقفت أنا مقتربا من الصورة، ووضع يده على كتفى وأنا أتأمل صورة عبد الناصر، وصورة لآخر ذى لحية لذيذة وقف عارى الصدر مبتسما وعلى رأسه بيريه، قال لى أن اسمه جيفارا، نفس اسم ولده الذى مات ولم يحتفظوا له بصورة، وكتب على الحائط تحتها كلمات بخط جميل كوفى لم أعرف قراءته، أخبرنى إنها من شعر ناظم حكمت.

- مين ناظم حكمت؟

- ده اللى قال أجمل الأيام لم يأت بعد .

عند عودتى قال عمى حسين وهو فى زيارتنا :

- أهلا بالمناضل الكبير.

وما إن سمع حسن اسم شهدى وجيفارا رغم أنها أسماء أولاد الأستاذ حتى أبدى قلقا قال عم حسين :

- ياحسن الشيوعيين دول وطنيين مافيش كلام. مابطلوش قراية لا فى السجن ولا براه.

- أيوه ما أنت بتاع اتحاد اشتراكى وتنظيم طليعي.

أنا فعلا عرضت عليه كذا مرة يدخل التنظيم الطليعى لكن ناصف ركب دماغه، مارضيش لحد مايخرج يمضى على إقرار بحل الحزب. قلت له البلد والثورة محتاجاك. كنت عارف إن نفسيته صعبة ومارجعش الشغل. الباقيين دخلوا معانا التنظيم أو اللى سافر على بيروت أو فرنسا. إلا ناصف عنيد زى التيس لسه حدتو موجود فى دماغه.

وضحك حسن عليه وقال :

- تستاهل مش طردك أنت والنقابى الكبير محمد العسكرى وقال لكم ماخلاص بعتوا.

ولم يغضب عمى بل دمعت عيناه من الضحك وهو يصف دحرجته هو والعسكرى على السلم. وقال بعدها فى لهجة جادة :

- بس لأ ... ناصف شال السلاح وأول الناس اللى دخلوا بورسعيد فى ٥٦ مع المرحوم البدراوى فى عز الضرب ومعاهم الرونيو لطبع المنشورات.

- أنا مش عارف كانوا عايزين إيه من جمال. معجبتهمش الوحدة ودفنوا فيها أسفين. وليه مارجعش شغله وقاعد يبرى أقلام بوص. مع إن جمال أعلن القوانين الاشتراكية . قال ايه بعد السجن فاكر حيقابل كادرات قديمة. كان حيعمل إيه حدتو أكتر من التأميم والإصلاح الزراعى والتأمينات وباندونج .

قال عمى بلهجة السياسى المتمرس:

- لأ الخلاف فى موضوع سوريا كان على الشكل ، كونفيدرالى ولا استقلالى .

• • •

كانت سيرة الأستاذ تستدعى خلافا عائليا بين أبى الناصرى وخالى محمود. وهو وفدى أصيل ذهب إلى القاهرة وشارك فى جنازة النحاس باشا. واعتبر خالى ذلك عملا وطنيا وتاريخا وفديا. كذلك تذكر محمود أنه شارك فى ضرب جوالة حسن البنا، حين جاء المنصورة تسبقه زفة شهيرة. وقال الخال مؤكدا:

- النحاس باشا رفض الجلاء دون حل موضوع السودان. عبد الناصر بتاعك ضحى بالسودان وسينا والمضايق.

ويستشهد حسن بحديث المنشية ويقف كالناصر خطيبا:

- أنا الذى علمتكم الكرامة.

وتصيب خالى تأتأة الغضب وهو يقفز من فوق كرسى الصالون

- كرامة إيه؟ الوفد كان مصر. أما الفساد فكان فساد أفراد. مش فساد حزب. إيه ذنب الحزب فى مرشح اشترى أصوات الفلاحين؟ مصر كانت وفديين وسعديين.

وحين يحتد النقاش يقول حسن وهو ينظر إلى صورة عبد الناصر التى رسمها بنفسه:

- كفاية إن الملك خرج والموسيقى بتعزف له السلام الملكى. ثورة بيضا. ماتشوف الثورة الفرنسية وثورة البلاشفة. قتلوا كل العيلة المالكة والقيصر.

ويدافع خالى عن الأملاك والقصور التى نهبت، وكأنها كانت ملكا شخصيا له. ويأسف على الشيوعيين أمثال ناصف الذى خرج من السجن بانفصال فى الشبكية وروماتيزم، ويذكره بطرد الملكة فريدة ودس السم لفاروق. بل ينفر فيه فجأة عرق أصولى فيبكى سيد الشهداء سيد قطب، وأخيرا يضيف:

- عبد الناصر بتاعك كان بيخاف النحاس حيا وميتا. تقدر تقول لى ليه قبض على كل واحد مشى فى جنازته.

- كل الحاجات دى حصلت من ورا ضهره. الجيش عبد الحكيم والمخابرات صلاح نصر.

وكنت أستعد لدرس الشيخ حامد حين قلت لأمى إن خالى لا يعرف شيئا ولم يقرأ كتاب التاريخ ولا التربية القومية فقالت :

- أنا برضه بحب عبد الناصر. بس هو كمان كان لسانه طويل زيك.

وأخبرتنى أمى أن عبد الناصر كان يهاجم أمريكا "واحنا مش قدها" ويقول تشرب من البحر وكذلك كان يدعو فى خطبه الملك فيصل "أبو دقن" والحسين "ابن زين "

وسألت شيخى :

- يعنى إيه شيوعى ياشيخ حامد؟

وصاح الشيخ كالملسوع :

- الشيوعيين دول ملحدين ، يعنى والعياذ بالله يكفرون بالرحمن . نبيهم ماركس وقبلتهم الكرملين

- يعنى الأستاذ ناصف ...

فقال وهو يفتح الكراس لينهى الموضوع :

- لأ، ناصف كان تلميذى . جدع ابن حلال لكن اللى فى دماغه فى دماغه. اكتب ورايا يا أشرف ياابنى. وأنا فى سنك قريت جملة للإمام محمد

عبده وحفظتها " لعن الله السياسة وكل ماشتق من لفظ السياسة من ساس ويسوس وسائس ومسوس."

وقال لأمى التى دخلت بالقهوة :

- الواد ده يازينب صعبان عليا . ده بيدخل السجن من سن ستاشر والغريبة يكتبوا فى السجن تأييد لعبد الناصر . ويوم مامات بكاه زى الخوارج مابكوا على سيدنا على.

- القط مايحبش إلا خناقه ياشيخ حامد .

• • •

كان الأستاذ وقتها فى السجن لفترة بسيطة ضمن الاجراءات الأمنية المشددة قبيل زيارة بطل الحرب والسلام للمنصورة. وذهبت مع جدتى لحضور سبوع ابنه خالد . حين دخلنا لم يكن بالبيت سوى اثنتين من صديقاتها . قالت جدتى وهى تدير عينيها فى البيت الخالى من رجله "أنت جبل يا أزهار."

حين دخلنا عليها الحجرة. كانت مستلقية على السرير . وجاءت زميلة لها من الشغل بكوب من المو غات. ولما رأت بزازة قالت:

- ادى له صدرك يابنتى.

- مااعرفش كبسة اللبن دى من إيه ياخالتى أم محمد .

ومإن خرجت زميلتها حتى سألتها :

- هى صاحبتك دى متجوزة ؟

- ليه؟

- يكن عليها العادة. خدى بالك. دا أنا مارضيتش شرف يحلق

النهارده عشان مايدخلش عليك شعره مقصوص.

وسألتها :

- عندك زهرة ؟

خرجت جدتى وعادت قائلة لها :

- أنا حطيت لك حاجة زرقا . دورى عليها أنت وحطيها فى صدرك. وبإذن الله رزق ابنك على اللى خلقه.

راحت دموع أبلة أزهار تسقط فى قهر . وكنت أراها تجلس وحدها بلا أهل، وبلا ضجيج وبلا فرحة بالسبوع. كان خشب الأرضية مشققا وكادت قدمى تعثر عند دخولى فى نقرة غطاها الحصير . لم يكن سوى السرير فقط فى الحجرة وكومودينو عليه كوافيل خالد الصغيرة. بينما كان شهدى يلعب بجوارها لاهيا . وعلى الحائط لصقت أوراق جرائد أعلاها مسامير ، علقت عليها ملابسها .

اندفعت فى البكاء لتخبر جدتى أن أعمامه لم يزوروه ولم ينقطوها . لم يكفهم أنه عندما كان فى السجن أضاعوا حقه فى مخبز أبيه وادعوا أنها نالت نصيبه وأن الباقى دفعوه فى مصاريف القضية. أما أهلها فصاروا يعادونها . خافوا على أنفسهم "كأنهم ماصدقوا ياخالتى أم محمد."

لكن جدتى قامت ووضعت بيدها خالد الصغير فى الغربال، وراحت تحرق البخور فى كل أرجاء البيت. اندفعت من الزميلتين زغرودة على استحياء ، وهى تقول: "اسمع كلام أبوك وماتسمعش كلام أمك" وفتحت باب الحجرة الأخرى لينطلق فيها البخور ، فوجدت مكتبة كبيرة هائلة، كلها من خشب السحاحير ، ومكتب بسيط. كنت أقف صغيرا على الباب، أمام هذه البوابة التى تقود إلى السجن وعداء الأخوة والقهر ،والتفت، فوجدت جدتى قد فتحت الباب فاندفع أطفال البيوت الذين لايعرفون ساس ويسوس. ألقت عليهم جدتى الملبس، وعادت إلى أزهار التى

استندت بيد واحدة على كتفى ولم تعبر إلى الغرفة. كانت تحمل وليدها خالد وتنظر إلى المكتبة والكتب الشاغر فى دموع وتقول:

- ماهانش عليا أبيع كتبه.

• • •

كان الدكتور جمال البدراوى " ابن أم جمال " قد عاد من السعودية وتزوج من شاهيناز أخت أشجان على زوجته، وارتدت نقابا كاملا هى الأخرى. افتتح عيادة على رأس شارع بورسعيد الجديد، وبشهامة جاء مع خالى محمود صديقه للاطمئنان على جدتى، وقال وهو يضع السماعة فى الحقيبة السمسونايت الخليجية:

- لأ . دا إنتى تمام يا حاجة .

فى حجرة الصالون جلس يشرب الشاى مع خالى محمود . ومن مميزات صالون جدتى أن به زاوية، إن جلست بها لن يراك المتحدث لو جلس فى ناحية أخرى غير المواجهة، هكذا سمعت...

- الله يبارك فيك يامحمود.

- آه . مش الحب القديم؟

- الأصل فى الإسلام التعدد ، وأنا والحمد لله — وأما بنعمة ربك فحدث — عملت فى الكذا سنة دول ١٠٠ ألف جنيه. يعنى أقدر أفتح بيتين.

- ما شاء الله ما شاء الله. مبارك إن شاء الله. والحاجة ربنا هداها ووافقت.

- كله من المجنون ناصف.

تشاغلت بكتاب القراءة وأنا أسمعه يحكى لخالى أن الأستاذ زاره بعد الخطوبة،

حين تقدم لها أول مرة، وسأله كيف لا يستحى من الزواج ببنت قاتل أبيه. روت البيوت قديما أن الست جمان أفنديتا نفسها ذهبت إلى أبلة أزهار التى خرجت من بيتها إشاعة أن جمان زوجة ضابط كبير، لم نعرف تحديدا هل هو من ضباط الثورة، أم مأمور سجن، وهربت هى وبناتها من القاهرة بعد التهديدات المتواصلة من الشيوعيين بقتله جزاء وفاقا على مافعله بهم. كان ذلك قبل وفاة ناصر بقليل. كذلك روت البيوت أن الرجل ركبه الرعب، فكان يحتفظ بمسدس ولا يخرج من بيته. بل إنه حين شهق شهقته الأخيرة، ظنت زوجته أن الشيوعيين قد هاجموا غرفة نومها. وعلى هذا فلقد رجتها أن تتوسط ليتركها شيوعيو المنصورة فى حالها.

- أنت عارف يامحمود الراجل من كتر التعذيب — ناصف — فاكر كل ظابط جلاد ومن سارقى الثورات زى مابيقولوا. المهم سخن أمى. سألته شفته بنفسك عذب أبويا ؟ ونفرض حتى ...كان موظف بيؤدى عمله .

وحكى كيف صرخ فيه الأستاذ أنه حزين أن يصدر هذا الكلام من ابن مناضل مات من أجل القضية. قال الدكتور جمال:

- أنا أبويا مات فى حادثة عربية أثناء الترحيل. قال لى كأنك لا تحترم نضاله. ماعرفتش أمسك نفسى وقلت له مات عشان عبيط زيك. قضى حياته فى السجون مع مجانين أمثاله، وسابوا نسوانهم يشحتوا، هى دى البطولة؟ اللى أعرفه صورة واحد ساب أمى فى عز شبابها لا عازبة ولا متجوزة، خدامة فى البيوت. والشيوعيين ماافتكروناش. ترك لى صدقات وصداقات مشبوهة ودم ملوث منعنى من التعيين فى الطب الشرعى. قال إيه أبوك صاحب موقف سيذكره التاريخ. أنهو تاريخ ؟ التاريخ بيكتبه المنتصرين . وحتى لو افتكروه. أنتم كنتم رؤساء الحزب؟ إيه وزنه؟ جميل قوى انتسب لحزب من اليهود والملحدين وعمال التراحيل والسمكرية. عيط زى العيال، وقال لى أبوك مات فى استقبال الأوردى. سألته يبقى مين قتله؟ عبد الناصر؟ أنا فيه أيام كنت بأبات فيها من غير عشا ونفسى أقتله لكن عبد الناصر هو اللى

دخلنى الجامعة. عبد الناصر هو اللى أنت بعت له تأييد من السجن. وولولت عليه يوم مامات وأنت واقف على المحطة لحد الفجر مستنى أتوبيس عشان تحضر الجنازة. ده يامحمود لما خرج ماقدرش يدفع الكفالة واشتغل بيها ساعى أربع شهور فى مديرية الأمن.

كان الدكتور قد غلى رأسه بالغضب فقام واقفا. حاول خالى تهدئته فقال:

- سيبك من ده كله. البت زى القمر وأنت كنت رايدها من زمان.

فضحك وقال:

- الله يخرب عقلك يامحمود ..اكبر بقى ياأخى. أقول لك على حاجة غريبة. الحزب اللى محموق عشانه عرفوا يعملوا اختراق لجهاز الأمن. كان فيه ظابط باين ولا وكيل نيابة منهم بيسرب هم الأخبار أول بأول. وقبل كل كبسة كانوا بيتصلوا ببعض عشان يخلصوا من المنشورات. لما المباحث اتجننت لجأت لأسلوب تانى تلفيق الأحراز. قيادة الحزب كان لازم تختار ضحايا. أول اللى ضحوا بيهم أبويا وناصف. قال إيه تعذر الاتصال بيهم، ماعندهمش تليفون زى فلان وفلان. وعرف الكلام ده فى السجن وساب زنازين الحزب لكن برضه مامضاش على قرار الحل.

• • •

فى شارعنا أقام أبناء النسيرى صوانا ومؤتمرا انتخابيا للدكتور سمير أبو العينين، عندا فى ممدوح عودة الذى لم يره أبناء النسيرى بعد نجاحه "وآدى وش الضيف". كعادته رفض الأستاذ أن يكتب اللافتات الانتخابية رغم أن الدكتور كان يساريا معروفا. هكذا جلس مرشح آخر هو عم محسن اصطفانيوس الخطاط ليكتب بيده اللافتات جميع منافسيه وأولهم عودة وسمير. ولم يكن عم محسن سمح النفس

ليحب أعدائه كما قال المسيح. بل لأن الشغل كان على ودنه، وهو موظف بالمحكمة، فرشح نفسه فى حمية الانتخابات لحاجة فى نفس يعقوب، وهى حصوله على شهر أجازة بحجة التفرغ للدعاية الانتخابية. على هذا لم يوزع مثلهم صورته على البيوت، وكتب بالروح والدم يبايع أبناء رابع النجار... مرة ممدوح عودة ومرة سمير أبو العينين على حد سواء.

كانت البيوت تظن أن فرصة الدكتور رغم فشله السابق والمتكرر فى دخول المجلس قوية هذه المرة بعد حل المجلس القديم. فيما بدت فرصة ممدوح عودة ضعيفة، لأنه ابتلع طعم فخامة الرئيس ورفض المبادرة.

أقيم السرادق تماما تحت بيت الأستاذ الذى صارت له الآن نوبات شرود طويلة. وجاء الدكتور سمير فألقى السلام على شرفة المناضل العجوز. وتبارت الكلمات. وردا على صوت هاجمنا من سرادق عودة بأن الحاج ممدوح لم يرفض المبادرة بل استفسر فقط من الزعيم المؤمن، فأساء البعض تفسير موقفه. ارتفع صوت المهدى من سرادق الدكتور سمير رادا عليهم ومشيرا إلى اليسارى القديم "نعم للرجل الذى قال نعم لمبادرة السلام..."

رحت أصفق مع الأطفال وقد سرى الحماس فى رأسى، واندفعت صيحات الاستحسان والصفير من أبناء النسيرى "الله اكبر ..ملعوبة ياأستاذ" حتى نهض الدكتور من على الكرسى وانحنى ليرد التحية مصفقا للمهدى .

لكن ما فاجأ أصحاب البطاقات الانتخابية فى تلك اللحظة هو ارتجاف الدكتور والمهدى المفاجئ وقد استحما بالماء البارد. بينما كان الأستاذ ناصف من البلكونة يضحك ضحكة هستيرية ويبدو — وأعتذر للأستاذ عن قوها — بعيون مجنون.

انطفأت ابتسامة المهدى الواسعة بحلة الماء التى رفعها الأستاذ فى الهواء خالية. ودق عليها ثلاث دقات قائلا :

- أحسنت يا أستاذ.

تحركت الكراسى فى غضب، لكن الدكتور المبلول رفع رأسه فجأة للرفيق القديم والعجوز مثله واندفع فى الضحك، وتبادل الرجلان نظرة تواطؤ، لوم، اعتذار ... لا ندرى. لكنها نظرة منعت أبناء حى رابع النجار من الفتك بالأستاذ ناصف وولده شهدى.

كفوف ملطخة بالدم

علمنى شيخى أن مصائب قوم عند قوم فوائد، وأن سافر ففى الأسفار سبع فوائد. وعى الدرس الأستاذ سعيد موظف الضرائب وأحد أهل الطريقة. وكذلك عم خفاجة الشيوعى، وسافرا طويلا. وطال السفر حتى يجنوا الفوائد السبع غير منقوصة. لكن عم عوض أبو سمرة جمع الفوائد السبع فى عام واحد وعاد ليكذب قول الشيخ، فمصيبته صارت مصيبتنا واتضح أن مصائب قوم هى عند ذات القوم فوائد.

عم خفاجة لم أره. فلقد كان أول المسافرين إلى بلاد النفط. بدأ بليبيا حين أعلن عبد الناصر أن القذافى هو الأمين على القومية العربية. وانتقل بعدها إلى الكويت حين استقر فى الأذهان أنها دولة ذات سيادة. ومن الكويت بدأ فى إرسال الدينارات.

هدمت أم عزت زوجته البيت القديم، وكانت تصنع ببطانية قديمة خيمة تنصبها أمام أنقاض البيت. لما شرعوا فى بناء أعمدة البيت الجديد نصبت البطاطين فى الداخل. ارتفع الطابق الأول فسكنته العائلة التى طالما نظرت إليها البيوت فى أسى وإشفاق.

بدت الكويت وقتها ناقة عجفاء. لايدر حليبها إلا مايسد الرمق. لكن حكمة أم عزت تجلت حين شرعت فى بناء الدور الثانى وأجرت الأول. وما إن ارتفع الثانى حتى أجرته وسكنت الثالث ..حتى صار البيت خمسة أدوار سكنت آخرها. وخوفا من الحسد، ملأت السلم بالكفوف المرسومة بالدم، وأحرقت البخور كل جمعة، وكنست عتبتها. سافرت بنات أم عزت واحدة فواحدة. وبعد الحرب مباشرة

لحقت بهم أم عزت وبقى عزت والصغيرتان.

عزت كان طويلا لدرجة مضحكة وحافيا دائما. لكنه تميز فى شارعنا بشوط الكرات السن، الأمر الذى جعله ينضم أحيانا وفى ظروف استثنائية لفريق عنتر. والسبب فى ذلك أن أحدا، حتى وبعد أن أنهى الدبلوم، لا يأمن أن يلاعبه. فهو إن خسر يعود بأمه تجره من شعر رأسه الأكرت، وهى تصفعه على قفاه وأصداغه، وتندفع فى البكاء والصويت وتقبيل الأيادى حتى تستعيد كل مليم خسره.

لم تتوقف عزت عن ادعاء الفقر. كانت البنت الصغرى قد أصيبت بشلل الأطفال، فبكت أم عزت وقالت إن العين قد أصابتهم وأن غربة زوجها والبنات ليست إلا لتدبير ثمن جهاز من أجل الغلبانة. تتلذذ – هكذا كنت أعتقد – بالحديث عن المستقبل الأسود الذى ينتظرها وكيف أن قلبها يتقطع عليها. لم تشاركها البيوت خوفها من المستقبل. فعزيزة كانت تجرى كالرهوان وتركب الدراجات أشطر من الصبيان، تصعد السلم حجلا وتنزله وثبا. حين اشتروا لها حذاء طبيا ، كان فرجة شارعنا، بدت عزيزة سعيدة بهذا الحذاء الضخم، لكنها فى اليوم التالى تركته وجرت حافية كالعادة تطارد قطة أو سحلية.

أما أختها أميرة التى تكبرها بشبر واحد . فلقد كانت سمراء وصلبة العود، وتلعب مع الصبيان البلى والكرة، وتبطح معظم أطفال البيوت. وكانت لها مواهب خاصة فى الردح، فحين تندفع البنت فرنسا بالغناء "ياسودة ياكودة يامرات العسكرى ..." تقاطعها بسرعة "لأ، ياروحى الأسمر شيكولاتة والأبيض بربور ع الحيطة." ثم تنقض على رأس فرنسا الصغير، وتكاد تكتم أنفاسها حتى يصبح وجه البنت الأبيض فى لون الدم وتسقط ضفيرتها على الأرض.

كانت أميرة اسما على مسمى. فلقد امتلكت – كما يقول الأستاذ ناصف – قلبا شجاعا لأميرة إسبرطية محاربة؛ تطارد الفئران والعرس والسحالى بلا خوف، وتخفى شعرها دائما. كان قليلا وملفوفا على بعضه كالخواتم فى لون ترابى. كانت أم

عزت، التى تتدبر دائما للمستقبل، تحلقه لها زيرو وتضع عليه خلطة سرية من زبل الحمام والشبت والجاز ثم تلفه بتربيعة. وكانت أميرتنا الشجاعة تحمل راضية هذا التاج. وما إن تخلع التاج لأيام حتى يبدو شعرها قصيرا كما هو. وتبدو عيونها وقتها كبيرة واسعة ومذعورة. وحين تهرش رأسها، تصرخ البنت فرنسا:

- ماحدش يقرب من راسها . راسها فيها حرارة.

شبت أميرتنا على الجهاد للقضية. فلم تترك بابا إلا وطرقته، وكأنها مندوبة المجهود الحربى "أمى بتسلم عليكى وبتقول لك عايزة كباية زيت لحد مانجيب التموين." أو " كبايتين رز لعزيزة أختى المكسحة." وحين حاولوا طهورها، لم تكن مثلى لقمة سائغة للأسطى "وتة" بل هربت، وجاءوا بها فى اليوم التالى من طلخا.

• • •

أم عزت كتومة جدا. ولعل السبب هو تجربة عم خفاجة الشيوعى مع المباحث. كانت تجلس على حصيرة على السطح تفتح الكوتشينة. ترد سلامات أهل البيوت أوترتب موعدا للذهاب إلى السوق. وفى اليوم التالى حين تستأخرها الجارة وتسأل عنها تعرف أنها سافرت فى الفجر. لم نعرف أبدا موعد عودة أفراد العائلة. كنا نفاجأ دوما بعودتهم فى سيارة بيجو محملة بالكراتين والحقائب وكان أهل البيوت قديما يخفون لمساعدتهم. وقل الحماس شيئا فشيئا. فلقد ارتبط لحظة وصولهم بسباب شديد "دين أم دى بلد ..بلد وسخة ..بلد جعانين" على أثر مشاكل جمركية وأوزان زائدة. كذلك التوى لسانهم بلغة غير لغة البيوت، وصاروا يقولون بدلا من العربية سيارة وسموا العيش خبزا والفلوس دينارات. وربما تغيرت قلوب البيوت، لأسباب غير وطنية مثل أنها لم تنل قميص نوم أو بيجامة صينى! وربما لأن حبيباتها لم يكنّ من أهل البيوت. كن دائما من قريباتها وأخواتها ذوات الطواقى الشبيكة ذات اللون البنى. كانت زوجة الأستاذ ناصف جارتها فى البيت المواجه لبيتهم تدعوه بجيتو أم عزت. لطالما تعجبت البيوت لأن أم عزت بخلت على نفسها

بما لم تبخل به على أهلها ؛ فحين تعود من الكويت هى أو أحد أفراد العائلة يمتلىء بيتهم بثلاثين أو أربعين شخصا ، بينما يبذرون أطفاهم على السلم وفى الشارع. جعلت أم عزت زيجاتهم من بعضهم البعض وخصصت لكل بيت منهم دخلا ثابتا . وعلى هذا كانت تتخذ القرارات الهامة فى زواج وطهور وسفر أعضاء الأسرة.

كانت ملكة على شعب من العجزة. يقبلون أوامرها صاغرين. وكان كل إخوتها البنين والبنات وحتى غير الأشقاء تحت رجليها دائما كما تقول جدتى. كانت تجلب هم كل ما تناله يداها من الكويت. بدءا من وجبات مدارس مجانية وحليب مدرسى وعلب مربى بلاستيكية كذلك مرق دجاج وكشاكيل وأقلام رصاص. حتى البطاطين والملابس والسحاحير الخالية.

فى زيارتهم كنت أجد صعوبة فى تخيل مفهوم البركة التى تجعل حجرة وحيدة وصالة تتسع لهذا الجرمق. كان بالبيت حجرة كبيرة مغلقة. عليها من الأقفال مادعانى للظن أن بداخلها كنوز سليمان. وكان باب الهيكل موصدا دائما أمام الغريب والقريب. وما إن يصرخ عليهم السفر حتى يخلو البيت ويعود إلى سكونه. حين آن الأوان لعزت رحل هو الآخر، بينما ظل عم خفاجة نجار المسلح الذى صار اسمه الحاج خفاجة لابدا هناك. لم تر البيوت وجهه وإن رأت صوره، وكان الأستاذ ناصف يقول إنه نذر نفسه للقضية وستحتل عائلة خفاجة الكويت قريبا .

كان طول لسان الأستاذ ناصف مستغربا ، لكنه كان رئيس التنظيم الذى ضم عم خفاجة. وحين أخبرنى أبى بذلك استغربت أكثر ، فالكتب تملأ منزل الأستاذ ناصف، وحتى خالى محمود لم ينكر أن الشيوعيين مثقفون. أندهش لأن أهل الكتب ضموا إلى صفوفهم عم الفلسطينى مصلح البواجير وعم خفاجة نجار المسلح.

* * *

البيوت تعرف جيدا أبلة أصيلة، فهى زوجة عم سالم صاحب مكتبة التوحيد. ولسنوات وسنوات شهدت البيوت أنها لم تتخلف يوما عن المجىء فى عز

الصهد والمطر، بعد انتهاء عملها مباشرة فى مستشفى الصدر، وهى تحمل سلة الخضار. لا تنصرف إلى بيتها وأولادها إلا بعد أن تطبخ للبنات. تعلمت أميرة وعزيزة بسرعة. لكن الخالة لم تنقطع عن الظهور يوما فى شارعنا بسمرتها الطيبة. إن مرضت إحدى البنات تسهر عليها حتى الصباح، تغلى الينسون والكراوية والشيح وتحرق البخور. تجلب لهن دائما زجاجات بيضاء لدواء الكحة العجيب، الذى طعمه هو خليط من الجاز والبنزين والديتول وربما ماء النار، وثبت أن فيه منافع أخرى فهو قاتل لديدان الأمعاء.

كنت فى أيام الامتحانات أرى عم سالم قد أغلق المكتبة، رغم أن رزقه أضيق من سم الخياط كما يقول شيخى، وجاء لتوصيل البنات إلى المدرسة. لا يتحرج أن يرجو المراقبين ويوصيهم عليهن. كانت الامتحانات تتزامن مع موعد امتحانات بناته، فكان يفضل بنات أم عزت على بناته. كنا نراه يمسك كتابا وهو واقف على السطح بوجهه البشوش الأبيض وطوله الفارع، رغم أنه لم يحصل سوى على الابتدائية، يذاكر لبناته وبناتها حتى الثانوى. وبعد الإغلاق يمر دائما على بنات أم عزت قبل أن ينطلق إلى شقته الصغيرة فى إحدى عمارات المساكن الشعبية.

كان يفض نزاعات الأختين بلسان حلو. وينهر عزت لو جاء ومعه صاحب إلى البيت. له قدرة مذهلة على مشاركة أهل البيوت الرأى فيما تحمله الجرائد والراديو. يطرب لأشعار طريقتنا ويحب الست. والست كانت عنده سهير زكى ابنة حتتنا. يترحم على ملكنا المخلوع صاحب الذوق الرفيع فى النسوان، الذى لم يكن يجد وقتا لأكل الحمام، فكانوا يعصرونه لجلالته فيشربه قبل النط.

وكانت دائما تصحبه فى عودته إحدى بناته اللاتى ورثن عنه ذلك الطول، من غير قبح بل فى انسجام، وكان لشعرهن الطويل الأسود وعيونهن العسلية سحر جميل.

* * *

بلا مقدمات علقت الزينات لزفاف عزت وفريدة.

بدا الخبر مفاجئا. فلقد قيل من قبل أن عزت سيتزوج من كبرى بنات عم سالم. لكن أحلام دخلت الجامعة وصار الموضوع فى خبر كان. وحين أنهت من تلتها أمال مدرسة الحكيمات قيل إنها العروس المناسبة للسفر مع عزت. لكن أمال وضعت العائلة أمام أمر واقع واختارت بعناد شابا أثبتت الأيام، رغم توتر العلاقة بشدة بين العائلتين وجهود التفريق المستمرة، أنه رجل ملء هدومه، فلم يهتم بالتلويح المتكرر بالسفر، ولم يقبل المساعدات الخليجية. تيسرت أموره بسرعة فى وقت صار فيه للصنايعية سطوة ملحوظة. كان ذلك التمرد بداية سابقة خطيرة. فأم عزت التى تتكفل بمصاريف فرح وزفة كل بنات العائلة وتشارك فى الجهاز. أقيم الفرح فى غيبتها. قاطعت أختها حينا، لكن أمام صلابة الجدع وخوفا من ضياع النفوذ، رضخت أم عزت. قالت أمى وهى تضحك إنها مثل الروس أعطاهم السادات على دماغهم فقالوا كمان وأرسلوا السلاح رغم طرد خبرائهم.

أما أن يتزوج عزت بزهرتهم فريدة، التى سميت بهذا الاسم تيمنا بالملكة الطاهرة العفيفة. فهذا أمر أدهش أهل البيوت وقالت يسرية ليلة الحنة: "والنبى دى خسارة فيه!" كانت يسرية لاتنسى لعزت أنه أنذل زبائنها، وطردته أكثر من مرة لبخله. إذ قال لها يوما إنه سينصرف لشراء عشاء وفول سودانى وكام زجاجة بيرة لزوم القعدة ولم يعد. انتظرته البنت حتى الفجر ونامت على صدر أبلة يسرية مقهورة ومن غير عشاء.

لم تكن البيوت تحب نظراته المقتحمة التى تعرى نساء البيوت، وكانت له الفضيحة إياها مع نجوى التى ضبطها زوجها فى حضنه ملطا على السرير، ومن رعبه فتح نافوخ الرجل والنافذة وهرب على المواسير. أما عنتر ورفاقه فكان الدم يغلى فى عروقهم، حين تنادى عليه من بينهم بنت فيتبادل معها فى ذعر حديثا خفيضا، بينما تحتد البنت وتشتمه أمامهم بصوت عال.

كنت مندهشا لوقت الزيارة المتأخر، ومن الصالة كنت أرى دموعها وزينتها السائلة.

- مش عايزاه ياأبلة..مش طايقاه.

وكان عم سالم قد جاء وراءها فقال:

- تكونيش عايزة ابن الحلوانى ؟

ولم تصدق أمى أن ابن البيومى، حلوانى المنصورة الشهير، قد دق باب عم سالم.

- ياست أم أشرف حصل.

وخفض صوته متابعا :

- لو جالى ومعاه أبوه ، كنت قلت خدوها وفوقيها عينيا الاتنين . لكن ده حيلة أبوه واحنا..لا إله إلا الله ماأنت أدرى بالحال.

قالت أمى:

- عزت ابن خالتك والدم عمره مايبقى ميه. هو بقى له سنين بره وزمانه عينه اتملت واتغير. البيوت يافريدة ماتتفتحش بالحب بس. ماعندك أشجان وخالد. حد كان يصدق إنه يسيبها.

وجاء صوت أبى أخيرا :

- ياعم سالم إلا فى دى. مادام قالت لأ خلاص قولوا له.

وصرخت فريدة:

- ماهو عارف إنى مش طايقاه ياعمو. فى الأول كان بيهددنى يقول لأبويا. لو كان راجل كان ضربه. لكن ده جبان يوقفنى فى بير السلم ويد

إيده عليا.

ثم بكت وهى تضيف :

- ويقول لى بقى كده؟ طيب حاقول لأبوكى.

اسود وجه عم سالم وتوقفت يده عن كر حبات مسبحته، وقال بصوت عميق:

- قال لى. عرفت وقطمت رقبتها ومنعتها عن المدرسة شهر . آخره جانا سى شريف طلب ايدها بس معاه واحد صاحبه.

وتنبهت أمى أنى ألبد فى الصالة، فصرخت فى وجهى أن أذاكر فى غرفتى. وفى بيتنا كانت هذه إشارة دائمة أن الحديث يحمل شيئا هاما لابد لى أن أحفظه، أغمض فى حجرتى عينى، وأشحذ آذانى. تصبح حواسى إسفنجية تمتص أقل صوت أو نأمة. لا يهم أن تفهم إنه عالم مسحور فى جمال حواديت جدتك.

- بكره تعقلى وخالتك أحن عليك من الغريب.

وانصرفا بعد أن استهدت البنت بالله، وقامت خناقة مكتومة بين أبى وأمى لكنهما أغلقا عليهما باب غرفتهما فلم أسمع.

* * *

فى نهاية العام اصطحبتنى أمى لزيارة أبلة أصيلة، وهددتنى أننى لو أخبرت أحدا فستقطع رقبتى. كانت الخطبة قد تمت وعاد عزت إلى الكويت. وما إن فتح الباب حتى فاجأت أقدامنا كنبة الصالة فى طرقة ضيقة جدا وزكمتنا رائحة زاعقة. المطبخ يفصله عنا ستارة نصف مسدلة. ظلت بنتان واقفتين، ربما لأنهما لم تجدا ماتجلسان عليه، فيما ضمت أخرتان جلبابهما على ساقيهما وعادتا للمذاكرة على سرير غرفة النوم المفتوحة.

- أمال فين فريدة؟

صرفت أبلة أصيلة البنتين وقالت بصوت هامس وعيون دامعة:

- مدوخانى ياست أم أشرف. مش قادرة عليها . ومش عاجبها العجب. شوفى السيغة فى ايدها قد إيه! ولا لبسها؟ دى لما بتعدى على أبوها فى المكتبة. ماتخدش منه أقل من جنيه ..بس...!

وانخفض صوت أبلة أصيلة أكثر وهى تقول:

- جالنا تانى وأبوها قال له كل شىء نصيب ياابنى. أمر الله ألا يخطب أحدكم على خطبة أخيه. رد بكلام متستف وقال بنتك مش عايزاه، سى سالم زعق، وقال له إنت إيه حشرك بيننا يا أفندى.

قالت أمى:

- خلاص تتجوز بسرعة وتسافر له، حتى لو بتوكيل.

اختنقت أبلة أصيلة بالبكاء وراحت تعض على يدها وتكتم صوتها، وكنت مفزوعا وأنا أراها تخبط على صدرها وغطاء رأسها يسقط على مسند الكنبة. ودارت وجهها فى الناحية الأخرى وهى تقول:

- أنا خايفة ..خايفة من الفضايح ياست أم أشرف ..البت ..البت لسه بتقابله.

ولم تجد أمى ما تقوله ولم تعرف أين تصرفنى فقالت:

- ماكلمتيش عم سالم؟

- قال لى أنا عند كلمتى ياأصيلة، يجيب أبوه وياخدوها وفوقها عينيا الاتنين.

خيم صمت كثيف مورق. تحجرت فيه الدموع، وفاح البيت برائحة صهد وزحام وفقر وخوف، ورائحة ميزتها أخيرا لعرق ماتحت الإبطين.

* * *

عاد عزت مع أمه لإتمام الزفاف. هذه المرة فى سيارة كابرس بيضاء ضخمة ، تحمل أرقاما جمركية كبيرة خضراء. وقالت أم عزت مدافعة عن فقرهم المقدس:

- قلة عقل ياخالتى أم محمد. هو احنا وش عربيات! منين؟ دفع اللى وراه واللى قدامه وماخلصش منها. قال عرجة وتقول للسايغ تقل الخلخال.

كان وقتها يركن سيارته تحت بيت أشجان، ويجلس قليلا مع خالد أو عنتر الذين لا يحسان وجوده. أحيانا يقول عنتر متعجبا:

- الواد تيجى تكلمه تلاقيه خايف يتكلم. يكونش فاكر حنسأله عمل كام ؟

ورغم أنه مضطرا دخن الروثمان، إلا أنه كان يسلت السجائر واحدة وراء الأخرى دون أن يعزم على أحد.

وفى ليلة صيف سمعنا صوت أمه تضربه بالشبشب، تشق هدومها فى البلكونة، وهو يسرع بوضع يده على فمها ويسحبها إلى الداخل، ثم يحكم إغلاق الشيش. لكن تم كتب الكتاب وسافرت أم عزت.

ودارت إشاعة أنه طلب من أمه أن يتزوج بأشجان!!! أكد الإشاعة عدم جلوسه فى اليوم التالى مع الصحاب. أوقفه عنتر تماما تحت بيتها وهو عائد وقال:

- أنت راكب عربية ياروح أمك ومافيش حيلتك علبة روسمان؟

وكان البعض يؤكد أن عزت يضع سجائر بلمونت فى علبة الروثمان، ومع

ذلك يشعلها بولاعة ذهبية. دعاه خالد بنظرته الميتة للجلوس واللعب وهو يقول:

- عيب ياعنتر عزت صاحبنا وأخونا.

وفتح باب الدكان على آخره. وعلى أول الشارع وقف غفير عمارة عم عوض ليراقب الجو. ساعتها فتح شباك أشجان، ربما مصادفة وربما عن حب استطلاع لمعرفة العاشق السرى الذى أراد ترك ابنة خالته ليهنأ بأشجاننا.

* * *

فى اللعب خسر عزت كل ما فى جيبه. لكنه عاد وفتح السيارة، وأخرج من التابلوه ألفين جنيه وضعها على الترابيزة. أضيئت الأنوار فى بعض البيوت ثم أطفات. وظل الكثير من المتابعين يدخنون فى شرفاتهم فى الظلام، بل وأيقظوا نسوانهم لعمل الشاى. وكان ظهور كل هذا العدد من الأوراق الحمراء فئة العشرة جنيهات معجزة ليلية.

كان خالد يميل السيجارة كعادته على جانب فمه، فيبدو مثل عربة بطاطا تدخن. لايكلف نفسه عناء جذب أنفاسها، ويترك الرماد يتساقط فوق ملابسه. وعيونه تكاد تختفى تحت خصلته السوداء. وبعد أن خسر عزت ثلاثين جنيها، صرخ على يسرية فجاءت بزجاجة ماء من الثلاجة ليس لخاطره ولكن إكراما للباشمهندس، سكبها فوق رأسه ووقف مبلولا ينتفض. خلع جاكت الديونين الذى راحت موضته وفتح أزرار قميصه المحبوك المشجر حتى سرته، بينما راحت السلسلة الذهبية تتأرجح من رقبته فى الهواء مثل بندول.

أعرف كيف يلعب خالد. ومن السهل تصوره مثل تمثال شمع. لاتهتز سيجارته أوخلجة فى وجهه، وقد نام على ٢١ .يبحلق بعيون زجاجية لا تشى بما خلفها وهو يرى عزت يضارب حتى يخرج من اللعب. كان عزت أحيانا يجد ورقتيه عشرة وآس والمضاربة فى صالحه، لكن الحظ يعانده فيسحب آس آخر. سوف يمسح

وجهه بيده ويلتهم أنفاس سيجارته البلمونت "عشرة جنيه وآخد كارت متغطى" .لا يكلف خالد نفسه عناء توزيع الورق بل يتركه على الترابيزة قائلا : "اسحب" .

لم يكن له فائدة. فلقد كان شايب، وخرج من اللعب. عند هذا الحد اقترب البعض ورفرفت الأخبار فى الليل على البيوت، ونزل رجال ليس هم من ماض يذكر فى لعب الورق، وجاء بعض الساهرين من الفريق القديم وانهمكوا فى تدخين السجائر بعيون جاحظة، تحيطهم سحابة كثيفة من الدخان. نزل الفجر بشبورته وسعل من سعل. ذهب عم محمود لصلاة الفجر وعاد دون أن يتم تسبيحه، بل إن عم خليل المخبر وقف بنفس البالطو الذى يرتديه وقت العمل الرسمى متابعا .

كانت ليلة غريبة على البيوت. كان الخبر يسهر فى حجراتنا وعلى فراشنا ويتسلق جدران البيوت مثل طيور سوداء هبطت علينا بلعنة منتظرة. وكأن حية هائلة تبتلع الشمس فتتأخرت عن المجىء . وهاجمنا البرد عنيفا قبل موعده. صحيح أن خالد لطالما لعب، وكان الدور يصل أحيانا إلى العشرات. لكن فى هدوء وبلا اهتمام من البيوت، وبعد خسارة ضئيلة يرحل الضيف. فى الشرفات كان الشاهرون يشيرون لبعضهم البعض بإشارات ذات دلالة كانوا يفكون شفرتها بنظرة واحدة إلى دائرة القمار . كانت عيون الدائرة ترفرف أحيانا نحو الشرفات فى اتفاق صامت على تزويدها بالأخبار أولا بأول.

وكان يدور فى البيوت دون تصريح أن عزت نتن ويخاف أن تقتله أمه إن عرفت، فاستمر يلعب مستميتا ، ولم يعد الموضوع موضوع أشجان، فبالتأكيد كانت فى سابع نومة. وفتح عم غنيم دكانه وعاد للجميع بسجائر روثمان حقيقية. وبنفس الصوت الخفيض كان يدور اللعب، إلا إن طلبوا بين وقت وآخر كوتشينة جديدة. ضعفت النار فى منقد عم محروس الغفير ، وتسلل التعب والإرهاق إلى الواقفين وكلبش البرد فى عظامهم سوى خالد . وبدأ صوت عنتر يضعف وينحبس، وهو يقول بدلا من الآلة التى توزع وتسحب وتزم شفتيها "نايم". أو يد يده ليحسب عن صديقه الأوراق ويعد "١٤ ،١٧، ٣١،٢٤ تكسب يا أعصر." أما عند الخسارة فكان

الأعصر يلقى الأوراق وأيضا يلمها عنتر.

• • •

- كفاية ياعزت وروح.

لكن عزت لم يرتدع. ظل يلعب، لكنه ثار فجأة وانتفض واقفا، حين ألقى خالد الأوراق كالعادة وصاح عنه عنتر "بره". صمم عزت فى عناد أن يرى الورق، واتفق المراقبون أن هذا حق عزت. بالطبع حاول أخيرا أن يفهم أسلوب لعب الباشمهندس. هل ينام فى الأمان على ٢٧ أو ٢٨ أم يخدعه وينام على ٢٢. فض النزاع بسرعة. والغريب، على ماسمعت، أن الأعصر فى ذلك الدور كان يمكنه النوم على٢٩ فلماذا ضارب على آس أو دو؟ وغير عزت من أسلوبه واستطاع أن يربح عدة أدوار متتالية. لكن الشمس عرفت طريقها أخيرا إلى شارعنا، ومرت فى الشارع بائعة اللبن. وفجأة قطع خالد الصمت بأن وضع كل نقوده على الترابيزة وقال :

- لاعشرة ولا عشرين العب على كل الترابيزة قصاد العربية.

وسمعت شهقة واعتدال رجل فى مجلسه، أو طرقعة فقرات الرقبة لرأس استدارت فجأة.

- الصبح شقشق. اخزوا الشيطان، وروح ياعزت.

كانت أوراق عزت مكشوفة لعم خليل المخبر، فكان يرى بعينى رأسه كيف أن عزت قد تأكسد نافوخه علاوة على أنه غشيم فى اللعبة، فأحيانا كانت تهب على الآلة الأعصرية موجات توهان يعرفها شارعنا وتتزجج عيون خالد بل تكاد تعمى، وتغطى كارتا كشف من قبل. ساعتها يتأكد كل الواقفون - عدا عزت - حين يقول عنتر "نايم" أن الباشمهندس ينام على ٢٣. عندما جر عزت ٢٦ ،رفع الرجال رؤوسهم لأن الدور قد انتهى، لكن عزت سحب ورقة آخرى كانت ٦ مثل سابقتها.

استعدوا للقيام بعد كلام عم خليل. وقطع واحد وطقطق آخر ظهره وتثاءب البعض وفرك عينيه. ارتدى عزت الجاكت الديولين الذى وضعه عم خليل على كتفه وتهيأ للوقوف. لكنه نظر إلى آخر الشارع. وبدا انه مازال فى صدمة الخسارة وأن قدميه تحملانه بصعوبة. كرر الأعصر بصوت بارد كالسكين، وقد انصهر زجاج عينيه وعاد الدم مرة واحدة إلى وجهه الشمعى:

- كل الترابيزة قصاد العربية.

يمكننى بسهولة تصور كيف بدا بيت أم عزت بعيدا، وكيف كانت الخطوات القادمة كريهة لعزت الذى يحمل رأسا ثقيلا يطن فوق كتفيه.

- لايها ياخالد وخلى الليلة تعدى.

- احنا بقينا الصبح. ياللا ياجماعة كل واحد على بيته. دى عربية جمرك ماتجيبش.

وقال عم خليل لعزت منذرا بلهجة المرة الأخيرة:

- ياللا ياعزت.

لكن رأس عزت اهتزت موافقة. واشتعلت السجائر من جديد، وضاقت الدائرة أكثر فيما كان صوت عم إبراهيم يصيح "فول ...كهرمان يافول."

وحكى لى عم خليل بعد ذلك التاريخ بسنوات قائلا:

- عمرى ماأنسى الليلة دى. فاكرها كأنها امبارح. عزت كان وشه أحمر زى الدم وعروق رقبته تقولش خراطيم ميه. ولا عينيه؟ ياحول الله. الشيطان ركبه. كأنها حلزون بتلف وتنخور فى وشه. وماكانتش رموشه بترف زينا، كأنه والله أعلم جاله الشر بره وبعيد. أقول لك ياأستاذ ... الخاتم أبو فص أزرق اللى فى صابعه وسع عليه. كان بيخرج من صابعه مع كل سحبة ورق

ويدخله تانى. وعم محمود لسه لحد دلوقتى يقول لى أنا فاكر كركبة مصارينه .

- وخالد ياعم خليل ؟

- دا كـان ابـن مـوت. زيـه زى قـدرة الفـول اللـى خارجـة مـن المستوقد، ماتشوفش عليها حاجة. المهم عزت لعب وهو اللى فرق. يـا سـلام أنا ممكن أقول لك الدور من أوله. خالـد سـحب كـارت متغطى وبعـدين تلاتـة وبعدين سحب عشرة على المكشوف بعدها تسعة فى خمسة. بصينا لـبعض . بعيد عنك الشيطان لمـا يلبسـك لازم ولامؤاخـذة يعنـى تبقـى حمـار . اللـى لسـه بيسحب وهو كاشف على الأرض ٢٧ يبقى مغطى لا تلاتة يا اتنين، قول اتنين. عنتر قال نايم. خلاص ياخالد نايم؟ ومرة واحـدة عـزت اصفر واتـرعش. عـض ايده لمـا كانـت حتخـرج بالـدم كشـف ورقـه علـى الأرض صـورتين. مـاهو خالـد خلاص نايم وعزت لازم يضرب على ٣٠ أو ٣١. كانت ايده ..لأ ايده إيـه ؟ قـول كل جسمه بيترعش . ساعتها قربنا عشان نشوف آخـرة الليلـة . بينـى وبينـك أنا قلت الواد يكسب ويروح لأمه وآدينا حبايب ، وخالد لو خسر يعوضها من بورسعيد .إلا وعاديك الواد صـهل زى الحصـان وقـال آه مـن جـواه. مـن جـواه الغويط، من روح روحه...

وهززت رأسى لعم خليل مؤكدا له أننى أفهم فأمام عـزت ثمانيـة عشـرة ورقـة للفوز. حيث تحسب الصورة بعشرة والآس بواحد أو باحدى عشر .

- ولسه حيمد ايده يسحب. إلا وخالد راح رافع القصة وحط ايده على الورق وقال استنى حأحسبها تانى .قال له عنتر اللهم طولك ياروح وشدد على كلامـه مكشـوف ٢٧ ومعـاك كـارت متغطـى. أكشـفهولك. وبصـيت لخالـد لقيت نفس البصة اللى شفتها فى عينيه ليلة ما مات، ما هو أنا اللى غمضت له عينيه، وقال كارت. قبل مانفهم سـحب كـارت عشـرة ومـاكلفش خـاطره يقـول بره. ما لحقش حد فينا ينطق. إدانا ضهره وفرد رجله علـى الآخـر وسـند دقنـه

على عكازه وقال تكسب. هو إيه اللى يكسب؟ بصيت لقيت محروس بيلم الورق ويحسبه تانى إلا ونلاقى الكارت واحد. آس آس ياأستاذ . يعنى أول ما فرّق كسب ١٤ وكان ممكن ينام لكن لأ قول خاف وقال ألعب فى الأمان . أمان إيه فى ليلة شؤم على عزت ابن المنحوسة؟ كان يسيبه وحياتك كان حيجر ٣٦ ولا ٣٧. بالكارت التالت يبقوا ١٤ جر يعنى كسب. تانى واخد بالك؟

- ....

- الله اعلم دى تقوى ولا جنان؟ ماهو مخه بره بورسعيد كان ساعات كده يقفل. مش اعترف بواد ومالوش فى النسوان يبقى إيه؟ الواد عزت وقف وبنطلونه غرقان ميه. رجليه ماشالتوش وقع فى ساعتها وسنده عنتر. ولمينا له الفلوس من على الترابيزة ألفين جنيه وعشرة. عنتر لما سمع إن الكارت آس ساب عزت يقع وشخر لخالد بعلو حسه وقال يابن المجنونة بتضرب على إيه بعد ١٤ جر؟

• • •

ولم أشارك عم خليل الضحك بل تذكرت أشياء أخرى. كان ذلك فى ليلة شتوية . حاصرتنا الريح ولم بفتح أحد الشباك ليتأكد. لكن الصوت كان من القوة لدرجة أن سمعته كل البيوت، واضحا، وباتجاه الحضرة القديمة:

"ياخالد هب أنك لاتخاف ..ألا تشتاق؟"

كنت لسنوات طويلة أراه واقفا وحده فى الريح. تحت العمود تحديدا. متكئا على عصاه وعلى ظله الضخم كربان. أحيانا كان القمر يخفى وجهه المصقول وراء سحابة، وحين يتحرر يغرقه بضوء بارد. كنا فى هذه الأثناء قد عرفنا أنه قبض عليه بتهمة الاعتداء على قاصر. لما قبض عليه أكدت يسرية أنه لم يلمسها يوما، وقال الأديب الشاب م.م. تلميذ يوسف إدريس، والذى صار فيما بعد من ألمع كتاب

القصة، أن اللمس يعنى عند يسرية بالتأكيد مفهوما أكثر عمقا وعريا وإيغالا وولوجا مما نسميه لمسا. أقسمت البنات اللاتى وقفن فى الصباح دون عمل على براءة الباشمهندس. لكن الفضيحة لم تحتملها أشجان. فلقد عرفت البيوت أن أباه طرده عند زيارته لأن خالد كتب على البنت فى القسم وسيسمى الولد باسمه.

ولم تطل وقفته وحيدا فى الليل. فلقد فسخت الخطبة وتم كتب كتاب أشجان على زوج لا تعرفه البيوت. ليلتها دخل بيت أشجان ومعه زجاجة البيرة. وظن عنتر أنه "بيفك حصرة" فى بيت أفنديتا. وسمعنا صوت طلق نارى مكتوم ارتعدت له البيوت. انطلق الصويت من بيت يسرية وصرخت أم أشجان بدورها ظنا أن الشيوعيين قادمون.

كان رأسه على قميص نوم يسرية الأحمر الذى تشرب دمه بسرعة وهى تصرخ فى حرقة ملتاعة "ياضنايا!"

وشهدت الأيام التالية ثرثرة لا تنتهى فى البيوت. فلقد أقسم عنتر ويسرية أن الحادث ذهب بساقه ورجولته، ولم يكن له أبدا فى النساء. لكن لماذا تزوج البنت واعترف بها أعلن المهدى أن أى طالب حقوق كان سيخرجه منه كالشعرة من العجين؟

وتشاءمت أم أشجان فرحلت بعد أن أطلقت ابنتها المتزوجة صرخة حادة فى الظلام هتكت كل البيوت، بينما اقتنص الغراب العجوز عم عوض كالعادة بيت أفنديتا وأشجانى .

عقب زيارة السادات للقدس عاد من عاد من السعودية. ومعهم عاد الأستاذ سعيد موظف الضرائب الذى أطلق لحيته ونقّب زوجته. جاء معه بكتب كثيرة، هذا غير ماكان يصله فى طرود بريدية كهدايا من مجمعات إسلامية. ورغم أن الأستاذ كان من أهل طريقتنا، إلا أنه عاد والعياذ بالله كما قال عم تحسين ببغض آل البيت، فقاطع الأحباب. وسعى إليه عم تحسين ليلومه بالمحبة لتخلفه عن مجلس الحضرة، فقابله فى بيته فى فتور ،ربما لأنه دخل عليه فوجد معه أغرابا ملتحين، ولم تأت زوجته للسلام عليه، بل جاءه سلامها من الحجرة الأخرى. وما إن تلفظ عم تحسين بكلمة سيدنا النبى حتى هاجمه الحاضرون، وقال له أحدهم معرفا بنفسه أنه عبد الله محمد بن فاضل إن النبى نفسه قال: "لا تطرونى ولا تسيدونى" لكن سعيد تحيز للفئة الباغية.

وكان عم تحسين يصيح مندهشا لمولانا "يعنى فى التشهد ما أقولش اللهم صلى على سيدنا محمد. ده سيدنا النبى نفسه قال الحسن والحسين سيدا شباب الجنة. بقى أنت تسيد الحسن والحسين ونحن لا نسيدك ياسيدنا يارسول الله ؟"

وأخذته الجلالة فأغمض عينيه وانتفض كأنما مسه سلك كهرباء عار وقال لاهثا "حى ..حبيبى يارسول الله ..حبيبى ياسيدنا النبى."

كانت البيوت لا تجادل كثيرا عم تحسين حتى وإن فاجأها فى معرض حديث عادى بابتسامة بلا مبرر. أحيانا نلتفت معتقدين أنه يحي شخصا ما، لكنه يعود إلى ما كان عليه وسط دهشتنا. ليقول فى توقير أنه كان بالأمس فى حضرة الأقطاب لأن نزاعا — لا تعرف البيوت سببه - قام بين سيدى الدسوقى وسيدى الرفاعى، ويحكى

للبيوت كيف فصلت السيدة نفيسة فى الأمر وفضت النزاع، بينما كان شيخ العرب نفسه سيدى أحمد البدوى حاجبا للجلسة. لم يكن عم تحسين يواظب على صلاة الجماعة. وإن كان له كما نعرف نصيبا من صندوق النذور. وكان يقول إن ثوابها يأتيه وهو فى داره، بل يحلف أنه يحس خلفه بالسبعة والعشرين رجلا يؤمهم، وكانت البيوت تظن أنه يقصد أهل الجن.

حين استقر الشيخ سعيد، وهذا ماصار اسمه، علمنا أنه استقال من وظيفته الحكومية لأنها حكومة كافرة لاتحكم بما أنزل الله ورسوله. وسرت إشاعة أن عم سعيد دأب على جمع موظفيه ساعة قبل الانصراف ليفقههم فى دينهم، لكنه تجاوز الخط الأحمر. ولم أفهم من الأستاذ ناصف وقتها معنى الخط الأحمر.

لكن الرجل بدأ يزور البيوت وبصحبته أناس لا نعرفهم قالوا إنهم جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. بل إنه زار المهدى المحامى وعيادة طبيب ومحاسب قانونى على أول الشارع لم تكن البيوت تعرفهم أو يعرفونها.

وحين افتقده مولانا فى صلاة الجماعة، أفتى الشيخ سعيد أن الصلاة فى مسجد الجوهرى لا تجوز لأن الرسول لعن أقواما شادوا مساجدهم فوق القبور. ولم يكن الشيخ سعيد من حفظة القرآن، لكنه فاجأ مولانا بعشرات الأحاديث النبوية والقدسية. بل واتهم الرجل عم تحسين والأحباب بالشرك، لأنهم يفسرون أشعار الشيخ من القرآن بدلا من أن يفسر هم شعر الشيخ القرآن. بدت القضية أكبر من مولانا لكنه هز رأسه موافقا. كما أنهم، ومازال الحديث للشيخ سعيد، لا يطلقون اللحى. ثم ساق ثمانية أدلة صحيحة بإذن الله تثبت أن تارك اللحية فى النار. كما أن تقبيل صورة الشيخ برهام هو شرك من عمل الشيطان.

* * *

وبدأت خطوات الشيخ سعيد تكثر فى شارعنا فى أوقات الصلاة، متعمما بعمامة بيضاء. يمشى بتؤدة . حاملا فى يده جزءا أنيقا من صحيح مسلم أو

البخاري. وفي اليد الأخرى سواكا يمسح به أسنانه الناصعة. يتبعه ولده عبد الله الذي صار يحتد إن دعته البيوت عبده. وفي غير أوقات الصلاة، كنا نرى زوجته في نقابها، وكأنها كما قالت البيوت قد ارتدت خيمة سوداء، تكاد تتعثر في ملابسها الواسعة. الطويلة لدرجة أن ذيلها كان يكنس أرض الشارع. كذلك امتنع الشيخ سعيد عن إلقاء السلام على الخواجة منير فانوس واحتج بحديث صحيح "لا تبدأوهم بالسلام" وقال عن الخواجة منير إنه كافر. واستشهد بقول الحق "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى بن مريم."

جادله مولانا، الذى ازدهرت أحواله قبل ذلك بقليل بأن عم منير جار البيوت وأن النبى أوصى على سابع جار. رد الشيخ سعيد أن المصيبة أننا ننسى الحديث وقرأ مولانا عليه غير ناس "لتجدن أكثرهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى." ولم ينس مولانا كذلك أن يذكره أن الصف صار خلفه مكتملا لأول مرة فى جماعة وقيام رمضان وأن الأيام القادمة أيام خير.

علمت ذلك حين سألت جدتى أبى: "يا حسن أنت أزهرى، صحيح القبط كفرة؟" وتفرست أم محمد فى وجه أبى تستنطقه فتوى على هوى القلب. طوقته بنظرة حب وكأن كنها قد صار الآن شيخها وحبيبها ومنقذها. قبل أن ينطق قاطعته راجية أن يصلى أولا على سيدنا النبى. وقال الشيخ حسن أن الكفر غير الشرك وطمأنها أنهم ليسوا هم المشركين الذين حاربوا الله ورسوله وحين استرسل قائلا:

- يعنى نحن نكفر بما يؤمنون وهم يكفرون بما نؤمن فلقد كفرنا بقولهم إن المسيح قد صلب. وهم كفروا بأن نبينا آخر الأنبياء.

ولم يجزم الشيخ حسن بأن مصيرهم فى النار وبدأ يدور فى حلقات مفرغة، لم ينقذه منها إلا قوله، إن الحساب لرب الحساب هو الذى يوفى كل نفس حقها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. وكانت جدتى قد شردت منه فجأة وكأن الجنة قد بدت لها غريبة الآن. هل كانت تفتقد فيها جيرة العمر أم جورج والست تيريزا وعم مينا؟

وكان أقرب أهل البيوت إلى الشيخ سعيد، برغم كل شيء، هو مولانا، الذى كان يجلس مصححا فى بيت الشيخ سعيد ختمة شهرية. راح الشيخ يدعو البيوت إليها، ويفقههم فى دينهم بعد صلاة العشاء، ثم ينهون المجلس بقراءة جزء من كتاب الله بعدها يشربون الكركديه.

كان ذلك فى الوقت الذى اكتسب فيه مولانا مقاما استثنائيا. فمع تجديد المسجد وهجوم الحر علينا، تصدى الشيخ عبد العزيز لمهمة إقناع أهل الخير وتحديدا خالد الأعصر بشراء أربعة مراوح سانيو للمسجد. وحدث وقتها جدل واسع "هل يتقبل الله من قمارتى؟" احتج مولانا بأن الحسنات يذهبن السيئات وليس العكس. وأن خالد إن رق قلبه لبيت الله فسيرق لصاحب البيت. وانصرف الشيخ سعيد ومعه الغاضبون حين أمسك الشيخ حامد بالميكروفون وقال إن تجارة خالد حلال. وأن المراوح زكاة من كل أبناء البيوت العاملين فى تجارة بورسعيد. وضرب كفا بكف لأن عم فتح الله، الذى يعمل الآن مع عصمت السادات، وتعددت أرانبه حتى أوشك أن يكون من أصحاب الفيل، لم يدفع مليما للمسجد. أما خطيئة خالد فمهما عظمت، لا تمنعه عن بيت الله، وأنهم لم يتأسوا بسيدنا النبى ويدعون له بالهداية وهو ابن البيوت، والمؤمن لا يُعيّر بمعصية بل تُرجى له الهداية. وهكذا شن الشيخ سعيد حربه على مولانا.

• • •

وبدأت تظهر فى شارعنا لحى مراهقة صغيرة ذات شعيرات نحيلة ملتوية أشبه بالزغب لا تكاد تملأ الوجوه، تغذ السير إلى الجمعية الشرعية فى أوقات الصلاة وفى غير أوقاتها. وتركت هى الأخرى مسجدنا لسبب آخر وهى أن مولانا يشرب المعسل. وحين افتقد مولانا حناجر آمين قال بعناد:

- معسل بس ..ده أنا كمان خمورجى ونسوانجى وبتاع عيال، بس ابقوا اعرفوا اقروا لكم آيتين صح على بعض. ده الشيخ سعيد بتاعهم وقف

إمام وقرى يابنى اركب معنا، اركب بالباء ياجهلة؟ يابنى اركم معنا ..هذه أصول القراءة صحيحة ..لكن ازاى ؟ ده الشيخ قرد. طيب اركبوا معاه لجهنم وافرحوا به.

وتيسرت أمور الشيخ سعيد الذى افتتح معملا للألبان فى سندوب وأعجبه اسم التوحيد فاستأذن عم سالم صاحب مكتبة التوحيد أن يحمل حليبه ذلك الاسم "زبادى وألبان التوحيد". ووزعت عينات مجانية على البيوت تلقتها بالطبع شاكرة. ورفضها الأستاذ ناصف قائلا إنه يحمد الله أنه عاش ليرى لبنا زبائديا إسلاميا أصوليا فى عهد الزعيم المؤمن الذى يخطب الآن فى صحرا النقب. عمل عند الشيخ سعيد بعض الكروت المحروقة ممن وقعوا فى مشاكل مع الأعصر. وبعد أشهر معدودات غمق شعر لحيتهم واستطال، بينما حفوا شواربهم. تندر مولانا بقوله إنها ليست حبا فى الله ورسوله لكنها شرط الشيخ سعيد فى العمل. وبدأ أهل السواك يتنادون بياأخى وياشيخ. وحين كان مولانا عائدا من الصلاة مداعبا مسبحته، أوقفه الشيخ محمد وقال له: " يا أخى هذه بدعة ولن تشفع لك يوم الدين." استغرب مولانا الصوت، وحين سأله عن اسمه قال: "أخوك فى الله محمد بن عتريس" فرد مولانا فى وقار: "ومحسوبك عبد العزيز ابن ستين كلب." وفر محمد من أمام مولانا الذى مد يده لقطم زمارة رقبة الواد محمد ابن امبارح.

• • •

وبمناسبة ميلاد ابنته تسنيم، ذبح الشيخ سعيد عقيقة، وشرح لأهل البيوت ذلك الاسم الجديد على أذن البيوت بأنه اسم نهر فى الجنة. وجاء معه يومها شيخ غريب قيل إنه يداوى بالقرآن ويحمل تصريحا من الأزهر الشريف. بعدها صار الشيخ سعيد بركة، وبرع فى عمل الحجامة مجانا لأهل البيوت. حين قصد فقراء البيوت بيته فى صباح العيد لم يحصلوا على الجنيهات التى كان الشيخ حامد قد أعدها له فى قائمة بالمبالغ والأسماء التى تستحق الزكاة. قال الشيخ سعيد إنه وقع على حديث صحيح يأمر بعدم جواز زكاة الفطر إلا تمرا أو شعيرا.

والأعجب أن هلال الشيخ سعيد سبق هلال البيوت وهلال المفتى، الذى أكد أن الغد هو المتمم لرمضان. صلى الشيخ سعيد ووراءه الأخوة فى العراء على أرض نادى الشعب وعادوا بجباه معفرة لم ينفضوها سعيا للثواب، مكبرين مهللين بإذن الله. وجاهروا بالإفطار تمرا. وقال الشيخ سعيد أن الأمر فيه سعة . ووقف الشيخ حامد الأوقافى وموجه اللغة العربية والدين بالمعاش ليعلن القطيعة بينه وبين الشيخ سعيد ، وقال فى الميكروفون: "إن كدر الجماعة خير من صفو الفرد. فكيف تشقون عصا الجماعة؟ ماضركم لو استزدتم من بركات الشهر يوما؟ وإن كذبنا المفتى فعليه وزرنا."

أما الشيخ سعيد فلقد قفز نحو ميكروفون الجمعية بعد التسليم وقال إن المملكة قد أفطرت، وأن رؤية الهلال فى أى بلد إسلامى تبيح الإفطار. ورغم أن شيخا قام بعد جدل واسع ووصلنا صوته يقول إن الفريقين على صواب إلا أن الشيخ سعيد أعلن الحرب على شيخى .

• • •

ثم كانت أشهر خناقات شارعنا عند اجتماع الأحباب الأخير على أول الشارع. فلقد اشتاق عم تحسين إلى البيوت وجاورتها سرادقات الطريقة وفى الليلة الكبيرة قبل وصول سيدى برهام، وهى ليلة الخميس بعد الزفة الكبيرة وتسليمة المغرب مباشرة، هاجمت قوات الشيخ سعيد أهل الطريقة الذين يحفظون أشعار "بتوع العيال" يقصد أبا نواس، وحملوا خيزراناتهم الجليلة وفرقوا شمل طريقتنا التى قال عنها الشيخ سعيد إن الطرق الصوفية يمكنها أن تكون كستورية وحريرية كيفما تشاء ولكن بعيدا عن بيوتنا. وصرخ قائلا وهو يرفع خيزرانته وقد ارتدى للموقعة زيا باكستانيا محبوكا: "قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا."
وهدم المجاهدون النصبة فوقعت على رؤوس الأحباب، المشغولين بجمع حصائرهم وبوابيرهم وشيشتهم. فرح فيهم مولانا الذى صار أعزبا بعد وفاة أم فضيلة وقال إن أولاد الكلب من رعاع المولد، لايفرقون فى المضاجع بين رجل وامرأة ماداموا فى

طريقة واحدة. وبارك على عكس توقعات البيوت طردهم من شارعنا بعد أن نالوا ضرب الحرامى فى المولد.

وأفلحت الخيزرانة، ففى العام التالى تقلص عدد الخيام والسرادقات على رأس البيوت وبيوت الشوارع المجاورة. لم ينتظروا الليلة الكبيرة هذه المرة، وهدموا السرادقات المتفرقة التى تجاور الجمعية الشرعية. ولم يستطع المجاهدون التوغل لأكثر من ذلك بسبب الزحام الشديد، ومثل العام الفائت جاءت الشرطة متباطئة بعد أن تفرقوا. لكننى للحق أخذتنى الشفقة بعد سقوط الخيام على رؤوس الأحباب فلم يستطيعوا هذه المرة أن ينقذوا حصرهم ولا الشيشة وقوالح الذرة ولا حتى حلل الطعام. ووقف عم تحسين باكيا وقد تحطمت صورة الخليفة العارف بالله سيدى برهام الدسوقى. وفى الليل كان صوت الريس سماعين بعيدا فلم تلتقطه أذنى وقلت يائسا لجدتى أن تحكى لى حدوتة، وضحكت أم محمد فلقد كبر شرف.

• • •

وبدأ شبان آخرون كانوا يعملون يوما فى مؤسسة خالد الأعصر ولم يستوعبهم معمل ألبان الشيخ سعيد، يحيطون أنفسهم بهالة من التقوى. وصات لهم رائحة نفاذة من الياسمين، وقصروا الجلباب وارتدوا السراويل كأهل باكستان. وأطل السواك من جيب صدورهم وقالوا إنه سنة منسية، وأن المسلمين كسبوا الحرب مرة بذلك السواك. فعندما ثبت الروم على غير العادة أمامهم، تدبروا وتذكروا ما نسوا من سنة رسول الله. وحين تسوكوا فزع الروم ظنا منهم أن المسلمين يسنون أسنانهم ليأكلوهم أحياء. وهكذا لم تعد السنة، كما كانت تظن البيوت، مجرد ركعتين بعد الفريضة. فهاهو الشيخ سعيد يصبغ شعره الأبيض بالحناء. بل زار عم مسعد عدة مرات ومعه لحى غريبة، وعادوا بخفى حنين، لكنهم بدأوا خروجهم فى سبيل الله. فكانوا فى أيام معلومة يخرجون إلى مسجد ناء أو قرية بعيدة، وقد يعسكرون فى الخلاء، وشرطهم ألا يحمل السنى معهم إلا جنيهات معدودات، ولم يكن للموضوع علاقة كما ستشيعه الصحف بعد ذلك بمعسكرات التدريب على

إطلاق النار. حين انتقل الشيخ سعيد وأولاده بلال وعبد الله وتسنيم إلى بيته الملك، تمرد من تمرد على الشيخ سعيد نفسه. وسمعنا قبل صلاة الفجر من ميكروفون الجمعية صراخا هستيريا يهاجم الشيخ بحبح. كان رمضان يأتي في صيف تلك السنوات وكان الفجر يهل مبكرا فتسهر البيوت ولا تنام إلا على صوت الشيخ بحبح، وحتى إن منعني حسن من النزول، كنت أحتضن جدتي في الفراش واقرأ معه وها. كان قرآن بحبح جميلا ميسرا ورغم تأكيد مولانا على لحنه في القراءة. كنت أحس مع صوته أن حرفا لن يتفلت مني، أنسى عذاباتي في الحفظ، ولا أجهد رأسي بتذكر رقم الآيات وشكلها صفحة بصفحة أولها أم آخرها، وكانت أم محمد تحتضنني فخورة بي.

لكنهم منعوا بحبح هو الآخر من الإمامة وقرأ ليلتها لآخر مرة باكيا. وحين عاد حسن أخبرني أن شابا هائجا ظل يصيح فيهم "صلوا لبحبح صلوا لبحبح" وقال بعض الأخوة إن بحبح قد صار فتنة.

كانوا قد أحيوا سنة الاعتكاف في الجمعية الشرعية. وقامت خناقة أخرى عنيفة لأنهم رفضوا الصلاة إلا وراء أميرهم. ومن وراء ستارة نصبت بين الأعمدة الثلاثة في زاوية المسجد ارتفع صوت آخر يتحدى صوت بحبح ورددت حناجر أخرى آمين. وقال حسن مستغربا "عشنا وشفنا إمامين وصلاتين في مسجد واحد!!!؟"

* * *

استغلت يسرية العلقة التي ناها الأسطى عبد الله وحصلت على دكانه، وكان الأسطى عبد الله قد استبد به الحسد فهو يرى عم غنيم يعلق في دكانه " كلوا من طيبات مارزقناكم " ولأن القرآن لا ينضب معينه، فلقد وقع على ضالته وكتب بخط جميل على المدخل "وجوه يومئذ ناعمة" واعترض الشيخ حامد لإساءة فهم الآية، لكن الأسطى حلق مرة لمولانا مجانا، وحصل على فتوى بتثبيت الآية. وألفتها البيوت وتعودتها. وذات ظهيرة جاء الأخوة بجردل الزيت من عم شفيق النقاش

ومحوا الآية. وحين اعترض عم عبد الله على تشويه المدخل بطلاء أسود، نال علقة ساخنة هو الآخر، وتشاءم الرجل فباع المحل وهجر البيوت. وجعلته بسرية محل كوافير وكتبت عليه رغم استغرابنا "ركن خاص للمحجبات".

وحدث ذات يوم أن نزل الشيخ محمد بن عتريس وتشاجر مع الأستاذ ناصف وولده شهدى. فمع صعوبة العيش فى زمن القطط السمان. خرج الأستاذ ذات ليلة بلمبة خمسمية شديدة الإضاءة. مد لها سلكا طويلا من بيته، وجاء ببرميل فثقبه ووضع فوقه طست من الزيت، ووقف شهدى الصغير يصنع القراطيس، وتلتهب يده الصغيرة من لسع زيت الطعمية الساخن. بينما وقف المناضل الشيوعى القديم يقلى الطعمية، سارحا مع صوت أم كلثوم. وفجأة أغلق الشيخ محمد الراديو لأن الكافر كان يستمع لصوت امرأة فى الستين تقول: "خدنى لحنانك خدنى" ولم يستمع للآيات أثناء صلاة الجماعة فى العشاء. وصاح الأستاذ فى الأخوة:

- ياريت عبد الناصر كان خلاها ثورة حمرا طيرت روسكم. شوفوا لكم يومين. مش سجدتم لله شكرا فى سبعة وستين.وفى ستة وخمسين قلتم لا عدوان إلا على الظالمين؟

وكان الأخوة بالتأكيد لا يفهمون كلام الشيوعى المخرف، فلم تكن أمهاتهم قد تزوجن فى ستة وخمسين أما عام سبعة وستين فكانوا بين من يحبو ومن هو فى الحضانة.

فى اليوم التالى علق الأستاذ أسفل اللمبة صورة لينين بلحيته المدببة ورأسه الأصلع. تجاوز الموضوع التوقعات حين ألقوا بالطشت والزيت والقراطيس على الأرض وداسوا على طعميته التى تبقى القليل منها، بعد أن وضعوا رأسه فوقها فى المصفاة المعدنية. لم تتوقف الخناقة إلا بعد أن جرحت أبلة أزهار. وانصرفوا تاركين شهدى فى بكاء عنيف. تقدم الأستاذ ببلاغ للشرطة وأرسل برقية للنائب العام، لكن شيئا لم يحدث للإخوة، فعاد إلى قلى الطعمية دون أن يضع بجانبه الراديو.

المدهش حقا هو الزيجات السريعة التى جمعتهم. فلقد كان الأخ، بعد عدة شهور يقضيها فى المسجد حافظا، يقول زوجنى ابنتك لأخوة لم نرهم إلا فى زيارة وحيدة لعم مسعد. قال لى أبى أنهم سافروا إلى السعودية بعد خروجهم من السجن ثم عادوا الآن. وكان مهر بنات وأخوات الأخوة ما يحفظون من كتاب الله. فلقد تزوج الأخ نصحى بسورة الرحمن وتزوج غيره بسورة البقرة. على هذا وددت من كل قلبى لو كان عم ناجى شطيفة قد أطلق لحيته، إذن لأمكننى الزواج من هالة. لكن عم ناجى لم يطلق يوما لحيته . لماذا ياعم ناجى ؟! كان معى مهرها ؟

والجديد أنهم اكتحلوا وفرقوا شعورهم الطويلة من المنتصف مثل الخنافس كما قالت يسرية. لكنها نالت على ذلك علقة ساخنة، لم يتدخل فيها أحد حتى عنتر الذى قال :

- أنت غلطانة يايسرية. دول بقوا بتوع ربنا، والسنيين إحنا مش قدهم .

فلم تتعرض إلا للشيخ كمال بن مرزوق وقالت وهى تعيد باروكتها الصفراء إلى رأسها المبطوح:

- بقى كده ياكمولة ...تنسى اللى كان!؟

كانت اللحية هوية وميلادا جديدا، ولم تكن تثير فزعا فى البداية، ماذا فى أن يصلى الولد الفروض الخمس وأن يشهد الجماعة ويرتدى الجلباب الأبيض الصينى الصنع. ثم يطلق الآن لحيته ويرفض السلام باليد على النساء. هذا غير احترام الخطى المهرولة إلى المساجد، فحتى الأولاد سيئو المنبت هداهم الله وصاروا من البيت للجامع. وتحشمت أمامهم النساء، وأطفأ البعض سيجارته. وكان اجتماعهم أو وقوفهم بين البيوت يمنع ألفاظا طالما خدشت أذن البيوت.

كان كل بيت يحتضن لحية صغيرة يخفى فخرا مكتوما، ولقد تعجلتهم البيوت

بالفتوى، فحصلت كل لحية خضراء وجنيهات ثلاثة على فقه السنة. وأمام الجمعية وعلى السور فرشت الكتب عن فضل الحجاب وعذاب القبر وعقوبة تارك الصلاة بقروش زهيدة. أما صحيح مسلم والبخارى وتلبيس ابليس فكان يمكن شراؤها بالتقسيط رغم أن سعرها فى المتناول. ونشطت دور النشر فملأت بها المعارض ومكتبات الأدوات المدرسية.

من ناحية أخرى نشطت دوريات الشرطة فى مكافحة كرة القدم، والقبض على الأولاد الذين يلعبون الكرة فى شارع بورسعيد - ربما كان ذلك بتحريض أصحاب البوتيكات الجديدة- وتم بناء سور وبوابة حول نادى الشعب. وصارت الساحة الشعبية معرضا دائما للأسر المنتجة والملاهى والسيرك القومى، بل حتى لجان الإمتحانات. وعاد الكثيرون من الخليج، طائعين أو مطرودين، بعد المبادرة بحمى شراء الأرض وتسويرها وبناء بيوت من دور واحد، فى الوقت الذى ضج فيه قلب الرئيس المؤمن فخرا بأن أرض مصر صارت غالية. هكذا اختفت أراضى سامى الجمل وماخلف مدرسة الزراعة والجامعة. كذلك استولى الحزب الوطنى الحاكم على مكتبة البلدية وجعلها مقرا دائما للحزب. بينما كان المسجد دائما مفتوحا ومتاحا ورحبا فى أوقات الصلاة وفى غير أوقات الصلاة، وكانت طقوس الأخوة متاحة فالسواك بربع جنيه وزجاجة العطر بخمسين قرشا. وما أسهل أن يصبح الولد إماما ومعلما لأخ أو اثنين سبقهم بحديث صحيح.

• • •

كان قلبى يمتلئ يوما بعد يوم بحب الأخوة.

كانوا مثل حبات العنب التى انفرط عقدها من الجنة. وبدت طقوسهم ساحرة ومختلفة. وبدا موقعى فى انتظارى بما أحفظ من الآيات. وكنت أتخيلنى بجلبابى القصير ولحية تعجلت أن تنبت قد صرت خالد. خالد بن الوليد... وسيدافع الولد عن نفسه بأنه لم يشته الوصول للحكم ولم يكن يعانى كبتا جنسيا ولا يجد سبل

الزواج فلقد كان لا يزال فى الخامسة عشر .

وربما كان خوف البيوت من أهل السواك وعلى أهل السواك دافعا آخر عجل بالمراهقين إلى التمرد والبطولة والشهادة فى دنيا لم يكن الرحيل عنها يبدو خسارة كبيرة. خاصة وأن الدنيا التى تنتظر المتسوكين صارت تبدو يوما بعد يوم غير ممكنة ولا تفسح لهم فيها مكانا. ولم تعد البيوت تعرض على زائريها ولدا جميلا، بل تليفزيونا ملونا يبدأ ثمنه من ٧٠٠جنيه مرة واحدة .

كانت الأخوة فى الله يدا ممدودة، وحضنا آمنا وحصنا حصينا . كنا مثل طفل تائه، افترق طويلا عن أمه. وماإن احتضنها حتى استرد فى لحظة واحدة أمانه الضائع. وجمعنا، ثم ساوى بيننا الجلباب كأسنان المشط، ولم يكن من فضل للحية على أخرى إلا ما تحفظ من الحديث والكتاب.

ولم يكن موقف البيوت ،رغم مناوشاتهم العنيفة أحيانا، عدائيا. ففى أواخر أيام السادات وصبيحة اغتياله، كان القبض على أهل السواك عشوائيا ومضحكا، فتقطع عليهم قلب البيوت.

كان طبيعيا أيضا أن أقول لحسن إننى أترك بينه؛ فـ"بيتان لاتدخلهما الملائكة بيت فيه كلب وبيت فيه صورة". وألا أغفر للعسكرى الريفى وهو يجمعنا بعد صلاة الفجر، دون أن يفر منا أحد، فى بوكس ارتج بصيحة "لاإله إلا الله ...ومن لم يحكم بما أنزل الله..." لم أغفر له أن يستبقينى لأيام أخرى ويمنعنى الصعود قائلا:
"لساك صغير!"

عاد عزت بعد المقاطعة وصلاة السادات فى الأقصى. هزيلا بعيون زائغة مثل كلب أجرب. وبدت حلقات القماش التى دككها حزامه متقاربة ومنبعجة من أعلى، ظنت البيوت أنه ممن فنشوهم بسبب المبادرة، فلقد كانت الخطابات التى تحمل أية إشارة عن السلام ترد إلينا أو لا تصل إطلاقا .

لكنه عاد دون أم عزت. وبقى وحيدا فى البيت. كان يختفى معظم النهار، ويهز رأسه للسلامات آخر النهار حين يقف مدخنا فى الشرفة. أصبح ظهور عم خليل المخبر فى الشارع، يتبعه تلويحات وإشارات ذات مغزى من عزت. يدخل بعدها بسرعة من البلكونة. وكان دخول وخروج عم خليل المتكرر إلى بيت أم عزت لا علاقة له هذه المرة بالأستاذ ناصف الذى عاد إلى السجن. ينزل من عنده عم خليل وقد أطلت من جيبه علبة سجائر روثمان حقيقية. كان يشعل أحدها فورا بولاعة رونسون أوتوماتيك. واستغربت البيوت عدم ظهور أبلة أصيلة كذلك إغلاق مكتبة التوحيد. ولم يهرع إليه أخوة وأخوات أم عزت ولم يبذروا أطفالهم على السلم وفى الشارع.

* * *

وقع الخبر مثل صفعة على أهل البيوت. لقد جاء عزت بحثا عن زوجته التى طفشت هى وابنتها الرضيعة مع زوج شقيقة عزت، بعد أن حملت معها مصاغها وكل مصاغ سيدات آل خفاجة. كانت التفاصيل قد نشرت فى الجريدة الرسمية لكن الخبر مر على البيوت. وشيئا فشيئا، زادت الأخبار من سخونة أيام الصيف القائظة ومضغتها البيوت كالقات.

لقد حمل المخبرون صورتها، بعد أن حرر عزت محضرا رسميا، وباع بعده عفش الشقة وشمعت بالشمع الحكومى الأحمر. اصطحبه عم خليل أكثر من مرة إلى المشرحة للتعرف على قتيلات مجهولات الشخصية. وكانت البيوت لا تصدق أن فريدة قد هربت مع ذلك الولد المدمن الذى لا يحمل أى شهادة، وكانت البيوت تذكر حول عينيه ومخافته البادية وأظافره الوسخة بلا داع.

وعرفنا بعد أيام، أنها نزلت مدينتنا بعد هروبها مباشرة وتزوجته ببطاقة مزورة، وتسببا فى دخول مدرس وعامل خراطة السجن للتزوير فى الشهادة الرسمية. سافرا الآن إلى ليبيا بعد أن نالا من الضحيتين ثلاثة آلاف جنيه ثمن عقود عمل مزيفة. وكما ظهر فجأة، اختفى عزت فجأة.

حين عادت أم عزت بدت عجوزا جدا. وتقلص عدد الأحباب فى بيتها، وتوقفنا عن سماع جلبتهم. لم تعد تفتح الكوتشينة على السطح. ولم تخف البيوت لاستقبالها لكن بعد أيام قلائل غلب الفضول البيوت فزارتها. وأكدت لنا الأخبار بتفاصيل مريعة. فأميرة التى رضخت بعد عناد، بل وأكثر من علقة وارتضت بأهم، متجرعة نصيحة أمها ألا يذهب خيرهم لغريب، هى الآن فى المستشفى، قد نزل وليدها مبتسرا ابن ثمانية وتركته أم عزت فى الحضانة. صارت الزيجات العائلية والإقامة المشتركة تحت سقف واحد، قنبلة تنفجر مرة بعد أخرى. فللطفشان أخ متزوج بعزيزة. هذا غير ولدين يسعيان الآن فى المنزل سائلين عن أمهما وخالاتهما.

لم تصدق البيوت أن يفضح الله عم سالم فى فريدته. ومع كل يوم كنا نسمع صراخا فى بيت أم عزت. واستيقظنا على صوت عم سالم فى الشارع، وكأنه أبو صلاح يتوعد أفندينا. باكيا، راجيا أم عزت أن ترحم لحمه ولحمها، وأن يطلق عزت البنت. ولم تعرف البيوت كيف تواسيه، فلقد مشى ودموعه تسح على وجهه، فى الصباح، فى نور ربنا، تائها مزرقا.

حاول من حاول من العائلة السعى فى موضوع الطلاق لكن بلا جدوى فعزت ..مازال يحبها !!! وكان عم سالم يجرجر ساقيه ولا ييأس يبحث عنها فى الأقسام. قالوا إنها لم تسافر إلى ليبيا وذهب هو الآخر إلى المشرحة أكثر من مرة. وكان يجرى كل يوم على مكتب المهدى المحامى الذى أفتاه بأن قضية الزنى لاتسقط بالتقادم بل بالمضاجعة لكن جريمة أخرى كانت فى انتظارها وهى تزوير البطاقة والعقد. كان عم سالم يؤكد للمخبرين الذين لم يتركوه فى حاله أنه لايعرف للبنت طريقا.

• • •

جاء يوما إلى جدتى، وزارها فى فراشها وحاول أن يقول: "سلامتك" فاختنق صوته وراح ينشج بالبكاء، وأخيرا حبت الكلمات على لسانه فى بطء :

- أنا اللى ضيعت بنتى ياست أم محمد أنا السبب.

وجلس مولولا مثل النسوان، ومعددا إنها لم تلبس شرابا مقطوعا مرة. وأنه لم يقصر معهم جميعا. ارتضى من أجل بناته السبع أن يكون خادمهم، فلم يسع لعقد عمل هو أو زوجته ليظلا بجوار أولاد أم عزت.

- أنا وأمها مش مهم. بقوا شاريين فوق الخمس بيوت، وكام حتة أرض فى تقسيم الإستاد وسامى الجمل. لكن مافكروش فى عقد لبنتى المدرسة ولا الحكيمة. والله سافروا بتساهيل ربنا. لكن كتموا على نفس البت. عزت خفى بسبورها وحبسها فى قمقم. تقول له أشتغل يقول لأ العيال. أمه وكل اخواته بيشتغلوا دوامين. وبنتى تقعد خدامة تربى ولاده وولاد اخواته. إلا مانزّهها بقرش ولا فسحة. اوعى يغرك العز اللى هم فيه هنا. دول الأربع بنات واجوازهم وأمهم وأبوهم عايشين فى أربع أوض وصالة. وفريدة ..فريدة ياست أم محمد بتنام على الأرض ولو جوزها ولا مؤاخذة طلب حلاله بتسد بقه عشان ماحدش يسمعها. سابوها لوحدها مع الواد الصايع اللى مافلحش فى شغلانة. واللى زاد وغطى يقولوا ها نجيب لك ولاد جيراننا الفلسطينيين

يقعدوا معاك لحد مايرجع أهلهم وتاخدى على الواحد ستة دينار فى الشهر. دا بنتى معاها دبلوم.

- بس الفلسطينيين مابيطيقوناش من يوم سفر السادات.

- هم اللى هناك عرب ولا مسلمين . دول عبيد القرش وخلاص.

وبعد انصرافه بكت جدتى وقالت :

- وقفنى فى الشباك يا أشرف أنا صدرى مقبوض.

ولم يكن بالشباك سوى تراب وضجيج وبيوت لا تعرفها جدتى.

- مالك يانينة؟

- خلاص الدنيا اتقل خيرها كفاية عليا كده بقى.

كانت عيونها تبحث عن البيوت القديمة التى تعرفها والتى راحت تتقلص وتضيع. ولم يعد أحد يلقى عليها "العواف ياخالتى أم محمد."

• • •

وكانت دائما تبكى حين تزورها أبلة أصيلة، وتخبرها أن فريدة مازالت مفقودة، ولا تعرف هل البنت حية أم ميتة ومامصير ابنتها نور. أخيرا قبض على فريدة على الحدود مع المطرودين من ليبيا. وباع عم سالم مكتبة التوحيد لمصاريف القضية وقالت أبلة أصيلة إن معاشها هى الأخرى حق لفريدة حتى تخرج بالسلامة. وطلقت عزيزة الأخت الأخرى لعزت. وجاءت إلينا وحاولت بكل الطرق أن ترى فريدة فى السجن بل انتظرت عربة الترحيل بالزغاريد ووزعت الجاتوه. كانت تفاصيل الزيارة والنقود والهدايا التى يمنحونها للسجانات بل وكذلك لكل زميلات العنبر، تخنق جدتى ولا تستطيع مع ذلك أن تطلب من أبلة أصيلة أن تكف. لكنها كانت تشاركها حماسها وتفاؤلها من مرافعة المهدى، بأن زوجها ألقى عليها يمين الطلاق

أكثر من مرة ولم يطلق. وأن البنت لو أرادت الحرام ماتزوجت بعقد ولا بمأذون، لكنها قلة العقل والحيلة. كانت نور الصغيرة قد عادت إلى جدتها. وراحت أبلة أصيلة تتوسل جدتى أن تجيبها وقد بردت قهوتها التى لم تمسها:

- ياخالتى أم محمد بردى نارى وقولى لى ليه؟ فهمينى ياخالتى أم محمد أنت بركة. كل ده ليه ؟ واحنا يارب غلابة. والله العظيم غلابة.

وشقت هدومها وصرخت حتى أفزعت نور الصغيرة:

- أنا فى نار ياخالتى أم محمد دول عشر سنين سجن ...عشر سنين يارب عشر سنين .

وقبلت جدتى نور ذات الشريطة الزرقاء وعيون أمها. وكانت أم عزت تتمنى أن تراها، فانصرفت أبلة أصيلة تاركة نور فى بيتنا وحفظتنى أم محمد ألا أزيد حرفا عن تلك الكلمات.

- نينة بعافية ونفسها تآنسيها وتشربى معاها فنجان قهوة.

كان البيت يستعد لزواج جديد لعزت وكانت أم عزت وحدها على السطح تفتح الكوتشينة. وعاد عزت قبل الزواج، وسمعنا صوت أمه أكثر من مرة تحطم زجاجات الخمر وهى تصيح:

- اتقى الله ..هو ربنا بيديك على دماغك من شوية.

• • •

خف ضجيج البيت، ولم تعد أم عزت تسيطر الآن على عزت، الذى أهمل زوجته الجديدة وعاد بسيارة أخرى، كانت تمتلئ ببنات يسرية ويسافر بهن إلى رأس البر. زارت أم عزت جدتى فى مرضها الأخير وقالت بعد أن احتضنت رأس جدتى طويلا، وسحت دموعها ساخنة على رأس أم محمد قبل انصرافها.

- سلمى لى على أصيلة ياخالتى أم محمد ..بوسيها إهى يسترك. البنات استوحشوا ماأعرفش كده ليه؟ وأميرة حلفت تطردنى أنا وخالتها لو عتبت عتبة البيت. والواد قال حيقتلها. هو مش حيعمل حاجة لكن الشيطان شاطر، والزفت اللى بيشربه ..ماأعرفش؟ يمكن يقع المقدر. هو اللى جرى لنا شوية ؟ ولاده فى عينيا. غلابة. ماهمش ذنب أنا اللى بأكلهم وأحميهم وواخداهم فى حضنى. نور حلوة ..حلوة قوى ياخالتى أم محمد.

وأخبرتنا لأول مرة بسفرها. وأنها عائدة إلى الخليج لتكون بجانب الأولاد. وعلى السلم توقفت على العتبة، ورفعت صوتها مرة أخرى:

- بوسى لى أصيلة والنبى.

وكنت أشفق على أم عزت. بدت طيبة ومكسورة. ضاعت مملكتها وسقطت فوق رأسها بأيتام ومطلقات ومبتسرين وخمر واغتراب. لكننى اندهشت لماذا لم تسأل مثل أختها "أنا غلطت فى إيه؟"

لم تفتح جدتى الشباك. كان البرد شديدا فقالت لى: "نفسى فى فنجان قهوة ياشرف." ونظرت من خلف الزجاج وقالت "فاضل مين؟".

كان عم إبراهيم قد أصيب بالشلل ولم يعد ينادى كهرمان يافول. ونسينا حلاوة اللكومادس وحلاوة صفاء وهالة وأشجان ومحضية، وضل بائعو الكتاكيت الطريق إلى بيوتنا التى تحولت أسطحها إلى أدوار مخالفة. واحتلت ضوضاء عمال بهنس ربيع شارعنا. شارعنا الذى يتجنبه الآن أبونا بطرس. ويأس أبو صلاح من الصراخ فى بيت غير البيت، وتراجع عن كرباجه. لن يهديك عم مصطفى الزغاليل. ولم يعد أحد يصدق قصة أبلة فاتن تحت الأرض. بل يقولون إن زوجها عبيط وصدقها. حتى الشيخ عبد العزيز مات. لحق بزوجته وعم مينا وأم حمدى والحاجة أمينة وتيتة تريزة وعم مسعد. أما عم تحسين فكنت أخبر جدتى أنه صار قطبا كبيرا والقطب لا يموت كالناس وإنما يدعى فيجيب. وكنت أتخيله مثل ابن سهل

الأصفهانى مشى يوما فقال لبيك ثم مات.

كنت فى تلك الأيام اختفى عندها من أبى الذى أمسكنى من زمارة رقبتى حين سمعنى أحفظ عن ظهر قلب خطبة السادات فى الكنيست وأردد مع مزامير داوود "لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملىء بالذبائح وفيه خصام". وصفعنى حسن حين أشرت إلى صورة عبد الناصر وقلت كما علمنا مدرس اللغة العربية فى الحصة الأولى بعد "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله." أنه أضاع أرضنا فى سيناء، ونقودنا فى اليمن، وأن الفلسطينيين باعوا بيوتهم، ثم سكروا ولعبوا القمار، فخسروا بيوتهم ونقودهم أمام بنات صهيون، وأننا سنشبع الآن خوخا من سيناء.

لكن حسن كان يكره على مايبدو الخوخ السيناوى، فلقد قبل معونة شعب الولايات المتحدة الصديق قبل ذلك، حين عدنا من الأمريكان ذات يوم، نحمل خمسة كيلوات دقيق وعلبة من الحليب المجفف وكذلك علبة بلوبيف، وكنت فخورا بعلبة حليبى ذات اللون الفضى الغامق والكتابة الإنجليزية واليد الحمراء الممدودة بالسلام، وتحتها علم أنكل سام.

كنت أرى جدتى تزداد نحولا وكأن قوتها كانت مستمدة من قوة البيوت وتجاورها وتلاصقها. وبعد البيع والهدم، صارت البيوت الباقية تقف وحيدة، وبشكل ما منكمشة وكأنها ترتعب من الخوف. لم تعد جدتى تقوى على الصلاة واقفة. بل تصلى فى فراشها وتطيل تسبيحها بعد الصلاة. تحتضنك حين تخبرها أنك ستكبر وستأخذها للحج. وحين تقول لك إنها لا تستطيع المشى فكيف تطوف. تخبرها أنك ستؤجر لها أربع برابرة يحملونها فتضحك.

* * *

كان انهيار ذلك العالم أسرع مما ظننت وكأن دابة الأرض قد أتت أخيرا على منسأة سليمان، وراحت الجن فى غضب تحطم الهيكل الذى ظلت تخدمه رغم وفاة

صاحبه، قبل أن تختفى وإلى الأبد فى سابع أرض، وعرفت أخيرا ما يحدث بين الرجل وزوجه.

ففى الصباح، استيقظت بخجل وظننت من ملابسى الداخلية المبتلة أننى قد عملتها، لكنها كانت شيئا آخر. ودخل حسن إلى غرفتى في يوم آخر، وقال وهو يغلق الباب خلفه:

- انت بقيت راجل وعايز أكلمك.

بعدها لم تفتح لى الأبواب ولا مابقى من البيوت. وصرت أخجل ويندفع الدم فى رأسى إن قبلتنى أبلة فلانة. ألبد فى غرفتى إن زارتنا فتاة ولا أسترق السمع. كذلك لم أعد أنزل الشارع كثيرا ولا افتقدنى من به. فأظل وحيدا فى غرفتى. وبداخلى ذلك الطفل الصغير يبحث عنك فى مسارب ذاكرته. وسامحتك.

سامحتك أيتها الطيبة. سامحتك حتى على يوم طهورى. هل يمكن بعد هذه العملة أن أسامحك؟ أنا والله العظيم سامحتك.

فكيف تموتين إذن وتمنعينى من حضنك؟ كيف تموتين إذن وتتركينى لوحدى؟

• • •

فى الفجر بعد ذلك بسنوات. حين تسأمنى المذاكرة وأبحث عن هواء. سأرى فى غبشة ما بين النور والظلمة هذه العجوز تنحنى على كوم الزبالة. امرأة لا تحبها القطط، تبحث بأصابع، لابد أن تكون نحيلة، عن لقمة. مثل ست الحسن. لقمة لها..أم لفراخها ؟

(كانت دجاجاتها تحببنها .كنا نصعد لهن بالأكل فيعرفننا، ويهرعن إلينا. ثم تجلس لتزغط ذكر البط حتى يكاد يبكى فنتعتقه، وتسرع بإغلاق باب السطح لأن عندها أرانب "والأرانب بتتنظر وتخفى أرنبك بالذات عن عيون الجارات).

ملفوفة بضباب غريب. تعاند الروماتيزم. تنهض أخيرا وما اكتفت سلتها، بينما القطط تنظر إليها معاتبة.

فى الليالى الباردة، كنت تفتقد حضنها وتتلمس من أمك سيرتها، وحين تحكى لك عن دموع أم محمد فى العام الأخير لمحمد، يفترسك برد المستشفى، والسرير المعدنى الذى تمدد عليه خالك محمد. تتمنى لو أنها كانت الآن موجودة لتعوضها عن تلك الأيام وتأخذها فى حضنك. تتخيلها على طرف الفراش، بكل هذا الحب، تذوب شيئا فشيئا، وتتمنى أن تعبر يدك ذلك الضباب الشفيف الذى يفصل بين الوهم والحقيقة. مد يدك ..بيقين. "ياضعيف الإيمان لو آمنت لمشيت على الماء" ولربت على كتفها الناحل قائلا "معلهش يانينة".

وحين تركت البيت لحسن. وتركت الكلية لأعمل سحلجيا أصوليا فى فرن. كنت أجمع بعض العيش "السحلة" وأذهب إليها أمام الكوم. وأمنحها طعام فراخها. لكننى لم أر أبدا وجهها. كنت أتمنى أن أرى فيه مايذكرنى بك.

ياإلهى! فى الصباح، فى نور الشمس، كان العيش كما هو، على الكوم لم يزل. فهل كانت تلك المرأة حقيقية...؟

لو كنت أنت هى، فأشكرك. لكن لماذا بخلت على بحضنك؟

ياستى ..ده حلم. كنت خليك كريمة واحضنينى. هو يعنى كان بحق وحقيق؟

عن المسك ...والختام

مختنقا أعود إلى البيوت، فلقد اتصل بى صديق عربى من أيام الجامعة وقال إنه ينتظرنى فى الفندق الجديد مارشال. عرفنى طلال بأخيه مازن الذى يتحدث بلهجة مصرية مدهشة. كان الحديث صاخبا ومرحا لكننى حين سرقنى الوقت استأذنت وقلت إننى سأمر على بيت والدتى. وسألنى مازن أن أين - حين قلت شارع البياع، راح يتأكد منى من موقعه تحديدا. فاجأنى حين صاح "أنت من كفر الغجر؟ إزى يسرية وليلى؟" لم يعد أحد يذكر الغجر ولا تاريخهم حتى أطفال البيوت أنفسهم. ابتسم ابتسامة أحرجتنى، واندفع يحكى، فعرفت من كلامه أنه كان من زبائن يسرية. أعاد بيده ذات الفص الأزرق شعره الأسود المنسدل وهو يكرر "وليلى أخبارها إيه؟" لم أعرف فى تاريخ البيوت ليلى التى ذكرها. لكنه ذكرنى بحادثة قديمة كنت شاهدا على بعض تفاصيلها.

لقد واظبت أبلة أزهار - زوجة الأستاذ ناصف - التى كانت فى ذلك التاريخ فى الثلاثين، ومازالت تحتفظ بعود جميل صلب، على السفر مرة كل أسبوع إلى القاهرة فى مأمورية للوزارة. كنت شاهدا على عودتها أكثر من مرة منهكة وهى تقول: "عندك الأكل ياناصف فى التلاجة. سخنه الله يخليك للعيال. أنا باتبهدل من السفر." وكان هذا إشارة لى لأنصرف.

لكن المهم أن ساكنا جديدا من العرب استوقفها قائلا: " أهلا ليلى" لكنها قابلته بوجه منكر، واستمرت فى خطوها المرتبك مع شهدى، بينما تصدى عم سعد صاحب موقعة "وكمان بتشربى سجاير؟ " للشاب السمج بكلمتين فى أجنابه.

لكننى وغيرى رأيناها فى تلك الليلة تخرج من عند يسرية، وظننت أنها تطلب منها أن تلم سكانها الجدد أو تشكو لها سفالة الولد لترد عليه يسرية بما هى أهل له. على أية حال لقد عاقبه الله على ذلك بفضيحة إذ قبض عليه بوليس الآداب بلبوصا من فوق بنت قليلة الأدب مثله واستراحت منه البيوت.

وبعد عودة السادات من القدس، جاء ضابط شاب لم يستطع إخفاء دهشته، وهو يقبض على هيكل عجوز افترسه الروماتيزم بريلة الطعمية.

وفى صباح غير بعيد من ذلك التاريخ، رحلت أبلة أزهار نهائيا بعد أن قبلت يسرية. قالت بعض البيوت إنها قبلت يدها. ولم تستغرب البيوت ما حدث، فظروف أبلة أزهار، التى تحول خطاطا ذا مبادئ وشيوعيا عجوزا روماتيزميا يقلى الآن أقراص الطعمية، جعلتها تستلف من أولاد الحلال والحرام. وقال مازن:

- المرة القحبة هى اللى بعتت لنا البنت، وهى اللى اتصلت بالبوليس. نقح عليها الشرف زى ما بتقولوا، فى المخفر وقفت على راس صاحب السكن يرجع لنا المقدم ونغادر. بيناتنا أنا قعدت كتير مش فاهم لكن عرفت إن السبب ليلى.

- قلت لك ماعندناش ليلى.

- قصدى أزهار.

وصممت على الانصراف فقال:

- يا أخى ليش تغضب؟ ساعة حظ بين أصحاب. أنا اصطدتها فى الزمالك. تالت يوم جيت مصر. خدت منى تلاتين جنيه تستاهلهم، الواحد ازاى يغلط فى واحدة نام معاها؟

كان الآن محرجا ومتضايقا من تقفيلى مرة واحدة، وبعدما مددت يدى مودعا، قال فى عناد من وراء ظهرى، غير عابئ بالجالسين فى المطعم.

- اسمع حأبعتك بعلامة، وحتعرفها يسرية. ليلى فيه شامة قد حبة مسك فوق سرتها.

كنت أترك الفندق مهرولا. ووجدت أقدامى تقودنى إلى كوافير يسرية. كانت الأحداث تترتب من جديد فى رأسى، وتبدو للأسف معقولة. لقد تمنيت يوم سقوط سور برلين، وبعد انهيار السوفيت أن يكون الأستاذ قد مات سادرا فى أمله أن أجمل الأيام لم يأت بعد. وكنت طوال الطريق، تترتب فى رأسى الحروف الكوفية التى فسرتها بعد ذلك التاريخ بزمن. كانت أبيات ناظم تقول: "إذا لم احترق أنا ،وتحترق أنت، ونحترق نحن. فكيف يمكن أن يتدفق النور من هذه الظلمات؟"

خرجت لى يسرية. بشعرها الأصفر والعدسات الزرقاء والروج الثقيل وابتسمت لى فى جرأة. كانت الظلمات تطاردنى ، ولم أر شعاع نور واحد. وسمعت صوت الشيخ حامد مازال رغم أعوامه الثمانين يلقى درس المغرب. فدخلت الجامع أحس بافتقاده. كان صوت مقيم الشعائر يرتفع لآذان العشاء. وحاول الشيخ أن يقوم فلم يستطع، مددت له يدى التى استبقاها حتى أقيم للصلاة، وفاجأنى حين قال:

- صلى أنت ياشيخ.

وخلع طاقيته البيضاء وكانت لاتزال دافئة من رأسه الأصلع.

- يامولانا ..أنا...

- تلميذى وتخشى الإمامة ؟

صرت أخاف كل شىء. شأن كل طفل مدلل يخاف جدا حين يبتعد عن رائحة أبويه، كنت أخاف جارى، وأخاف الناس فى الطرقات، وأخاف غدا سأكون فيه وحدى، وأخاف ذنوبا تطل من ثقوب الليل برأسها، وتقسم لى أننى سأسقط لا محاله يوما فى بئرها.

وفى خوفى جمعت حجارتى. ورحت أبنى سورا يفصلنى عما أخاف.

لم يكن بناء السور صعبا. كنت مشغولا به عن لقاء صديق، عن قصة حب. عن كتابة حقيقية أواجه فيها نفسى. وكنت أيضا مشغولا وخائفا عن لقاء الله. حتى

فى صلاتى كنت مكبلا بالخوف فلم اعبر امامه. كل يوم كنت أرتفع بالسور لأطول من كتفى وأقرأ مستندا عليه.

أحيانا يعمق إحساسى بالظلام وأفتقد شمعة واحدة. لكن السور أصبح زنزانتى التى فى أحيان قليلة أثقب فيه بتوجس ثقبا ضئيلا جدا ليصلنى النور، لكننى أجبن من أن أرى العالم من هذا الثقب.

كانت الظلمات فى رأسى أعنف من أى نور. وأنا من قبل ذلك أخشى الإمامة. تضيع آياتى فى مواجهة القبلة، وينزل على عينى ستار أسود وكأن من ورائى عصا مولانا. ستصبح بقرة سيدنا موسى خضراء وحمراء وربما "بلو بلاك" فارتعبت. وقال إمام البيوت "كن رجلا" فأختنق دموعى مفتقدا مولانا رحمه الله. لكن السور ثقبه فجأة طائر أبيض، حمامة بيضاء وساكنة لا تحيد عيناها عنى، وكنت كلما أمعنت فى التحديق أندهش أن الثقب يتسع ويتسع. ومع الدمعة التى تملأ عينى كانت تخايلنى تلك الحمامة التى تكبر وتتضخم وتقوم أخيرا لتمشى بخطو واثق. واتسع الثقب فصار طاقة، فنافذة، فخلاء مسجى، امتد جليلا وسيعا على مدى البصر. ولما نزلت الدمعة أخيرا من عينى، وجدت الخلاء قد تحول إلى كتل متساندة ذات ألوان حميمة.

كانت تلك بيوتى وقد استعادت أرضها من التنظيم، وفرحت المناشر بالغسيل، والشرفات بالبنات وبجبات الليمون فى صوانى الفلل. وعلى أرض الشارع أصبحت خطوات الحمامة فجأة خطوات امرأة فى ملابس الاحرام، ترفع عيونها للبيوت بفرحة عودتها من الحجاز، ومن الوجه العجوز انسحبت كل ملامح الألم. كانت تلك العيون الفنجانية تمتلئ بى وبالبيوت ولا تنسكب.

وانتبهت على نحنحة شيخى، كان خلفى ينظر مطمئنا وينتظر صوتى، كأنه يعرف أن الآيات لن تتفلت من لسانى وفى صدرى كل هذه البيوت.

المنصورة، يناير ١٩٩٩